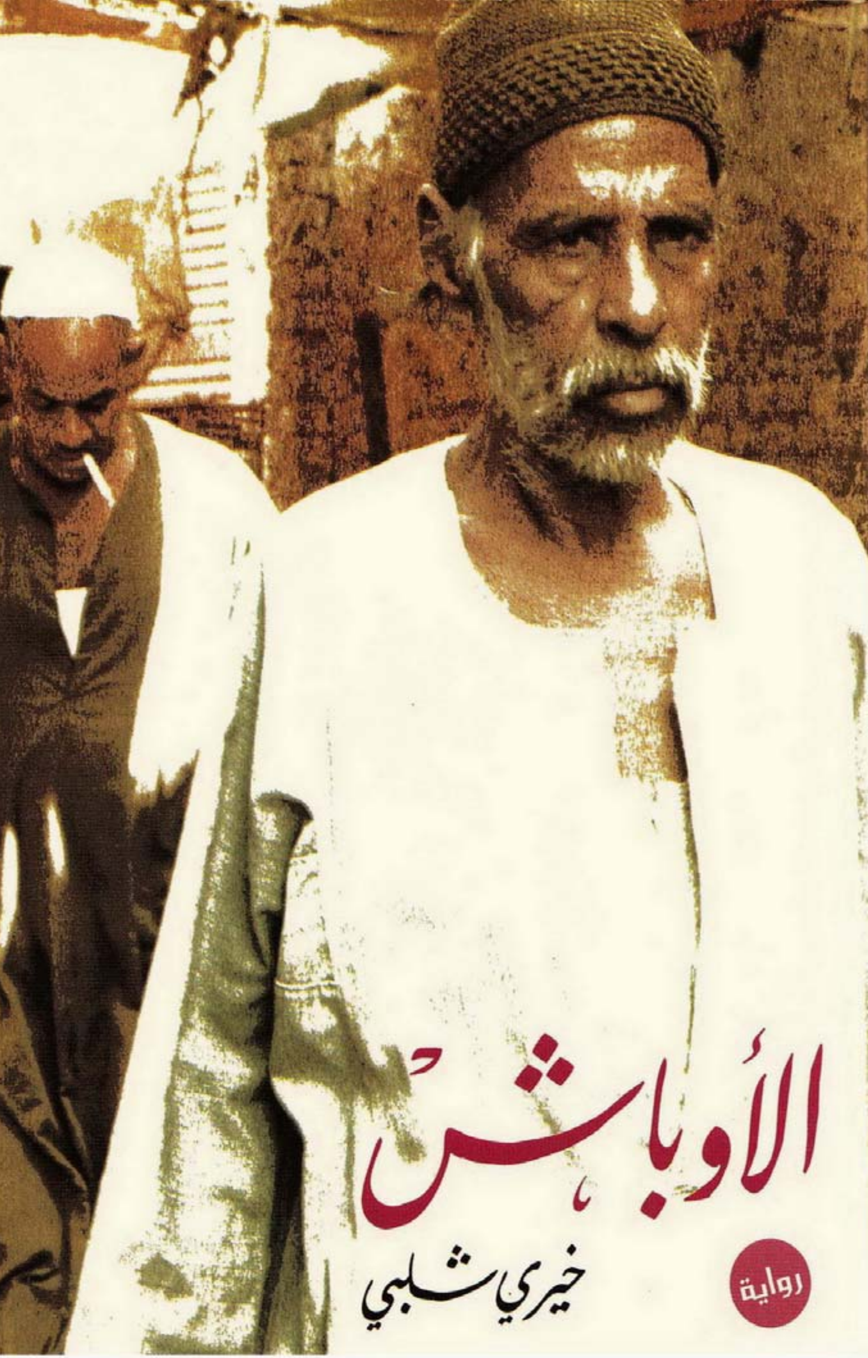

الأوباش
رواية
خيري شلبي

خيري شلبي

الأوباش

دار الشروق

الطبعة الأولى ١٩٧٨

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠١٠/٩٠٦٠

ISBN 978-977-09-2828-6

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر القاهرة مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧: «٢٠٢»+

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

المحتويات

القمر يتسلل إلى الإسطبل ٧

الفصل الأول: كيف التقت البلدة بالأسطبل ١١

الفصل الثاني: طلعت يفتح الدفتر ٢٧

الفصل الثالث: القيظ ٤١

الفصل الرابع: شيخ البلدة كان السلطان ٥١

الفصل الخامس: قبلما تسقط المئذنه ٦٩

الفصل السادس: والنجم الذي هوى ٨٥

الفصل السابع: **ألسنة الأوراق لا تعرف أصحابها** ١٠١

الفصل الثامن: الارتحال وراء القاضى ١٢١

الفصل التاسع: جنون التفاصيل ١٥٥

الفصل العاشر: الوعد والمكتوب ٢٠٩

الفصل الحادى عشر: لغة المسوقة ٢٤١

الفصل الثانى عشر: الموت بالمجان ٢٦٥
الفصل الثالث عشر: بيوت للغرباء.. ٢٨١
القمر يتسلل من الإسطبل ٣٠٩

القمر يتسلل إلى الإسطبل

قال الجد «مهيوب» لحفيده «طلعت»:

يعز عليّ أن تطلع الترحيلة يا طلعت. ولكن، أنت رجل. أما أنا فقد تعبت. أمك «توحيدة» أتعبتني في حياتي. لم أنجب سواها وبضعة رجال. أما الرجال فقد أخذتهم «السلطة» واحدا وراء الآخر: مرة لإنشاء المصارف، ومرة لصد غضب النيل حين يفيض عن الحد، وثالثة لحفر قناة السويس، ورابعة للجهادية، وخامسة وسادسة وسابعة وعاشرة. من حب الله وفضله عليّ تذكرني، فاختبرني، فأصابني فوضعني بذلك في صفوف المؤمنين .. إذ لم يعد لي أي ولد ممن ذهبوا. والحمد لله لم يبق سوى أمك العزيزة «توحيدة» أراد أن تعوضني عن المرحومة أمها وأن تؤنس وحدتي بك يا أعز الأبناء ..

تعرف يا طلعت ؟.. هي الوحيدة في بلدتنا لم تطلع الترحيلة طول حياتها. أوصتني أمها بها خيرا فلم أعرضها للإهانة في بلاد الناس. غير أن الزمن غدار. هبط البلدة ذات يوم رجل متقمط يركب حمار العمدة وخلفه خفير يلهث. قالوا إنه رجل كبير هارب من بطش الملك؛ لكن العمدة قال إنه واحد من أقارب الذين يعيشون في

أم الدنيا، وإنه يعمل قاضيا في المحاكم، وقال أيضا إنه هارب من بطش الملك ـ ولم نكن نعرف لماذا يريد أن يبطش به الملك. صار الناس يذهبون إلى «دوار» العمدة ليتفرجوا عليه وهو يجلس في الڤراندة يدخن الغليون. من سوء بختها مرت البنية من أمامه حاملة «البلاص» قادمة من الترعة. ماكاد المساء يحل حتى جاء الخفراء ودعوني لمقابلة العمدة.

قال لي العمدة إنني تشرفت بالرغبة السامية، وإن حضرة القاضي قد خطب ابنتي.. أنا ؟.. توحيدة ابنتي يتزوجها حضرة القاضي؟ سامحك الله يا عمدة قل كلاما غير هذا يكون المزاح فيه خفيفا ومقبولا. غير أن حضرة القاضي قال لي في تودد: «اجلس يا عم مهيوب». فجلست. أخرج من جيبه حزمة من ورق البنكنوت. منظرها أطار لبي. وضعها بين يديّ. قال: «عدها». صارت يدي ترتعش؛ أنا الذي في ترحيلة العمر كلها لم أفز بورقة واحدة منها. قال: «كم؟» قلت: «مائة» قال: «حلال عليك مقدم صداق لابنتك» لم أجد كلاما لحظتها. لم أشعر إلا بيدي بين يدي القاضي نقرأ عقد القران.

يومها قال القاضي إنني لا يجب أن أحمل الهم أو أنشغل بشيء، فكل شيء سيكون هو مسئولا عنه، وما عليّ إلا أن أسلمها له كما هي، لتمكث في بيت العمدة أياما، تسافر بعدها إلى بيته ـ بيتها، في أم الدنيا. كل فتاة ليلتها نظرت إلى أمك في حقد مسموم، وكل فتى نظر إلى القاضي في حقد أشد سما. اندفعت الألسن تقول وتعيد وتزيد، وانتقلت فلذة كبدي إلى بيت العمدة وانتهى كل شيء.

قل في ليلة الفرح ماشئت فإني لا أستطيع وصفه لك. إنما العروس التي كانت تجلس في بيت العمدة ليلة العرس كالوردة المفتحة لم تستطع أن توقف سيل دموعها. كانت يا ولدي تعرف أن هذا الفرح ليس سوى حلم قصير الأجل. فبعد ثلاثة أيام خرج القاضي مع الفجر مسافرا. قالوا إنه ذهب ليجهز للعروس، ولسوف يعود ويأخذها وربما يأخذنا معها. غير أنه لم يعد، حتى الآن لم يعد..

ظلت أمك في بيت العمدة حتى وضعتك. كانت تخفي ما تلاقيه من ذل، فللعمدة نساء أربع ولأمك حجرة الكرار. ومن يوم ماسافر زوجها شالت حمل الدار كله على ظهرها، وكان لا بد أن ألم لحمي، بعد أن نفد الصبر ومات الأمل..

واندفعت أجري في بلاد الله خلق الله أبحث عن أبيك. والعجيب يا ولدي أنه ما من مكان سألت فيه عنه إلا وسمعته ورأيته ولكن هيهات أن أمسك بالجسد. وها أنت ذا يا طلعت يا ولدي تراني قد تعبت وكففت عن السفر وراء أبيك، فيكفيني السفر وراء الرغبة. ولكن أمك الحبيبة لا تزال تستقبل المساء كل يوم باسمة، بينما تنظف زجاجة المصباح.

* * *

زهق «طلعت» من هذه الحكاية التي بات يكرهها كره العمى. كثيرا ما غمز جده في ذراعه ليكف عن الاستمرار فيها، ولكنه لا يريد أن يكف عن حكايتها ليل نهار. قال طلعت لنفسه: إنه لا يخشى أن يفتضح أمري في الغربة. ثم قال لجده وهو يحزم وسطه بالمنديل المحلاوي:

إننا في الترحيلة يا جدي.. ومعنا أنفار من كل البلاد..

فنظر إليه «مهيوب» وهرش ذقنه وابتسم. وكان طلعت يريد أن يقول له إنهما في الليل سينامان في الإسطبل مع الأنفار ككل ليلة، وإنه إن سمع جده يحكي هذه الحكاية ثانية فسوف يهرب ويرمي نفسه في المصرف. على أن صفارة الخولي انطلقت من بعيد تنذر الأنفار أن ساعة القيالة قد انتهت. فأخذ «مهيوب» يلم نفسه من تحت ظل الجزورينة ويتجمع واقفا. وأخذت الأجساد المرتمية فوق الأرض تتململ وتجرجر نفسها سائرة في اتجاه الخولي..

الفصل الأول

كيف التقت البلدة بالإسطبل؟

بالحق يا ناس دبه من بلدي
ولا بلد الوالدين ولاجدي
لا هي بلدي ولا مسكن أجدادي
دي بلاد الغز والشقا يا حادي

(موال مصرى)

(١)

نظر العجوز إلى «الدنيا المقلوبة» حوله وأمامه داخل الإسطبل. أيقن أن الولد قد ضاع بين الأقدام. وضع يده على قلبه، وتنهد، ثم نادى:

ـ يا طلعت.. يا ولد يا طلعت.

تلفت إليه أكثر من واحد، لعل اسمهم جميعا طلعت. فعاود النداء:

ـ يا طلعت يا ابن القاضي.. يا ابن القاضي.

ارتطمت به الأكتاف من كل ناحية. صار يترنح لاهثا شاحبا، يلعن الإسطبل وشورته السوداء، والناظر والذين خلفوه.. ثم وقع. راح يصرخ ويعافر بساقيه النحيلتين وذراعيه، ويحاول النهوض فتمنعه الأجساد التي تتدافع..

ـ عم مهيوب؟.. عم مهيوب يا دياب.

ـ دياب.. الحق بي يا ولدي..

استطاع دياب أن يتمطع بالطول وبالعرض عدة مرات حتى أوسع للعجوز فراغا يتحرك فيه. نهض مهيوب يلقط أنفاسه الهاربة يتشبث بمن حواليه. تلقفه دياب تحت ذراعه ومضى به. قال مهيوب:

ـ الولد.. تاه الولد مني يا دياب..

ـ ابن القاضي؟

ـ ومن غيره؟

ـ لا تنشغل.. سيبين بعد أن تهدأ الحالة.

ـ من سوء بختنا بعث الله لنا بمن يشاركنا في موضع القدم.

ـ نحن نستاهل.. إن ربنا يعاملنا بسوء نيتنا.

ـ نحن أصلنا من أصل واطئ.. يكرمنا الله بإسطبل ننام فيه بدلا من العراء، وبعيدا عن التهمة الأزلية التي كانوا يلفقونها لنا كل عام.. فإذا بنا، حتى نحن يا أبناء البلد الواحد والحارة الواحدة، نتخانق حول المكان.

ـ آه ماذا سنفعل اليوم.. في العام الأول كان الإسطبل يكفينا.. وكنا نتعارك؛ هذا يحب المصطبة، وذاك يحب الركن الدافئ.. أظننا اليوم سنبتهل إلى الله قائلين: اللهم أكرمنا بشبر واحد.

ـ ربنا يستر.. ستصل الخناقات اليوم لرب السماء.

ـ ها.. لقد بدأت.

وأشار بيده، فإذا برجال يرتفعون فوق الأعناق وينهالون ضربا بالعصي فوق الرءوس والأكتاف. أخذت الجموع تتراجع. صوتت

نساء، صرخ أطفال. صار الإسطبل مثل يوم القيامة كما يصفه فقيه الجامع: لا أحد يعرف أحدا والرجل ينسى زوجته والزوجة تنسى طفلها والطفل ينسى الأبوة والأمومة ولا يفكر إلا في نفسه. غمغم مهيوب وهو يغمز دياب:

ـ شف يا دياب إن كان أحدهم من بلدنا؟

ـ لا يظهر للعين غير الذين يضربون.. يعني لا أحد من بلدنا.

ـ سنأكلها الليلة إن شاء الله.

عرف دياب أنها «العلقة الساخنة» التي يأكلها أهل بلدته دائما باعتبارهم «غرابوة» لا شوكة لهم.. فغمز مهيوبا في كوعه ليطمئنه. لكن دائرة الضرب توسعت بسرعة دون أن يتحرك من مكانه أحد. زحف الضرب من مجموعة إلى أخرى حتى صار بجوار وجه دياب. انتفض واستعد ليضرب من يعتدي عليه أو على بلدياته، غير أنه فوجئ بشيخ الغفر نفسه ـ شيخ غفر التفتيش ـ يرسل الضربات في كل اتجاه، ويصيح آمرا:

ـ اضرب يا غفير.. اضرب ضرب موت في أولاد الكلب الأوساخ هؤلاء.

ـ يا شيخ الغفر.. حاسب يا شيخ الغفر.. نحن مظلومون والله مانستحق الضرب.

صاح شيخ الغفر:

ـ اخرس يا غرباوي يا نجس.

ارتعش دياب. غمزه مهيوب:

ـ اسكت يا دياب.. الضرب ليس فينا نحن.. الضرب عام..

ثم أخذ يرتعش هو الآخر..

تمكن خفراء التفتيش من إخماد كل حركة وصوت.. دفع شيخ الغفر الناس أمامه وداس فوقهم حتى وصل إلى المذود المستطيل بطول الجدار فوقف فوق حافته صائحا:

ـ يا حَوَشْ يا أولاد الزواني.. الإسطبل أصلا جعل للغرابوة من عام مضى.. هكذا أمرت الست ووافق التفتيش.. إنما الباشكاتب له رأي هو الآخر.. وليس معقولا أن يمشي رأي الست ولا يمشي رأيه.. قال: الإسطبل للأنفار.. صنف الأنفار.. لا يهمنا إن كان النفر من بلد التفتيش أم من بلاد بعيدة.. من يعمل في أرض الوسية فهو نفر رغم أنف الذين خلفوه.. ومادام نفرا فلا بد أن يبيت في الإسطبل.. ومن يَنَمْ في الإسطبل، يا حمير يا بهائم، يحمد الله أن وجد مكانا يأويه.. فلا تفلقوا رءوسنا بعد الآن..

ـ لكن يا شيخ الغفر، أهل البلد عندهم بيوتهم.. وبيوتهم في نفس البلد.. دعوا الإسطبل لنا.. إنه على قدنا.. ونحن من بلاد بعيدة ولا مأوى لنا غير الإسطبل..

ـ هكذا صاح واحد من «الغرابوة» بصوت مرعوش مخرخش تراكم عليه الصدأ.. شخط فيه شيخ الغفر:

ـ اتكلم أنت الآخر يا ابن الـ «....»..

ـ من سوء بخته كانت الـ «....» هذه واقفة بجوار ابنها، فانبرت بلسان غرباوية أصيلة لم تعرف لها أهلا ولا بلدا، ولا تعرف أصولا

ولا ترعى حرمات، غسلت شيخ الغفر وعصرته ونشرته، وأفهمته أن هذه الـ «....» هي بسلامتها أمه، أمه فقط، وأنه لهذا يعمل في التفتيش، ولا بد أن أمه قد ذاقت طعم حتى خدم التفتيش كي يصبح هو شيخا للغفر فيه. لم يستطع أي خفير أن يضربها على هواه، فما من خيزرانة هوت عليها إلا وتلقفتها بيد مدربة ثم طوحت بها في وجه الجميع، مطوحة خلفها بصراخ متفجع موجوع..

وصاح شيخ الغفر:

ـ ستلم علينا التفتيش.. دعوها.. هل نجعل عقولنا على قد عقلها؟! إنها امرأة.. وغرباوية.. تقول ماتشاء فلا حياء عند أهلها.. وعلى العموم أنا أستاهل قطع رقبتي لأني سبق أن جئت في صف الغرابوة.. ومن يجيء في صف الواطئ يأخذ على دماغه.. فوالله يا أولاد الفجرة يا غرابوة لأرينكم شغلكم (ثم صرخ فجأة): الغرابوة هنا.. وأهل البلد هنا..

وأشار نحو الباب للغرابوة، ونحو عمق الإسطبل لأهل البلد.. فتدافعت الأجساد من جديد وراحت تتصادم، وصاح الغرابوة: «في عرضك يا شيخ الغفر.. الحق علينا يا شيخ الغفر». إلا أن الأنفار من أهل البلد كانوا قد سيطروا بالفعل على الإسطبل. جلس من جلس وتمدد الكثيرون فاردين أذرعهم وأرجلهم ليحددوا ـ مبدئيا ـ المسافة التي سيحتلها كل منهم على الدوام. أما الغرابوة فصاروا مثل غابة هزيلة من أعواد التيل تتقارب وتتقارب في حزم صغيرة ثم تنحاز إلى جوار الباب. ثم خرج الخفراء وأغلقوا باب الإسطبل بالضبة والمفتاح.

(٢)

صاح دياب:

ـ أمرنا لله يا جماعة.. لكن أين زوادتنا؟

صاح واحد:

ـ أين بلاويهم؟

انطلقت أصوات:

ـ شوفوا أين كنتم تضعونها؟

سحب مهيوب ذراع دياب خوفا من أن يشتبك في عراك.

وهنا صاح رجل:

ـ عباءة من هذه؟

ـ عباءتي.

هكذا رد مهيوب بسرعة. كورها الرجل ورماها على طول ذراعه، فانفردت في الهواء ثم انطرحت فوق حزمة من أعواد التيل. صار

كل واحد يخلص رأسه منها ويدفعها بغيظ كأنه يتبرأ منها. تمكن دياب من سحب طرفها ثم شدها، بينما يصيح مهيوب متفجعا: «والجوال.. كان معها جوال» فرد واحد من أهل البلد: «هي الآن مع الجوال» انفجرت الصدور ضاحكة، وصفق دياب وصاح:

ـ لاجوالك ولا قفتي.. سنلوص بإذن الله ونأكل طينا.

وقال مهيوب:

ـ الولد أيضا زمانه سُرِق.. يا للمصيبة.. يا ابن القاضي.. يا طلـعت يا ابن القاضي..

ردت أصوات في ضيق:

ـ القاضي وراءنا وراءنا.. نحن بعد لم ننس القاضي الذي حكم علينا بهذا الذل.

صاح مهيوب يبكي: «يا ولد» وكانت ثمة حركة تبدو مقتربة من ركن بعيد، وكان الصبي يتعثر ويقع بين الأجساد. في لمحة قصيرة تلقى الصبي عددا من الصفعات والركلات والشلاليت والزغدات، وكل واحد يقول له بغيظ شديد: خد يا ابن القاضي.. سلامات يا ابن القاضي .. ها..القاضي.. أنت والقاضي على..» فصاح مهيوب يتلوى من الألم:

ـ حرام عليكم يا ناس يا كفرة.. إنه ابن قاض محترم.. لاتظنوه لعبة.. إنها الأيام السود جاءت به إليكم.

تخطى الولد حدود الخطر وصار في زمام الغرابوة. تلقفته الأيدي وأسلمته إلى بعضها..

ـ فلنقعد وأمرنا لله يا عم مهيوب.. نقعد في موضع أقدامنا.. ما دام الناس لايجدون من يحكمهم. وضعوا مؤخراتهم فوق الأرض متقرفصين. تململت الأجساد المتمددة بجوارهم، وبرطمت. زمجر دياب مثل كلب مسعور:

ـ أليس لنا أن نخمد مثلكم يا أولاد الفرطوس ؟!.. كل واحد يقول يا نفسي.. حتى أنتم؟..

قال مهيوب في تسامح مقصود:

ـ لا يريدون الاتعاظ.. ربنا يسهل لهم.. تتفرعن اليوم يجيئك في الغد من يكتم أنفاسك.

وكانت نظرات طلعت قد راحت تتجول في الأجساد الممددة في أنحاء الإسطبل. وكأن منظر المقابر في بلدتهم قد حضر: مجموعة من الهياكل الطينية ذات أدمغة تتجاور. هل رأيت قبرا يتحدث إلى قبر؟.. هكذا سأل نفسه. وقال مهيوب:

ـ أمرك لله يا ولدي.. نم على ركبتي.. أما أنا فسأنام على كتفك يا دياب.. وأما أنت يا دياب فلتبحث لنفسك عن مكان بين هذه الأكتاف..

ابتسم دياب:

ـ اطمئن يا عم مهيوب.. أغلب هذه الأكتاف من بلدتنا.. ولن تميل برأسنا.. أخذت كل مقبرة تتلوى كالحية وتطلب من زميلتها أن تنزاح قليلا. وصارت المقابر تلقي بظلالها فوق بعضها.. ثم تمدد المتقرفصون. وصدرت عن دياب خرخشة وطقطقة مثل

طقطقة الأصابع. فبدا عليه أنه تذكر شيئا. فدب يده في جيبه وأخرج مظروفا كبيرا وضعه على الأرض:

ـ مخدة لائقة لك يا طلعت.. خذها ونم فوقها.

ثم تناول رأس طلعت ووضع المظروف تحتها. قال طلعت جذلا:

ـ ما هذا الورق يا خال دياب.. إن كان كتابا فسوف أقرأ فيه.

ـ مازلت في الكتاب يا خيّ؟ إنك تحلم.

رفع «مهيوب» رأسه مغتاظا:

ـ كتاب ماذا يا جدع؟!.. الولد في المدرسة.. وقد جاء هنا ليدبر لنفسه بذلة وحذاء.

قال دياب:

ـ إذن فالورق من نصيبه.. والله بعد مامشيت عدت ثانية وأخذته.. إنه دفتر كبير يا طلعت.. ملآن بالكتابة والأختام والبصمات والتساوير الغريبة.. ذاكر فيه يا طلعت.

يد طلعت تتحسس المظروف في فرح:

ـ من أين جئت به يا خال دياب؟

ـ لقيته.

ـ أين ؟

ـ في مسطاح المصرف.. رأيت طرفه والباقي منه كان مدفونا

تحت الردم.. كنت أفعل مثلما يفعل الناس في مسطاح المصرف.. وسمعت صوتا يقول: وررر.. ررر.. قلت ما هذا النقرزان؟ نظرت فرأيت كلبا يبول فوق ورق.. ضربت الكلب ونزعت الورق. فخرج هذا المظروف.. فوضعته في عبي وجئت به.. ومال «مهيوب» على أذن «طلعت» وهمس:

ـ في الصباح اربطه حول ظهرك.. ليحميها من عصا الخولي..

ثم اعتدل ونَمْ.

(٣)

الرأس مسنود فوق المظروف الكبير، والعين مفنجلة لا تريد الركون إلى النوم.. سقف الإسطبل مثل خيمة من الدخان الثقيل، ينحدر مائلا نحو اليمين ونحو اليسار. ألواح من الصاج منطرحة فوق عروق من الخشب. مابين الجدران والسقف فراغ يتسلل منه الضوء. وتنهد طلعت وتمتم:

القمر يدخل حتى في الإسطبل..

وأحس برأس تعاكس رأسه، وعرف «طلعت» أنها من رءوس أهل البلد المتمددين في شريحة بطول الإسطبل ورءوسهم نحو الباب تلتصق برءوس الغرابوة الذين أعطوا أرجلهم في اتجاه الباب كذلك حتى لا تصطدم برءوس أهل البلد.. ثم أحس بأن الرأس تزحف حتى تجاور رأسه فوق المظروف. فتح الاثنان عينيهما.. وضحكا بصوت خافت..

ـ أتعرف القراءة والكتابة؟

ـ نعم إنني أروح المدرسة.. ولولا الإجازة ماجئت هنا.

ولمح في عيني الرأس بريقا يزداد لمعانا في ضوء القمر.. وقال الرأس إنه يود أن يتعلم الكتابة حتى يكتب شكاواه بنفسه، ثم قال بعد برهة إنه سوف يكتب عريضة، للباشخولي يشتكي فيها الخولي، وأخرى للباشكاتب يشتكي فيها الكاتب وثالثة للناظر يشتكي فيها الباشكاتب، ورابعة للمفتش يشتكي فيها الناظر، وخامسة للمندوب يشتكي فيها المفتش، وسادسة للتفتيش يشتكي فيها المندوب..

ارتعش طلعت وانتفض جالسا. ومثله فعل صاحب الرأس فبدا أنه صبي عجوز جدا. وهمس «طلعت» بصوت مرتجف:

ـ ما الذي حدث لكم؟.. من الذي طردكم من دوركم؟

ـ الحكومة..

ـ ماذا؟

ـ الحكومة..

ـ لماذا؟

ـ ضديات..

ثم تنهد مثل رجل كبير وهو يحاذي سبابتيه. انتفضت أشياء كثيرة بأعماق «طلعت»..

ـ أصل الحكاية يا .. ما اسم الكريم؟

ـ طلعت..

ـ عاشت الأسامي يا سي «طلعت».. أما أنا فاسمي «عمرو».

ـ بالجودة.

ـ أصل الحكاية يا سي «طلعت» أننا سرقنا عرق الأنفار..

ـ سرقتم عرق الأنفار؟.. عرقنا؟

ـ الحكومة قالت هذا.. وظلت النيابة تأخذنا وتردنا وتأخذنا وتردنا وفي الآخر حكمت علينا بأننا سرقنا.. وطلبت منا أن نرد ماسرقناه.. قلنا يا حكومة والله ما معنا ثمن الكفن..قالت الحكومة نأخذ كل ماتملكون ونبيعه ونعطي ثمنه للمقاول.. من لم يدفع أخذوا ما عنده من أشياء.. ومن ليس عنده يشتغل في التفتيش نفرا والمقاول يقبض أجره..

زام طلعت كأنه فهم الكثير. فقال «عمرو»: إن البلدة كلها جاءت تشتغل أنفارا وتنام في الإسطبل، ومن بين من هنا شيخ غفر البلد وباشخولي السراية وكثيرون من الرجال المحترمين، ويعلم الله كم من الأيام أو الشهور أو السنين سيقضونها هنا كي يسددوا ما عليهم. وكان «طلعت» يريد أن يسأل «عمرو» عن الشكاوى التي يريد أن يكتبها. ويسأله عن أشياء كثيرة كثيرة، لكنه تاه في دماغه، وصار يدعك عينيه ويتثاءب، فقال «عمرو»: إن الصباح رباح وإنه سوف يبرطل الخولي بخيارة خضراء ليجعل «طلعت» في الفرقة التي سيكون هو فيها حتى يجعل باله منه، وتثاءب بدوره، وهز «طلعت» رأسه موافقا، ثم وضع رأسه على المظروف فطقطق بصوت عال، وأوسع لرأس «عمرو» مكانا على المظروف. تجاور الرأسان. أما الجسدان.. فانعكسا..

الفصل الثاني

«طلعت» يفتح الدفتر

تسلم لي عينك من رباط الشاش
قولوا الحقيقة لامه - يا صبايا
دا الواد صغير لسه ما اتهناش
وريني وشك يا بني يا ضنايا

بكائية من الدلتا

(١)

اسمي «عمرو» يا سعادة البيه. وصلتي بالمرحوم أنني كنت أسهر إلى صلاة الفجر لكي أسمع صوته عند الاستغاثة. وأنا أيضا أحب أن أستغيث مثله وأصيت..

لا أعرف الفاعل. إنما الذي حدث أننا كنا نمشي على شاطئ ترعة خلاف. وكان المنسر ساعتها يخرج من البلد.. يركب الحمير والجمال فوق الأجولة والغرارات.

والله العظيم أقول الحق. كان المرحوم حبيب الله.. والناس تحبه..

كان يمشي ونحن نمشي وراءه.. لنعرف ماذا جرى لأهل البلد..

في كل موسم شغل كانت الأنفار تجيء.. وفي الصباح ترى البلد نفسها مسروقة. وكان الأنفار يشيلون التهمة. كنا ربك والحق نصدق أنهم هم السارقون.. فالأنفار كانوا ينامون على الطرقات، وفي القنوات، وفوق الأشجار..

أقصد أن أقول إن أهل البلد كانوا يصدقون أن الأنفار هم الذين يسرقونهم..

نعم نحن جميعا أنفار.. إنما هناك أنفار «غرابوة» لاتعرف من أين يجيئون..

شغلتي يا بيه أنني واحد من رجالة التفتيش.. حَمَّار.. حمار الكاتب.. الكاتب لايذهب للعمل بلا حمار.. وإذا لم أكن أنا موجودا فإن حمار الكاتب لا يخرج.. طبعا.. من يجري خلف حمار الكاتب وهو يلف على الأنفار؟.. الكاتب لايتنازل عني.. في يوم طلبوني في مكتب الوسية لأنظفه.. فتزربن الكاتب وقال للناظر: إن هذا الولد ـ أنا يعني ـ مثل البالطو والجلباب والطربوش والقلم والحمار.. ورأيت الناظر يضحك ويوافقه..

سأدخل في الموضوع. أخبرت جنابك، أن الأنفار.. كانوا.. ينتشرون.. ولهذا..

طبعا أعرف.. معلوماتي أن البلدة كانت حين يجيء الأنفار تحدث فيها سرقات..و.. كان العمدة يرمي التهمة في وجه الأنفار.

الباشكاتب يا بيه.. كان يلم أنفارا ويسلمهم للعمدة.. طبعا كانوا يبكون.. ولا أحد يصدق أنهم أبرياء. وتجيء الهجانة فتلم الأنفار المتهمين وتربطهم في حبل وتجرجرهم وينتهي الموضوع.. أما الآن فالأنفار في الإسطبل والبلد كلها مسروقة حتى العمدة.. فمن الذي سرق؟ لا بد أنها الشياطين.. أمرك يا بيه.. لم أصنع لي ختما.. وسأبصم..

(٢)

.. اسمي عبد الجواد أحمد سالم..

.. أحلف بالله أقول الحق..

.. شف يا بيك.. يحفظك الله.. كنا ساعتها في الظهر.. ما ندري إلا والجدع يسقط وسطنا ميتا.. سابت ركبي.. كان صوت المرحوم حلوا، ولم يكن يسكت ليلا ونهارا، فقد كان دائما فوق المئذنة..

.. شف يا بيك أنا ـ يحفظك الله ـ في حالي.. لكني أعرف أن المرحوم ليس له أعداء.. كلنا نحبه ونعشق صوته. وننتظره، ولو غاب لايجيء النوم.. كان يذكرنا بالله لكي نقوم ونصلي..

ليس القاتل من أبناء البلدة أبدا.. وعليّ الطلاق يا بيه أنا لا أدافع عن أهل البلد فهم جميعا ملاعين والشيطان أقوى منهم.. إنما أنا متأكد أن هؤلاء الملاعين كلهم يحبون «جمعة الحصاوي» ويموتون فيه حبا..

لا يا بيه.. هذا لم يحدث أبدا.. لم يتجمهر.. لم يهتف بسقوط الملك.. أما الطوب فهل يعقل أن جمعة يقذف أحدا بالطوب؟! إنه

إذا اعتدى عليه أحد يرفع صوته فقط، في الحال يطلب المعتدي عفوه..

العمدة يقول ما يعجبه.. المرحوم كان يمشي في البلد، وهو مكشوف عنه الحجاب وهذه مسألة بتاعة ربنا.. فلما يقف يتضح أن هنا سرقة.. وتبين السرقة.

معلوماتي أن العمدة لا يحب شيخ البلد.. ويخاف من الأسطى فانوس.. والأسطى فانوس يخاف من الحاج سليم.. ومع ذلك فهم جميعا أصحاب مثل العسل على اللبن.

في الحق يا بيك يا ما سمعنا.. لكن.. لانعرف أين طريق الحق..

من أدرانا؟.. الواحد منا يعرف أنه مدين لأفندينا.. لكن مامقدار الدين؟ هذا مايعرفه العمدة والكاشف.. فيقول العمدة: ادفع.. أدفع كم؟.. ادفع كذا.. ويكون المطلوب كثيرا ـ أكثر مما تعطيه الأرض.. فنحرر إيصالا بالباقي والباقي في العام التالى يتزايد.. ما يدري الواحد منا إلا والأرض قد انتزعت منه.. في هذا العام تنازل أكثر من واحد عن أرضه.. سلمها للتفتيش بلا كلام.

يحفظك الله يا بيك هذا ما عندي من أقوال..

طبعا أبصم.

(٣)

«أ»

سأقول بأنني لم أترك الدرك. لا. أقول إنني لم أتركه إلا بعد الفجر. قومي يا ولية. اشتركي معي في البلوى. طبعا، الآن تنامين، لكن ليلتها تركبك عفاريت الأرض، وأنا ما كنت أقدر أن أفعل شيئا. كان الليل طويلا في الدار ولم يكن النوم يريد أن يجيء. قومي يا ولية وهاتي لقمة طفح. لا أدري لماذا أجوع حين أخاف. لكن ماذا يجعلني أخاف؟ شيخ الغفر هو المسئول: اذهب نم في الدار. ولماذا يا شيخ الغفر؟ خدلك راحة ليلة وابسط نفسك مثل ليالي السوق. ولمن أترك دركي؟ لاخوف الليلة من شيء لأن الأنفار مسجونون في الإسطبل، قومي يا ولية. أريد أن أسألك: إذا سألوني عن دركي، أيصح أن أتكلم عن شيخ الغفر؟ قومي يا امرأة وردي عليّ. لكن يا شيخ الغفر.. ماذا جعلك تهتم براحتي في تلك الليلة؟ كل الغفر يظهر في عيونهم أنك قلت لهم مثل ما قلت لي. طبعا.. كل الدركات كانت فارغة.. والسرقات كانت من كل

مكان. سنروح كلنا في داهية. قومي يا امرأة الكلب اجلسي معي وونسيني. نصف البلد الآن يحقق معهم: حتى المسروقين، نذهب نحضرهم في اليوم الواحد مرات. المصيبة أن الحكومة للآن لم تأخذ أقوالنا.. ولا أحد يريد أن يطمئن بالي. قومي يا امرأة وهاتي الجوزة فأنا خرمان. لا أدري ماذا أقول يا رب؟. إن سألوني عن دركي في تلك الليلة ماذا أقول؟ هل كنت هناك؟ فلماذا سرقوا من محل حراستك.. هل كنت تنام؟ وقعتك سوداء. لو أني تزوجت حمارة أو جاموسة كانت وقفت بجوراي في الشدة. اتفوه. لا آخذ منك سوى بحلقة العينين.. ماذا؟. لا يعجبك كلامي؟ قومي يا بنت الكلب عليك اللعنة. قومي. قومي. قومي. قومي..

«ب»

وصار يضربني يا سعادة البيه ولم يكن هو زوجي الذي أعرفه، فصوّتّ حتى التم الجيران كلهم. ما كنت أريد فضيحة وأنا يا بيه امرأة غلبانة، مالي أحد في هذه الدنيا سواك أنت يا بيه يحفظك الله. لكن. اعمل معروف. إذا كنتم ستضرون الرجل فلا داعي. ما كان بودي أن أشكوه. صواتي كان السبب وياريتني ماصوت. خاف الناس أن أكون ميتة فجاءوا بي إلى هنا. وحق النبي أشرف خليقة الله لا أعرف كيف تطاوعني نفسي أن أحكي ما حكيت. إني متنازلة عن الشكوى، فزوجي كان يخرف طول الليل ولم يقصد أن يؤذيني. فاتركوه يرجع لأولاده.. أنا لم يحدث لي شيء وهو بريء والله وكيل.. زوجي غلبان والله يا ناس..

«ﺟ»

أنا قلت هذا؟ كيف؟.. امرأتي طالق إن كنت قلت هذا.. زوجتي هذه امرأة مجنونة..

الحق يا بيه والله أعلم أن هذا الكلام ليس غريبا علي..و.. الله وكيل.. لا أتذكر إن كنت قلته أو فكرت فيه فقط.. إنما دماغي ساعتها كان يملأ قفة.. ويظهر أنه كان يخر الكلام لوحده.

.. سأقول وأمري لله.. شيخ الغفر في تلك الليلة قابلني وقال لي اذهب ونم في حضن عيالك. فذهبت. وفي الصباح سمعت أن البلد كلها مسروقة..

«د»

شفت يا شيخ البلد؟.. سمعت.. جاءت رجلي في الموضوع.. فماذا أفعل؟.. الغفر كلهم سيقولون نفس الكلام. ليس لي دعوى في هذا الأمر. سأقول إنني نفذت أوامر شيخ البلد. تنكر. تنكر أنك نبهت عليّ بأن أخلي كل الدركات وأذهب لأضاجع أولادي؟. هه. والبانجو؟ من الذي أهداني حفنة البانجو وأوصاني أن أخلطها بالدخان وأشرب حتى أنبسط وأضحك وأفعل كل شيء بمزاج؟. مازال البانجو موجودا عندي. لا لن أخفض صوتي بعد الآن ولتسمعني الحكومة في الدوار وسوف أثبت هذا في المحضر. ما مجنون إلا الشيطان أما والله مصيبة.. امرأتي تفهم أحسن مني..

قالت لى: قم يا مجنون شف شغلك وهات الغفر وزعهم فشيخ البلد عدو لك. هذا كلامك يتحقق يا أم أمين. ماكنت أظن بأنك تريد أن تأخذ مني مشيخة الغفر لتعطيها لواحد من أقاربك.. ما.. حاضر يا بيك.. أنا قادم.. وسأثبت ما كنت أقول..

صدقني إن هذا الرجل كذاب في أصل وجهه. أنا شيخ البلد وأعرف أمثاله.. إزي الصحة يا بيك شرفت..

هل يعقل أن رجلا مثلي من رجال الأمن يأمر الغفر أن يناموا في دورهم؟..هه هه.. أهلا بك يا بيك.

هذا الرجل هو شيخ الغفر من سنوات طويلة.. مصاب بداء الفكر والعياذ بالله.. ويصور له الشيطان أشياء غريبة.. ويقول إنني أريد أن أوقعه في التهمة لآخذ منه مشيخة الغفر.. وهو عدم المؤاخذة في دي الكلمة رجل غبي.. لايعرف أنني لايمكن أن أتنازل عنه أبدا، فهو مطيع للأوامر ولا تجيء من ورائه المشاكل.. لكن ماذا أفعل له.. إنه يمشي وراء زوجته ويسمع كلامها أكثر من كلام العمدة.. هه.. كيف الأحوال يا بيك؟ نورت.

العمدة؟ .. معذور يا بيك وحياتك عندي.. مسكين.. هل يرعى قطنه؟ أم يرعى أولاده؟ أم يجلس في قصر التفتيش ليلعب الدومينو؟ .. طبعا.. لعب الدومينو هذا مهمة من مهمات العمدة نحو الباشكاتب، لا بد أن يقوم من أمامه كل يوم مغلوبا.. أم يلف البلاد والعزب ليحصل أموال أفندينا مع الكاشف؟

طبعا يا بيك.. الكاشف مندوب أفندينا من أجل التحصيل.. والعمدة ليعاقب من يتأخر في الدفع، أو يتلاءم، أو يهرب من دفع

الجزية.. والحق لله فإن العمدة يخدم الكاشف كثيرا.. نعم.. من لم يدفع أموالا يدفع حتى سرواله.. أهلا بسعادة البيك.

الله العالم يا بيك.. لا تجعلنا نرتكب معصية.. فما أعرفه أن الدفع يسير.. قد لا يدفع أحد كل الدين.. لكن يدفع جزءا، والكاشف لا يرهق أحدا: ادفع ما عندك ونحرر بالباقي كمبيالة.

العمدة كان يخزن له.. شيء مضحك. جائز يا بيك. لكني أعرف أن الكاشف لا يأتمن أباه.. صدق يا بيك، فلعل الكاشف جن، أو ضاقت كل مخازنه.. وعموما يا بيك لا تستبعد شيئا.. فالعمدة من يومين ثلاثة أفهمنا أن خزائنه فرغت حتى من قوت بقية أيام العام.. وهو اليوم يبلغ أنه سرق من خزائنه أشياء تخص الكاشف.. أهلا بالأسياد.

العمدة حر في ذمته يا بيك وأنا لا أطعن في ذمته لا سمح الله..

أبدا والله يا بيك لا أحمل للعمدة إلا كل محبة.. هل تجد البلد أحسن منه؟.. أقسم بجلالة قدرك يا بيك أن البلد مبسوطة منه لأنه لا يحب التدخل في شئون أحد، وهو لم يتسبب لي في ضرر.

قل يا رب. أهلا بالأسياد شرفتم بلدتنا. الواحد يوشك أن يتمنى كارثة كبرى حتى يتشرف بضيافتكم أطول وقت.. هه هه هه..

والله يا بيك ماكنا نفعل شيئا في قعدتنا في بيت العمدة.. كنا في المقعد..

والمقعد يحفظك الله شيء يبنيه الواحد فوق السطح لينام فيه في القيالة.. كنا نتكلم.. أقصد. لا أتذكر بالضبط. إنما رحنا نتكلم حتى نسي الواحد منا ما كان تكلمه في أول القعدة.

نفعل؟.. آه.. كنا نلعب الدومينو. طبعا كان هناك ضيوف غيري. كان هناك الأسطـى «فانوس».. والحاج «سليم الضبع».. أما تعرفه يا بيك؟.. أشهر رجل في هذه المديرية.. يورد الأنفار للتفتيش.. العقبى لك يا بيك.. يملك أيضا نصف محاصيل المديرية، يملكها وهي سنابل فوق الأعواد.

السر يا بيك أن الدنيا أعطته. في يده القرش على طول الخط والدنيا زواج وطلاق وكوارث ومطالب لا ترحم أحدا. والزارع لايملك قرشا قط، وعلى طول الخط، فماذا يفعل؟!.. أقرضني يا حاج «سليم».. خذ.. لكن لن أدفع إلا من محصول القمح.. لا مانع.. ماثمن الإردب الآن؟.. عشرة قروش مثلا.. اكتب إيصالا بثلاثة أرادب.. أمرك يا حاج. الزارع عند الحصد يسلم بالفعل ثلاثة أرادب وما قبض سوى ثمن الإردب الواحد في زمن القحط..

الحاج سليم كما أخبرت سيادتكم يشتغل بتوريد الأنفار.. له في كل مكان متعهد.. وكل متعهد له في كل مكان صبيان.. العقبى لك يا بيك.

شف يا بيك.. أنا رجل أقول الحق ولو على نفسي. فعلا.. الحاج سليم رجل حشاش.. هذا ما نعرفه جميعا عنه، لا يتحرك إلا والصنف في جيبه، وهو معلم، حتى في شغل مزاجه، لا يشبع من شد الأنفاس.

أبدا والله يا بيك.. عمري ما ذقت الصنف ولا جربته. قلت إنني أقول الحق ولو على نفسي. أشهد أن الجوزة بقيت طول الليل تكركر.. وأنا لم أعرف إن كان «الحجر» حشيشا أو دخانا أقرع.

آه.. قلت إنني أقول الحق ولو على نفسي. في الحق شربت الجوزة معهم إنما لم أكن أعرف ماذا أشرب.. من أدراني يا بيك؟.. أهلا بك يا بيك.. شرفت البلد كثيرا.

فى أول القعدة كان الحاج سليم يرص الحجر بنفسه، ويدندش ناره، ويقول بصوت حلو: «ميت مسا».. أقرضني عقلك يا بيك.. كان يسلمني البوصة ويطرقع لي بالماشة في نغم حلو.. فشربت ولم أسأل ما هذا.

نرجع يا بيك.. الحاج سليم ليس من البلدة طبعا، بل ليس من المديرية أصلا..

لانعرف يا بيك. هو في العادة يحضر ليقابل أحد رجال التفتيش. والعادة أن الحاج يبيت عندنا حين يجيء.. عندي أو عند العمدة لا تفرق.. أهلا بسعادة البيك.. قل إن الرجل يعاشرنا من سنوات طويلة ويعز عليه أن يكون في التفتيش ولا يمر علينا ليقضي معنا ليلة أو ليلتين. شرفت يا بيك أهلا أهلا.. من زمن طويل لم نركم، هذا والله دليل على أن البلد بخير..

لا يا بيك هذا هو كل ما عندي.

طبعا طبعا.. هذا هو توقيعي.

الفصل الثالث

القيظ

الطور اشتكى مني وقال يا دراعي
فرقلتك تاجي على الأوجاع
البقرة قالت: مقداري - مالي
دالحيل والقوة للتيران
عتبكم على الفلاح وأنا مالي
عتبكم ع اللي عد فيكو المال

(أغنية حرث من الدلتا)

(١)

كان «مريس» الخولي قد غرس العوجاية في الأرض وارتكن عليها بجذعه في عياقة، وأخذ يطوح خيزرانته في الهواء يلاعب بها خصما غير مرئي. راقبه الأولاد وهم مصطفون على حافة الزراق، فزغولت بطونهم وقالوا في أنفسهم إنه متشوق للضرب من أول النهار.. وإنه لهذا يدرب العصا.. ثم هرشوا جميعا في أقفيتهم وظهورهم..

انتهى الكاتب من تدوين أسمائهم في الدفتر المستطيل، ثم وضع القلم فوق أذنه وشمر الجلباب والبالطو، وقفز القناة الرفيعة التي لو صغرت لتحولت إلى زراق.. فتطوح زر طربوشه وتناثر فوق سطح الطربوش. ضحك الأولاد وكتموا الضحك فجأة، ثم انفجروا فيه ثانية حين لمحوا ابتسامة كبيرة على شفتي «مريس» الخولي.

ثم دب النشاط فجأة في الخيزرانة، فراحت تشرخ الهواء وتئز. اعتدلت الأجساد ورفعت رءوسها ونفخت صدورها ثم ماتت فيها كل حركة. تبختر «مريس» أمامهم رائحا غاديا عدة مرات، في المرة الأولى تأكد أنهم ثلاثون نفرا بالتمام، وفي الثانية عرف

كم غرباويا في فرقته، وفي الثالثة فحص وجوه البنات وعرف أن عدد الجميلات فيهن ثلاث.. فعاد ودقق فيهن وحدهن، وتمهلت نظرته عند واحدة بعينها؛ فامتد خيط الابتسامة المرتعشة من وجه إلى آخر. بطرف الخيزرانة أشار الخولي نحو البنت الحلوة وزغد صدرها صائحا فيها:

ـ أنت.. اطلعي.

ارتعشت وهي تنسلت من الصف وتتقدم نحوه في خوف.

قال من بين أسنانه:

ـ من أي بلد يا بنت؟

بلسان معووج ردت البنت:

ـ من عزبة الطوال..

ضحك الأنفار من أبناء البلد، واحمرت وجوه بلدياتها، وقال الخولي:

ـ ما اسمك؟

قالت بدلال:

ـ فكيهة..

ـ عندك بلاص؟

انشرح وجه الفتاة، قالت:

ـ ما عندي.. إنما أستطيع الإتيان به..

لكنه شوح وقال:

ـ اذهبي إلى عزبة السراي وأحضري واحدا منها.. قولي أين دار «مريس» يدلونك عليها.. فلما تقابلين أمي قولي لها أعطني البلاص يقول لك «مريس».

استدارت الفتاة وراحت تتبختر وتشيعها شجيرات القطن بالحفيف. ثم قفزت وصارت على الطريق المحفوف بأشجار الجزورين على الجانبين. مضت في اتجاه السراي.

الأنفار الذين هم بلدياتها نفخوا صدورهم وابتسموا. حسدهم الباقون، فالبنت «الملاية» صارت منهم، ستكون شغلتها في الفرقة ملء البلاص والعودة به مرتين في النهار، لتمر عليهم واحدا واحدا، وعند كل واحد يميل البلاص على رأسها فيمتلئ الكوز فيتلقفه النفر ويكرع. أما الخولي فله «قلة» مخصوصة توضع تحت ظليلة من أعواد التيل وفي حلقها عود النعناع وماؤها ليس من الترعة أو المصرف الراكد بل من بئر الساقية حيث الماء مرشح وبارد وصاف، وفوق ذلك يستطيع الخولي أن يخرج من دارهم في الصباح دون أن يشغل باله بأمر الغداء..

(٢)

انفرش الضحى على الغيطان.. وانسكبت الشمس على شجيرات القطن؟ فلمعت قطرات الندى فوق وريقاتها الخضراء، وغاضت قمم أشجار الجزورين في حضن الشمس فَارْبَدَّ لونها. ثمة أراض تتهيأ لاستقبال شتلة الأرز أغرقتها المياه، وبدت من بعيد كمرآة تمسكها الشمس بين يديها وتتفرج على نفسها فيها.. هكذا ارتأى الكاتب وهو يتراقص فوق الرهوان تهتز الأرض حواليه، ومن خلفه صبي يلهث ليلحق به.

نظر الكاتب حواليه ثم شد لجام الحمار ليتمهل قليلا حتى يتمكن هو من تحديد الطريق إلى أقرب الفرق التي تتناثر حواليه. برطم. بصق على الأرض، المشهد الذي يجب أن يراه لم يره، إنه لا يمكن أن يستريح إلا إذا نظر فجأة فرأى جسورا من الظهور المحنية تزحف منكفئة فوق الأرض، تقلب الشجيرات، أو تزرع الشتلات، أو تعزق الخطوط بالفئوس، أو تسلك مجرى المياه بالكريكات. أما مايراه الآن فلا يمكن أن يرضى عنه، فالجسور كلها منهارة، مابين وقوف ونصف انحناء وركض سريع. هذا ليس شغلا، بل هنكرة

فارغة: الخولة أصلهم أولاد كلب لا خشية لهم، الأنفار الذين هم من أهل البلد يستهزئون بهم ولا يريدون تسييدهم.. لا بد أن يتدخل التفتيش بنفسه في هذا الأمر.. إذا استهتر الأنفار بالخولة سرقت الوسية واحترقت.. أي نفر يستهتر بالخولي يدفن في الأرض إلى منتصفه حتى يقر للخولي بالاحترام وإلا اقتدى بهم الغرابوة.. إذا كان الخولة لا يملئون أنظار أهل البلد فإنهم في النهاية خولة التفتيش.. اختارهم التفتيش ووضع ثقته فيهم، ومن لم يحترمهم فهو إذن لا يحترم التفتيش وتلك مصيبة، لا بد وأن يرفع بهذا تقريرا إلى الباشكاتب.. ماذا كان يظن أولاد القحبة هؤلاء؟!.. أن نختار منهم خولة تباشر الفرق؟ كيف وهم جميعا لصوص حكمت عليهم المحكمة.. نعم لا بد وأن يرفع بهذا الأمر تقريرا إلى الباشكاتب قبل أن يستفحل الأمر وتسقط العصا من أيدي الخولة.. ما هذا الصوت الذي بدأ يتضح؟!.. أولاد الكلب يغنون أيضا؟..

- يا ليل يا ليل يا ليل.. ويا ليل على الدنيا

حكمت على السبع راح للكلب حدا الكوم

لما صحي الكلب قال له السبع صحِّي النـــوم

أنا أسألك يا رب يا مجري بحور العوم

تــرجـع الــسـبـع يـخـطـر زى عــاداتــه

وترجع الكلب ينبش في تــراب الكوم

هكذا؟..من يا ترى ذلك الخولي الذي سمح بهذا الغناء؟. ألا يدري أنهم بذلك يشتمون التفتيش ويلومون الحكومة؟.. لنفرض

أن الحكومة حكمت عليهم ظلماـ لنفرض يعني ـ فما دخل التفتيش في ذلك؟.. إن الحكومة إذا بلغها الأمر فسوف تقول إن التفتيش هو الذي يشجعهم..

ـ الدنيا جارت تقول البغل في الإبريق

والدهر رقص ديب من بعد في الإبريق

أخد الرهان عيال ما تجيش ولا في لبريق

واتلخبط الرأي.. ما بقيش ولا نادر

والندل عمل الولايم قال أنا نادر

ماحد قادر يقول البغل في الإبريق

ياللمصيبة. هذا صوت جرؤ وقال: البغل في الإبريق، هذا يوم أسود من قرون الخروب على دماغك يا ابن المفتري يا هذا الخولي، أما الذي يتشدق بهذا اللغو فلي معه شأن آخر، لقد عرفته، إنه ذلك الفلحوس عبد السلام باشخولي السراية السابق، اللعين يتكلم بل يغني؟ باشخولي السراية الذي انكشف المستور لديه، واتضح أنه شارك في سرقة عرق الأنفار، وأنه «والس» مع الذين قاموا بتهريب حقيبة المقاول، لايختشي على دمه وهاهو ذا يغني ويلخبط في الكلام.. الخولة أصلهم أولاد كلب حقراء.. الأنفار يرشونهم بخيارة أو سيجارة أو كلمة يا خال.. لا بد أن يريهم شغلهم..

هبط إلى الأرض واقفا. أمر الصبي أن يربط الحمار في هذه الشجرة ويداريه ويداري نفسه. ثم هبط إلى مسطاح المصرف. وكان منسوب المياه قليلا فمشى بحذائه حتى لايتمكن الأنفار من رؤيته. وعند أقرب ماسورة من المواسير الكثيرة التي تعبر المصرف، توقف، ثم ركب الماسورة.. وراح يزحف فوقها بحذر شديد.

(٣)

اصطفت أكوام الشتلة على حافة الزراق، وراح أحد الأنفار.. وهو رجل طويل عريض.. يعيد ترتيبها في حزم رفيعة، ويفرزها، فيرمي كل العيدان الذابلة الصفراء والتى بلا جذور. وكانت أيدي الأنفار تغرس الأعواد في الأرض، وهم يزحفون مقبلين. وحين اقتربوا من حافة الزراق كان على النفر «القيدة» أن يتقدم ليتملى في خط جديد، ويتقدم وراءه بقية الأنفار ليتملى كل في خطه حتى النفر الأخير «الساجة». ولما كان «الساجة» عادة هو أضعف الأنفار في الفرقة فعلى النفر «القيدة» أن يأخذ خطه مع خطه أثناء العودة..

انتهز الأنفار الفرصة وتلكؤوا في الوقوف عند حافة الزراق. اغتاظ الخولي ولعن الآباء والبلاد التي رمت بهم. تقدم «القيدة» وأخذ حمولته من الشتلة، وتبعه الذي يليه فالذى يليه حتى جاء دور النفر «الساجة» فلم يجد إلا قدرا ضئيلا من الحزم، فاغتبط لذلك، وقدر أن الإهمال في هذه الرجعة ستكون قلة نصيبه من الشتلة هي المسئولة عنه.

لف الخولي ووقف في مواجهتهم ونظر إليهم من أمام وتأكد

أن «القيدة» ليس ولدا هنكارا كعادة بعض الغرابوة، الذين يحاولون دائما إتعاب الغرابوة في الجري بلا نتيجة. خشي الخولي أن يمتدح شغله فينفشخ الولد ولا يستطيع هو بعد ذلك أن يعدل عليه الخط. تجاوز «القيدة» وبكفه حجب الشمس عن عينيه ونظر إلى بعيد فرأى شبح الكاتب يقترب خلسة، فانهال ضربا على الجميع من «الساجة» إلى «القيدة» وأمرهم أن يطيبوا يوميتهم بالحلال. لو لم يكونوا رجالا كبارا لارتفعت صيحاتهم، لكنهم اكتفوا بالنظر إلى الخولي في كراهية شديدة. قال الذي بجوار «القيدة» في همس: على مهلك يا ابن الحلال.. لماذا تتعافى علينا.. النهار لايزال طويلا وأنت ستتعب بعد ساعة واحدة.. رغم أن «القيدة» استمع إليه إلا أنه كان يمعن في تركيز عينيه في الأرض ويتباعد عن جاره كأن الكلام ليس له.

فى تلك اللحظة جثم شبح الكاتب، فارتبك «القيدة» والذي بجواره، انغرزت أصابع «القيدة» في الطين، شدها، فخرجت بلا فردة الجورب التي يلبسها لتحمي يديه من التشقق، وكان عليه أن يستعيدها ويلبسها في الحال دون أن يلحظ أحد، لكن جاره في سرعة الشيطان وخسته داس بقدمه فوق الفردة فغيبها في الطين ومضى كأنه فعل ذلك عفوا. نظر إليه «القيدة» بحقد وكراهية، واندفع يواصل الشتل بيد عارية.

الفصل الرابع

شـيخ البلدة كان السلطان

وشــــدادي وشـــدادي
لـم الحـمير التلاليـس كتير
رايحين تلـموا في غلة البرسيم
وشــــدادي وشـــدادي
وتلموا الغلال من جميع لبلادي
واضــرب لها بالطـار يـا مداحي
أمـك حـزينة ومطالبة لفراحي

(من أغاني الحَمّارين)

(١)

.. يا بيك هذا حرام. نفرض أنني لست العمدة ـ نفرض يعني ـ وقدمت شكوى لكم فماذا تفعلون؟.. طبعا ستقومون بالواجب فأنتم كلكم واجب..

أقصد أنني أمامكم الآن أحس أني لست في نظركم عمدة. وأنا أخشى أن أكون قد زعلتكم في شيء.. وأحب أن أقول لكم إنني معتدى عليه.. سرقت أموالي ـ أقصد أموال التفتيش ـ أقصد أموال أفندينا..

طبعا يا بيك.. إن الكاشف يحفظها عندي حتى تصبح شيئا يستاهل تعب النقل.. كنت أخزنها له.. فماذا أقول الآن لأفندينا؟!..

أصل الموضوع وما فيه أنني كنت أجلس مع ضيفي.. وكان معنا شيخ البلد والأسطى «فانوس».

هل أكذب؟.. نعم كنا نشرب الجوزة.. لكن إكراما لي دع مسألة الجوزة هذه.

يو.. يا سعادة البيه.. كان حشيشا، هأنذا قد قلت.. قلت..

كنا.. الأسطى فانوس والحاج سليم وشيخ البلد نجلس في بيتي.. الله يلعنه شيخ البلد.. يتعبني دائما.. إن قلت يمينا قال يسارا.. لايحب الخير لأحد.

كنا في تلك الليلة نتحدث.. الحاج سليم كان يحكي لنا كيف استطاعت هنومة هانم زوجة حضرة الناظر أن تجعل التفتيش يوافق على أن يعطي الإسطبل للأنفار ينامون فيه بدلا من تركهم يهربون ونتعب في البحث عنهم.. كان الحاج سليم فرحان، فلقد ضمن بقاء الأنفار، كان النفر إذا هرب من الشغل يدوخ السواقون وراءه، فإن وجدوه لايرضى بالعودة إلا إذا قبض بقية أجره، وقبض الأجر ليس سهلا عند الحاج سليم، أما الآن فسيبقى الأنفار، وستمتنع السرقات.. تصور يا بيك شيخ البلد هذا كان يحرض الحاج سليم أن يخصم من أجر الأنفار ثمن المبيت، مع أنه يعرف أن الإسطبل ممنوح للأنفار مجانا، وأكثر من هذا يعرف أن الأنفار لاتقبض أصلا إلا العربون الذي جاءت به..شف الرجل الأهبل.. مكثنا تلك الليلة نتعارك في هذا الأمر حتى أنهى اللص مهمته في سلام.

أقصد بالعركة أن الحاج سليم كان يشاورنا.. نقول كذا فيقول كيت.. تعجبنا كلمة لا تعجبه كلمة.. هكذا يعني.. لا والله يا بيك مالي مصلحة في هذا الأمر.

سأقول لحضرتكم.. هذا كشف بالأشياء المسروقة.. من بيتي وحده عشرة جوالات قمح.. خمس غرارات برسيم.. إردب فول.. ثلاثة قناطير قطن.. وفوق هذا كله.. المصيبة السوداء.. حقيبة صاحبنا الحاج سليم.. عار يا سعادة البيك أن الرجل الضيف يسرق

في بيتي.. ألا تعرف ماشكل حقيبته؟.. هي مثل الصندوق.. كبيرة.. و.. كانت في الحق ثقيلة.

الله أعلم.. إنما لو حملتها تتصور أنها مصنوعة من زلط.

لم أفتحها والله يا بيك.. لاأعرف إن كان فيها أموال أو هدوم.. لكن الحاج قال ساعة سلمها لي إنها تحمل مستقبل أولاد الناس.

جائز.. جائز كانت تحمل أموالا.. لا أعرف.. لا أعرف.

هو لم يعرف حتى الآن أن الحقيبة ضاعت.. فإنه سافر قبل الفجر بقليل..

آه.. أودعها عندي حتى يرجع من مشوار قرب البلد ليأخذها.. قمت بنفسي ووضعت الحقيبة في المخزن.. ثم صعدت لأسهر في المقعد معهم.

أغلقت المخزن طبعا.. لكن.. القفل الذي على باب المخزن قفل سوقى يسهل فشه.

واللـ..هـ..ى..ى.. بوصفي عمدة.. استبعدت قدوم لص إلى بيتي.

أتذكر أنني لما صعدت إلى المقعد.. سألت الحاج عما تحويه الحقيبة.. فقال.. فيها أمعائى.. فيها مستقبل أولاد الناس.. فسكت..

عن نفسي.. أتوقع.. واللـ..هـ..ى.. أراهن أنها كانت تحمل بعض الخرق، وبعض الأوراق، وبعض الأشياء التي يستعملها في السفر.

أنا أعرف هذا الحاج.. طبعا سيبالغ.. سيقول إن الخزينة كلها كانت في الحقيبة.. دبرني يا بيك.

من أتهم.. في الأول كنا نتهم الأنفار.. أما اليوم فمن نتهم؟!..

أعداء؟ وما أكثر أعداء العمدة.. وخصوصا إن كان مثلي شديدا لايعرف أباه في الحق.

سأقول لحضرتكم.. حين رأيت ذلك الولد المدعو جمعة.. الله يرحمه.. عرفت أن السرقات بدأت تنكشف.. فقمت لأرى ماذا جرى لي أنا أيضا.

أصل المرحوم كان يلف البلد.. ولما رأيت الناس كلهم خلفه عرفت أنهم قادمون للشكوى من شيء، وأن هذا الشيء سرقات.

كنا ساعتها نجلس في الفراندة بجوار الدوار.. وكان الحاج قد توكل.. كنا مازلنا في جلستنا منذ الليل.. سلمنا على الضيف وبقينا.

آه.. المقعد؟.. آه..شف يا بيك.. جمعة.

حاضر.. حاضر.. حاضر.

كنا في الليل في المقعد كما قلت سيادتكم.. ولما ودعنا الحاج نزلنا وجلسنا في الفراندة.. لأن الصبح في الفراندة عندنا يكون جميلا جدا يا بيك.. والله يا بيك لو تجلس معنا في الصبح دقائق تعود صبيا من جديد.

حاضر.. حاضر..

قلت لحضرتكم إن المرحوم هو الذي ذكرني.

أرجو أن يتكرم أسيادى بقبول الدعوة عندي هذا اليوم.. سأجهز للأسياد عشاء طيبا.

لا سمح الله يا بيك إني أفعل الواجب..

لا يا بيك ماعندي من أقوال أخرى.

حاضر.. ستضحكك طريقتنا في التوقيع.. ولكن.. هو توقيع..

(٢)

بعد إذن سعادتكم .. أصلي متعب طول النهار ولا بد أن أجلس.. وهذا هو من عشمي فيكم طبعا.. لا أقول إنني في مستوى العمدة أو شيخ البلد ولكنني أقول إن جنابكم أصحاب ذوق أبا عن جد.

ليس من الضروري أن أعرف أصلكم.. يكفي أن أراكم.. سيماهم على وجوههم.. لا شك أن جنابك تعرف أولادي.. إنهم مثلك.. أفندية محترمون.. وأيضا في النيابة والحكومة وهم أكبر من حيث السن فقط.

وهو كذلك.. لاتؤاخذني.. لاتؤاخذني..

اسمي في شهادة الميلاد. «عبد الرحمن الكخيا».. أما الأسطى فانوس هذه فلها حكاية.. أهل البلد أطلقوا عليّ هذا الاسم.. أيام كنت ما زلت أعمل في قصر التفتيش.. كنت لا أحب العمل إلا في الليل.. فالصراف الذي يريد أن يلم الغلة من الفلاحين لاينجح إلا في الليل.

السبب يا بيك أن الفلاح إذا عرف أنه سيدفع الدين يتغيب عن

الدار، ولا يرجع إلا لينام.. وأنا.. موتي وسمي من يماطل في الدفع.. وأحب أن أتقن عملي ثم إنني أعرف صنف الفلاح.. صنف لا يجيء لمن يحترمه.. تعطيه فوق دماغه يركع.. ويتمسكن حتى يتمكن.. يأخذ منك السلفة ويتفرعن بعدها.. ووالله لقد تعبت، ولعبت مع هؤلاء الفلاحين.. «حاوريني يا طيطة».. الواحد منهم لا يشعر إلا وأنا فوق دماغه.. أقتحم الدار بلا استئذان.. طبعا.. أستأذن ممن؟ من رجل واطي؟ ومدين للتفتيش؟ ويلوعني في التحصيل؟ أقتحم عليه الدار وأنتف ريشه.. لا يمنعنى شيء. لا برد ولا مطر ولا ظلام. الفانوس في يدي.. والشمسية أيضا في يدي الأخرى.. وحقيبة الأوراق والفلوس مع خفير مخصوص.. والعمدة قيد الندهة.. الفلاح من أخبث مخلوقات الله.. حين أراد أن يسميني الشبح أو الهم أو الموت أو المصيبة، تخابث وسماني.. فانوس.. وأنا طبعا مسلم، واليهود عادة مشهورون بشغلة الصرافة، والواحد منهم يسمى بالأسطى.. ومع أنني لست يهوديا إلا حين أساوي الحسبة، إلا أن اللقب تعلق بي، وصرت أنادى بالأسطى فانوس حتى في بيتي..!.. وللعلم فأنا من أصل تركي.. ولهذا خدمت في التفتيش.

طبعا.. نصف عقار التفتيش آل إليه بفضلي.. ضيعة مولانا كانت في الأصل فدادين قليلة.. محسوبك ضاعفها له.. أعطى للفلاحين ديونا.. وكان معظمهم من الأعيان المالكين.. سقيتهم بعض كئوس الخمر.. أعجبتهم.. طلبوها.. افتتحت لهم خمارة.. على فكرة.. المنطقة التي نحن فيها الآن بما فيها بيت العمدة.. اسمها الخمارة.. لأن الخمارة كانت قائمة هنا قبل أن يهدمها أفندينا.. صار الأعيان يشربون ويسكرون على الحساب ويوقعون على عقود بيع الأراضي

مقابل كأس.. أوباش كلهم ولا يصح أن يملكوا.. وفي النهاية أنا مظلوم.. لم آخذ أكثر من عزبة.. عزبة هي كل مكافأتي عن خدمة عمر كامل.

العمدة؟.. شيء يضحك.. أهمس في أذنكم: إنه رجل كذاب.. أعرفه أبا عن جد.. أبوه كان يعاونني في الشغل وكان كالمنشار، طالع يأكل نازل يأكل.. العمدة الآن بسم الله ماشاء الله يمتلك مساحة طين لايستأهل منها قيراطا.

شف يا بيك.. لا تأخذ من أقوال العمدة شيئا تعتمد عليه وتتعب نفسك في التحقيق.. العمدة هرب أشياء كثيرة.. هربها في عز الليل.

لا لا.. الكاشف لم يترك في بيت العمدة شيئا من محصول أفندينا.

ما سرق من العمدة من شيء.. لا تكتب هذا في المحضر.. لكني أخبرك بشكل شخصي.. الموضوع بكل ببساطة أن العمدة سرق حقيبة الرجل الضيف.. لكن ما جاء بلاشا راح بلاشا.

ماتحمله الحقيبة يغري بسرقتها.. كانت تحمل ذهبا يشربه الناس.

كل لبيب يفهم بالإشارة.. أرجوكم لا تكتب هذا في المحضر.. إني أخدم حضرتكم من أجل عيون الحق.. فلا تتسبب لي في وجع الدماغ.. الأمر بكل صراحة أن الحاج سليم يتاجر في الحشيش والأفيون.. وكانت الحقيبة مملوءة بأجود صنف.

عرق الأنفار يا بيك.. ما من أحد في الأنفار يقبض أجرته بالكامل.

أحكي لك.. الناظر يتعاقد مع المندوب على طلب الأنفار بسعر كذا للنفر الواحد.. ويروح يتعاقد مع الحاج سليم على طلب أنفار بنصف السعر الذي تعاقد عليه مع المندوب.. الحاج سليم يتعاقد مع السواقين ـ وهم صبيان المقاولين في القرى والعزب ـ على توريد الأنفار وبنصف السعر الذي تعاقد عليه مع الناظر.. السواقون يلمون الأنفار بالأكوام رجل وأولاده، حارة كاملة، نصف عزبة والنفر الواحد لايكون له سعر، وكل مجموعة تأخذ عربونا تقسمه على نفسها بمعرفتها.. والكل في النهاية يعمل بهذا العربون فقط.

يشكو؟.. من يشكو؟.. إن من يريد أن يشكو عليه أن يعرف أصلا: يشكو مَنْ لمن؟.. ما أكثر ما فكر ناس في الشكوى.. لكن الشكوى لا تخرج أبعد من جوف المظلوم.. ولهذا فالحاج سليم أبرع من تاجَر في الأنفار وفي الأفيون..

أعرف هذا الحاج كما أعرف وجهي في المرآة.. كنت الصراف وكنت أقبضه ثمن الأنفار.. إنه داهية لا تستهزئ به ولا تقل لي حكومة ولا غيره.. فهو يستطيع ـ عدم المؤاخذة ـ أن يبيع الحكومة ويقبض ثمنها منها دون أن تعرف الحكومة.. ولولا أنني من أصل طيب، وأخاف الله، ولا أحب أن آكل السحت لأصبحت الآن من رجاله، ولأصبحت أساوم في لقب الباشا.. مع أن عائلتي أكبر من هذا اللقب، ولو كنت شغوفا به لأنهيت المسألة من زمن،

إنما أرى كثيرا من تجار البصل والمغات والخيش أخذوه، وأنا ـ عدم المؤاخذة ـ لا أحب أن آخذه.

أمرك فلنرجع للموضوع. كنت أقول بأني عجنت «سليم» وخبزته، فكثيرا ما.. اقترض مني مبالغ ليدفعها في صفقة أفيون كبيرة.. من طبعي أنني لا أرفض حاجة للمحتاج.. وخصوصا في مسألة الفلوس هذه، في الحق كنت أسلفه..

أم.... م.. م م.. طبعا هو ليس عبيطا كي يخبرني عن أصل السبب على المكشوف.. إنما كنت أعرف الأمر لوحدي.. فأنا أفهمها وهي طائرة.. وحين أسلفه لا أصير ماكينة: هات وخذ في الحال.. لا.. المسألة تتم على مهل..

فنجان قهوة. كرسي دخان.. غدا.. جواب.. رد الجواب.. مرسال.. يعني لا بد أن أفهم جو المسألة وأضمن أموال التفتيش ـ أقصد أموالي ـ بالفهلوة أكون عرفت نوع الصفقة.

كان يؤكد ظنى أن الحاج يرد فلوسي بعد نهار واحد، ويضيف إليها ماربحته خلال النهار.

كان الربح يوازي ـ أحيانا ـ ربع المبلغ.. فبأي دماغ أتصور أن الحاج سليم يتاجر في شيء مشروع؟.. ميز أنت يا بيك.

لا أنكر أني كنت شريكا في القعدة، لكني شريك جلوس فحسب، ولم أهتم بشيء مما دار، ولذا لا أتذكر شيئا مما دار.

يعني.. كنت ألاحظ أن العمدة مشغول بحوار مع شيخ البلد من ناحية ومع الحاج سليم من ناحية أخرى.

كنا نلعب دومينو أنا والحاج.. وكنت طول عمري لم أغلبه.. فهو دماغ يعرف كيف يسد عليك طريق الفوز.. لكني ليلتها غلبته.. فصرت سعيدا، وظللت سعيدا حتى أحسست بأني ألعب مع نفسي.. كنت عبيطا.. خيل لي أني أغلب والحاج سليم في دنيا أخرى.. يلعب لعبة، ويميل على العمدة يتكلم، ويميل على شيخ البلد ليهمس، وأنا من عبطي مندمج في اللعب بكل حماس.

كنا نشرب طبعا.. هل أنكر؟.. شيخ البلدة كان السلطان ـ أي كان يقوم برص الحجر وتتويجه ـ.. كان طريفا.. فالرص مزاج يستهوي شيخ البلد طول عمره.. والحاج سليم يعرف هذا.. ويسحب الكيس من جيبه فيقضم قضمة كبيرة يرميها في حجر الشيخ، فيدفنها في كفه ليرص منها، فتغيب القطعة في كفه تقول ابتلعتها مقبرة أو ذابت في دمه؟ بعد ثلاثة أحجار أو أكثر يطلب غيرها.. الحاج سليم يكون منتظرا هذا.. لكنه يحتج، وشيخ البلد يجمع حجارة الدار كلها ويرصها في انتظار هذه اللحظة ليشير إليها بإصبعه قائلا: لقد شربنا كل هذا، ونكون قد شربناه فعلا ولكن من بداية القعدة، ولكن الحاج سليم يتحسس الحجر بكفه فيقدر كم دورا لعبه بالنار هذا الحجر، ونضحك حتى نفقد كل وقار، وفي النهاية لا بد للحاج...، ونضحك حتى في حجر شيخ البلد قائلا: املأ عينيك.. ثم ينتظر المكافأة، ويكون الشيخ مستعدا لها، بتعميرة مضاعفة تغطى الحجر كله ونارها مسبسبة مثل حب الرمان، ويسلمه البوصة ليسفح الحجر كله في سحبتين.

مايمكنني تأكيده هو أن العمدة لم يفقد شيئا؛ إنه على العكس كسب الصفقة كلها.. فمن يدري.. هل ثبت لكم أن الحقيبة ضاعت

من بيته؟.. من أدراكم أن العمدة لايفتعل الأمر ليحظى بالصفقة وحده؟.

لا أملك إثباتا. لكن هذا ما أعرفه.

سامحك الله.. طبعا يمكنني التوقيع.. وقلت لحضرتكم إنني كنت الصراف الأوحد في التفتيش.

وعلام أوقع يا بيك؟.

لا.. لا.. اسمح لي.. ماقلناه الآن كلام يخرج عن دائرة التحقيق.. اسمح لي.. إني لست بجاهل.. أولادي مثل جنابك وكلاء ومحامون.

أعنى أني أفهم أيضا في القانون.

يعني إن كنت تريد مني أن أوقع.. تبدأ التحقيق من جديد لكي أتكلم كلاما للتحقيق.. أما الذي قلته الآن فكان خدمة من أجل خاطركم.

(٣)

أنا؟.. السواق الخصوصي.

نعم يسمونني هكذا.. وإذن فهو اسمي.

ما غريب إلا الشيطان يا بيك.. وما دخلى أنا إذا كان اسمي هكذا؟

وأنا صغير كانت أمي تناديني بـ«يا شحات».. لكن الجهادية حين طلبتني قالت للعمدة إن اسمي «سعد أبو مندور».. وقال العمدة إن أسماء الناس كلها في دفاتر عند الحكومة.. وذهبت للفرز، وكدت «ألبس» لولا أن «النضارة» وجدت فيّ عيبا.. وهو أن قاعة العين فيها لا أعرف ماذا؟.. عشنا وشفنا للعين قاعة كالتى ننام فيها.

يا بيك لاتحرق دمك مع أمثالنا.. لماذا تأكل في نفسك هكذا؟ علينا؟ على الحق؟ على الواجب؟.. كل هذا لايستأهل.. إن كان علينا فملعون أبونا.. وإن كان على الحق فهو ضائع ضائع.. من يوم أن وعيت وأنا أسمع الناس تتحدث عن الحق الضائع.. ولم أر هذا «الحق» يبين أبدا.. من أدرانا.. ربما لايكون هناك ما يدعونه بالحق هذا..

حقا حقا يا بيه.. أنا فعلا ابن كلب ومُلْعَب.. كلهم يصفونني هكذا.

يابيه.. إن من يدخل الخدمة في «الحاج سليم» لا بد وأن ينسى اسمه.. فكل واحد فينا ولد.. وكل واحد منا معروف بما يفعله في خدمة الحاج، فالولد السواق والولد الحلاق والولد العربجى والولد الحَمَّار والولد السايس والولد الغفير والولد بتاع الزريبة.. والاسم عندنا هو الذي يجيء منه أكل العيش.

نعم يا بيه في تلك الليلة كنت مع الحاج سليم في بيت شيخ البلد وبقينا ساهرين حتى قبيل الفجر.. ثم رحلنا، وطلع علينا النهار في مفارق الطرق.. فذهب الحاج إلى بيت له في المنصورة، وعدت أنا إلى داري في «ميت الشيوخ» لكنه بعث من يناديني فعدت إليه.. فأرسلني إلى حضرة العمدة بكلمة.. فما أدري إلا وأنا واقف أمامكم..

هي كلمة جئت بها للعمدة فقط وليس لي أن أفرط في الأمانة.. هكذا أمرنا الله.

تضربني؟.. إنك إن ضربتني فلن يتعب إلا أنت.. أقصد أن جسمي عرف الكرباج والبوصة والنبوت والمطواة وحد الفأس واللسع بالنار والخوزقة.

نعم.. جنابك قلت الفائدة: الضرب يلذ جسدي، فأنا لم أر نفسي إلا مضروبا على الدوام.. تعرف يا بيك.. بعض الناس كانوا يؤجرونني لأتلقى الضرب بدلا منهم.

لا.. كله إلا هذا.. أرح نفسك وابتعد عن هذه الكلمة فأنا لن أفرط في الأمانة.. هل ترضى لي بالكفر؟.. إن كنت ترضاه فهذا شيء آخر.

هي كلمة والسلام.. وحين لقيت العمدة كححت في أذنه، ولا أعرف إن كان صوتي جاء أم لم يجئ.. لكن العمدة هز رأسه موافقا فعرفت أنني قلتها.. ثم سجنني وجاء بي إلى هنا لا أدري لماذا؟

العمدة قال؟.. هو حر.. العمدة يقول مايشاء فهو حر في الأمانة، وكل واحد حر في الأمانة.. ولكن ما دام حرا فمصيبته سوداء.

أقصد أن أقول: لم الكذب؟ إنني لست حرا في أي شيء حتى أكون حر التصرف في الأمانة.. أما العمدة فهو عمدة.. ويستطيع أن يفرط في الأمانة كما يعجبه.

لماذا تشخط فيّ هكذا.. إن الحاج لم يفعلها معي.. هل أنا لاسمح الله عبت في حق الحكومة؟.. أقول إن العمدة عمدة ويستطيع التصرف من نفسه.. أما الركش من أمثالنا فهم لايستطيعون.

الركش هم الركش من غير مؤاخذة.. يعني التراب الذي لاينفع في تسبيخ الأرض.. فهو لا فائدة منه ولا منجاة من ضرره.. نعم.. الركش ركش في كل شيء والعمدة عمدة في كل شيء أيضا.

لا.. إنني لن أقول ماذا قلت للعمدة.. أما إن قلتم أنتم ماذا قلت أنا للعمدة فهذا يكون كلام العمدة وليس لي دخل فيه.

العمدة قال؟.. خلاص.. هو حر.. والله يا بيك صدق مايعجبك.. إن كنت جنابك تريد تصديق العمدة فأنتم أحرار وأنتم حكومة مع بعضكم، ولكن مثلما ندعكم في حالكم دعونا أنتم أيضا في حالنا.

أنا أقول من غير أن تتساءل عن جبلتي.. إنني لو قلت كلمة الحاج فسوف يطلق الرصاص عليّ.. ويبعث بمن يقضي على أولادي.. خير لي يا سيدي الأفندي أن أختار الموت لوحدي.. فلكم أن تقتلوني الآن.. ولكن الحاج سيتأكد أنني لم أخن أمانته.. ولو قلتم إنني قلتها فسيضحك، لأنه سوف يعرف أن موتي تحت يدكم معناه أنني لم أشأ قولها.. وحينئذ سيرعى أولادي من بعدي.. على أنني متأكد أنكم لن تقتلوني مهما قلت أو فعلت.. فأنتم بالطبع لستم مجرمين، وإلا فكيف نسميكم حكومة؟

ـ الحبس.. الحبس.. ضعني في الحبس.. هأنذا.

الفصل الخامس

قبلما تسقط المئذنة

الحلس قال للتور مالك ومالي
اسحب على باطك بلا جمـالي
ياشايلة البلاصي دلي واسقيني
ياحاردة القصة علـى الجبين
يامطرزة الجبـة لحد الديل
يامحرمة العـشاق نوم الليل

(أغـنية للسـاقية)

(١)

قال» دياب» لـ «الأعرج»:

ـ والله يا سي أعرج لقد تقطع قلبي.. الكاتب كان يضرب عبد السلام ضرب موت..

وكان «دياب» يضغط بقدمه فوق سلاح الكوريك ليغوص في الأرض وبيديه سحب الكوريك نحو بطنه بعنف، فدفع سلاح الكوريك مزيدا من الردم راح الأعرج يتلقفها في مقطف كبير ليسوي بها زراقا جديدا..

ـ أقطع ذراعــي إن ما كــان هناك ثـأر قديم بين الكاتب وعبد السلام..

قال الأعرج وهو يتلفت حواليه ليتأكد من أنهما الآن وحدهما في هذه المقطوعية:

ـ إنك لا تعرف السبب.

سـر «دياب» لأن نفـرا من أهل البـلد رضي بأن يحـادثه في ود كأن لا فرق بينهما، وقال:

ـ ما السبب يا سي «أعرج»؟

قال الأعرج وهو يبرك فوق المقطف ويدك الردم فيه:

ـ إن التفتيش لايطيق سيرة «جمعة».

ـ جمعة من؟

ـ جمعه المؤذن.. لقد كان مؤذنا وصييتا.. ولكنه قُتِل.. أقصد.. مات.

ـ هل..

ـ لا.. لقد مات.. وحكم علينا جميعا أن نصير أنفارا..

ـ لكن.. عبد السلام.. الحق لله.. لم يجئ بسيرة جمعة في مواويله..

اقترب الأعرج منه وهمس:

ـ المهم أن يغني والسلام.. فكلما غنى أحد.. يتذكر الناس جمعة..

زام «دياب» وهبطت قدمه بعنف فوق سلاح الكوريك. وقعت كتلة جامدة من الردم، فانهال عليها بقدمه حتى نعمها، وقال:

ـ ليست هذه أول مرة أسمع فيها اسم جمعة..

لكن «الأعرج» نظر إلى «العقال» فوجده لايزال أقل من منسوب المياه في المصرف المجاور، ووجده ضعيفا أيضا.. فقال كأنه واحد من رجال التفتيش:

ـ هِمْ يا دياب.. هِمْ يا دياب..

وراح «دياب» يضغط بكل قوته على سلاح الكوريك. لكنه قرب رأسه من رأس الأعرج وقال هامسا:

ـ لماذا أنت خائف هكذا؟

فنظر إليه الأعرج في غيظ، وراح يعبئ الردم في المقطف دون أن يرد.. وراح «دياب» يضغط ويطرد الردم، ولم يفكر في إعادة السؤال.

(٢)

ما إن أغلق باب الإسطبل وتباعدت أقدام الخفراء حتى اشتعلت عشرات المشاعل وامتلأت سماء الإسطبل بالدخان. ابتهج «طلعت» وأحس بالفرح، وتذكر مولد سيدي إبراهيم الدسوقي الذي ذهب إليه مرة مع جده مهيوب، كان الدراويش يجلسون هكذا ويملؤون الدنيا أصواتا وكلاما ولكن لا أحد يفهم شيئا. ولا أحد يعرف إن كانوا يتشاجرون أم يتحدثون..

نظر حواليه. رأى كل من في الإسطبل يتحدث. مع ذلك هناك كثير من الأجساد تتمدد وتطلق الشخير. أراد أن يتحدث مع جده «مهيوب» ولكنه خشي أن يصل بهما الحديث إلى موضوع أمه وأبيه، فترك جده يتقلب ويبسمل، ومد يده ليوقظ «عمرو» ولكنه سحبها؛ إذ كان «عمرو» قد التصق بالأرض ومرت من فوقه الأقدام كثيرا تبحث عن مطارحها وأشيائها، وقال لنفسه: «لقد تعب عمرو اليوم» وأحس أنه يحبه حبا كبيرا فهو الذي يحميه من عصا الخولي بأن يساعده في تنقية خطه، وقال لنفسه إنه حينما يكبر ويصبح أفنديا محترما سوف يجيء إلى هذه البلدة ويسأل عن «عمرو» وربما

استطاع أن يوظفه في وظيفة ما. حينئذ تذكر المظروف الكبير فراح يتحسسه، لم يكن يعرف أن المظروف مسل إلى هذا الحد، إنه لم يعد يستغني عنه لحظة واحدة، ساعة القيالة يقرأ فيه وقبل النوم، ولو كان الود وده لظل يقرأ فيه إلى ما لا نهاية، وسأل نفسه: أتكون قصة من القصص التي كان بعض الناس في بلدته ينسخونها ويقرأونها؟ إن أمه تحتفظ بكثير من مثل هذه القصص ذات الغلاف المزوق وتقول إنها كانت أشياء أبيه التي تركها يوم السفر فأخذتها، قرأ فيها كثيرا وتعلم منها كيف يقرأ بسهولة، وكيف صار بذلك لامعا في الكتاب محظيا بشكر سيدنا على الدوام، لكن هذه القصة التي في هذا المظروف مملوءة بكلام كثير مما يدور في هذه الحياة، ففيها الأنفار والمقاول والتفتيش، وفيها كذلك عمرو وعمدة وشيخ بلد وشيخ غفر، وفيها حكومة ونيابة وربما قاض.. إنه لمتحير في أمر هذا المظروف..

وبدأ يقلب الأوراق حتى وصل إلى الصفحة التي كان توقف عندها..

(٣)

إشارة

من عمدة كفر أبو سالم شرقية إلى نيابة كفر الشيخ زمام الوسيلة تعلق جلالة الملكة بخصوص الحاج سليم الضبع أشهر مقاولى الأنفار وأكبرهم في العب، نفيد بأنه كان بالبلد منذ حوالي جمعة، وأنه بات ليلتها طرف زوجته، وفي الصباح توكل على الله لاتدري إلى أين. وبسؤالها أجابت بأنها لا تعرف أي شيء عن عمله أو سفرياته. ولما قلنا لها كيف إذن تعيشين على ذمته؟ قالت إنه يرسل إليها كل ما تحتاج إليه.. ونحيط علم سيادتكم أننا سنجعل بالنا منه وإن رأيناه أو سمعنا خبرا عنه فسوف نوافيكم به دون إبطاء..

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

(٤)

بلاغ

حضرة المحترم السيد المبجل الأستاذ الفاضل وكيل نيابه كفر الشيخ..

لكم التحية والاحترام.

أعرف سيادتكم يا سعادة البيه أن حضرة العمدة هو الذي دبر للأمر كله من طقطق لسلامو عليكم، وهناك ناس كثيرون يقولون إن حقيبة الحاج سليم الضبع التي تركها عنده أمانة كانت مملوءة بالحشيش والأفيون؛ وحضرة العمدة قام بتهريبها في عز الليل مع رجاله أعضاء المنسر، ولما عرف أن جمعة المؤذن رآه من فوق المئذنة في الليل اكترى من قتله في الصباح. فالعمدة ولامؤاخذة يا سعادة البيك شيخ منسر كبير، يفعلها كل عام ويدعي أن الأنفار هي التي فعلتها؛ والصحيح أنه متعاون مع حضرة الباشكاتب ـ أقصد مع زوجته التي تجيد التدبير والكلام والإيقاع بالناس في شر أعمالهم ـ أي أن العمدة يا بيك يعطي للباشكاتب حقه في مقابل أن

يقوم الباشكاتب بتسليم عدد من الأنفار ينتقيهم ويأخذ بصماتهم على أوراق ويملؤها بأقوال من عنده ويزعم أنها أقوالهم.. أنفار كما تعرف يا سعادة البيك ولا سعر لهم، الواحد منهم يبصم على أي شيء حتى ولو كانت ورقة بموته، خصوصا إذا كانت هذه الورقة ستجعله يفلت من الحكومة وتتركه يرجع لعياله.. وما يكاد الواحد منهم يخرج من أيدي الحكومة ويتسلم خطه في العمل حتى يفاجأ بالعسكر يقبضون عليه، ويفاجأ بأنه معترف بالسرقة وأنه مجرم محترف وسوابق وأنه وأنه وأنه.. وحينئذ لايجديه بكاء ولا صياح فلن يسمع له أحد، وهو يعرف هذا جيدا.. بعضهم يقع من طوله ميتا، ومن تستمر فيه الروح تراه يمشي أمام العسكر في ذلة مثل كلب مريض بالسل، الأمر الذي يجعل العسكري يخالف، لأول مرة في حياته أمر الحكومة، فيمتنع عن ربط المقبوض عليهم بالحبل المتين أو الجنزير، بل إنه من شدة سخريته بهذا الأمر وبعدم جدواه يترك المقبوض عليهم يمرحون في الطريق. ويرسلهم يشحذون له خيارة أو رغيفا أو قلة ماء..

ونعرِّف سيادتكم يا سعادة البيك أن العمدة يشارك الحاج سليم في تجارة الحشيش والأفيون منذ زمن بعيد، والحق أن العمدة كان دائم الشكوى من الحاج بسبب مماطلته في دفع الحقوق، وكنا نعرف أن الحاج مدين للعمدة بدين ما، لكن لا نعرف ماهو بالضبط. وحين كنا نسأل العمدة كان يقول إنها أموال اقترضها منه الحاج، وفي مرة أخرى يزعم أن هذه الأموال هي أثمان حبوب باعها له العمدة كيما يرسلها الحاج إلى زوجاته في النواحي القريبة. والمؤكد أن الحاج سليم ليس هو بالذي يقترض وحتى إذا حط به الحال فهو لايقترض

من رجل كالعمدة وهو أيضا ليس بالذي يشتري حبوبا بالدين، لأنه يملك محاصيل القرى وهي سنابل فوق الأعواد، ثم إن له مخازن أين منها مخازن التفتيش أو أفندينا نفسه. أما العمدة فإنه يأخذ منك الدين قبل أن يدينك به.

إن العمدة والحاج سليم يا بيك من قماشة واحدة. وتأكد يا بيك أن حقيبة الحاج تذوب الآن في أفواه مدمني الأفيون وتحترق على مئات الجوز هنا وهناك، أنا نفسي قابلت بالأمس أحد أبناء الحظ وكان لتوه قادما من عند البائع بالتعميرة. أحببت رؤية القطعة رغم أنني لست كَيِّفًا. ما كدت أفك عنها ورقة السلوفان حتى تأكدت أنها من نفس البضاعة التي كانت في حقيبة الحاج سليم، ثم إن الرجل نفسه أكد لي ذلك حينما قال إن التعميرة من ماركة الثلاث سنابل، والبائع إن كان هذا يهمكم هو «محمد محمود الجرن» الكائن بعزبة صباح تبع الناحية، وهو من أخلص خلصاء الحاج والعمدة معا. وعند ذهابي إليه للتأكد فوجئت أن البضاعة التي عنده ليست من نظام الأكياس بل من نظام الخوابير ـ وهو صنف طيب للغاية لا يرد إلا من بيروت؛ وبمعرفة الحاج سليم وحده..

كما أعرف سيادتكم يا سعادة البيك أن الأسطى فانوس هذا رجل ليس له في التور ولا في الطحين. إنني لا أصاحبه ولا أحبه ولكني أقول كلمة الحق. لقد ظلم كثيرا في مسألة السرقات هذه، ولو رأيتموه الآن لأدركتم براءته، فهو يقضي الليل في الجامع والنهار في البيت لايغادره. وهو حزين أشد الحزن بسبب ماجرته عليه طيبته وماجلبه عليه تواضعه حين يجلس مع مثل هؤلاء الناس. هذا مالزم عرفناكم وتفضلوا بقبول فائق الاحترام. مقدمه «فاعل خير».

(٥)

ـ عليك السلام ورحمة الله وبركاته..

وامتد الظل الكثيف وحجب ضوء الشعلة العليل عن الصفحات، ومنذ برهة كان الفتيل يهتز، وفوق الصفحات تتراقص ظلال باهتة. رفع «طلعت» وجهه رأى رجلا طويل القامة متهدل الشارب يلبس طاقية الخفراء النظاميين نحاستها مخلوعة وقد اجربت وكلحت، ويتذكر «طلعت» أنه كثيرا ماسمع الأنفار يسخرون منها، وهذا الرجل يرد عليهم بأنهم «بجم» لايفهمون شيئا، وأنه لاينوي خلع هذه الطاقية إلا حين يتأكد أنه خلاص لم يعد خفيرا نظاميا يتبع عمودية الناحية.. وهو بعد لم يتأكد.

اعتدل «دياب» في جلسته.. أما الأعرج فلم يعتدل، إنما قال:

ـ تفضل يا شيخ الغفر.

نظر شيخ الغفر حواليه، شرع يجلس، فأوسع له الأعرج مكانا بجانبه لكنه اصطدم بجسر من الأجساد المتمددة. بكوعه زغد الجسد المجاور له. انشرخ الهواء وامتلأ الإسطبل فجأة بالصراخ،

صراخ غرباوي واضح وملتاع، حتى خيل لطلعت أنه إن لم يصرخ هو الآخر في الحال يكون قد تخلى عن واجب مهول، لكن الصرخة كفت مرة واحدة، وحولها سقف الإسطبل إلى أنغام رمادية داكنة راحت تنسحب من خلال الفتحات، فكأنها أزاحت من الفتحات كتلا هوائية متجمدة فهب صقيع غريب مفاجئ. كان الإسطبل بطوله وعرضه قد صار ـ في ظل نوره المخنوق ـ أرضا سوداء محروثة مليئة بجسور من السبخ في غبشة الفجر الرمادية: عشرات الرءوس مرتفعة متشابهة. استطال أكثر من رأس واعتدل أكثر من جسد فزلزلت الأرض زلزالها واهتز كل شيء في الإسطبل لحظتها.

ـ من الذي صرخ.. هه.. من الذي صرخ؟

هكذا صاح من يسمونه بالباشخولي عبد السلام.

ـ واحد من أولاد الزواني.

هكذا قال الرجل الذي يلبس طاقية الخفراء والذي كان السبب فيما حدث.

ـ لا.. إنه ليس واحدا.. لقد صرخ الإسطبل كله.

بهذا رد الباشخولي.

ـ نعم هناك أصوات كثيرة صرخت.

ـ كانت الصرخة بجانبي.

ـ كانت في أذني.

ـ كانت فوق صدري.

ـ لا أدري إن كنت سمعت الصرخة أو صرختها أنا.

واختلطت الأصوات. بدا الإسطبل كأنه مخزن لكل الضفادع التي في برك الدنيا كلها. صرخ الباشخولي وهو ينهض واقفا:

ـ بس.. الكل يسكت.

خفت نقيق الضفادع بعض الشيء، لكنه سرعان ما ارتفع مرة واحدة كأنما لا يعجبه الكلام. وصرخ شيخ الغفر:

ـ يبدو أنني سأقتل كلبا هذه الليلة.

صار الباشخولي يضرب فيمن حواليه بالرجل والبونية. هكذا فعل شيخ الغفر هو الآخر. انتفضت الأجساد كلها واقفة تدوس في شرها أجساد أطفال وعجائز وكهول. صارت الضربات تنهال بوحشية في كل اتجاه فوق كل جسد ليس تحت الأقدام. كما صار الإسطبل مثل حريق دب في عشرة بلدان مرة واحدة.

زلزلت الجدران. راح باب الإسطبل يهتز ويهتز تكاد تفصصه الطرقات من الخارج، كان «طلعت» قد طوى أوراقه بسرعة ولفها في المنديل المحلاوي ثم خبأها في جوال الزوادة، ثم انحاز إلى مجموعة من النساء والصبيان والعجائز كانت تنحاز بدورها إلى باب الإسطبل تريد أن تحتمى به من الدمار، سمعوا صوتا يصيح خلف باب الإسطبل من الخارج قائلا:

ـ اسكتوا يا غجر.. دعوا ليلتكم تفوت على خير.. سوف تندمون.. الهانم زوجة الناظر موجودة بالعزبة الليلة ولا تزال صاحية.. ويلكم يا أولاد الزنا، يا مقلقي الراحة، يا مثيري الشغب.

لكن صوته لم يتجاوز هذه المجموعة الصغيرة، فاختفى مرة واحدة. وتهامس العجائز المنزووون بأن شيخ غفر التفتيش ذهب ليستنجد بالباشكاتب وسوف تكون الليلة سوداء: نعم فهي لا بد وأن تختتم، وتختتم هكذا. على أن المطر سرعان ما راح ينهمر بغزارة، كأن السماء تميل على جانبي السقف الجملون وتحكم وضع خيوطها على فتحاته.

تصادمت الأجساد، صارت جسورا تدفع بعضها هنا وهناك.. تلهث تبحث عن ركن تحتمي فيه من هطول المطر، فكلما انحازت إلى ركن دهمها الصقيع وأغرقتها المياه وأعمتها السيول المتدفقة من فتحات السقف. الإسطبل يرعد، يزأر دون كلام مفهوم. وكانت العيون التي نجت من رشاش المياه قد لمحت رءوسا تطل من فتحات السقف وأيدي تمسك بالخراطيم، التي قللت مياهها شيئا فشيئا وصارت خيوطا غليظة مرتخية تشر فوق الحيطان. لم تعد الأجساد قادرة على الالتصاق ببعضها أكثر من هذا. الناس تتباعد عن الحوائط والأركان. الضغط يزهق الأرواح، كل الصدور بين حجري رحى. صوت خرير المياه كالكرابيج فوق الأجساد.

فجأة التوت الأعناق كلها واستدارت تنظر في حائط العرض القريب من سراية التفتيش، حيث لمع ضوء «باهر» في أعلى الجدار ثم استقر على حافته.. كان ثمة فانوس زجاجي كبير قد وضع على حافة الجدار في الفراغ الذي بينه وبين سقف الجملون. ظهرت بجوار الفانوس رأس مطربشة، ثم ظهر بجوارها فانوس آخر، ثم تضاعف الضوء وجعل الصدور التي كانت قد تاهت منها أرواحها تتسع فجأة لقليل من الابتهاج بمرأى الضوء. كان قد ثبت أن الوجه

الذي بين الطربوش وحافة الجدار هو وجه الباشكاتب «عشم أفندي» شخصيا. يبدو أنه ذكرهم بالقراقوز فعرفوا في حالة فرحة وانتظار. لكن «عشم أفندي» كان قد أصر على أن يفلق جحر الجدار بذقنه المدببة لايعرف أحد منهم إن كان هذا الصوت المشروخ هو صوته أم صوت الجدار يئن، أم صوت خرير المياه لايزال يجلد القلوب أم صوت السقف الجملون يكسر الصوت ليثنيه ويدحرجه إلى الآذان. كان الشارب التركي بجناحيه المتصلبين يهتز ويترنح:

ـ التفتيش يعرف كيف يخمد صوت الكلاب حين تزعج النيام بلا سبب.

ألا تعرفون أن عواء الكلب معناه أنه شاهد وجه عزرائيل يدخل المكان؟

من يرد أن ينبئ بقدوم عزرائيل فسنكافئه بضرب الرصاص، لكننا نحب أن نبرد أجسادكم في الأول.. لعلكم تهدؤون قليلا.

ثم انزاح وجهه عن حافة الجدار، وسقط، تماما كما تسقط رأس القراقوز خلف الستار. وانسحب الضوء فدخلت السماء السوداء فيما بين الجدار والجملون. قالب من اللحم البشري طوله عشرة أفدنة وعرضه ثلاثة، يعجن نفسه بنفسه في نفسه، يزأر باكيا نائحا، أقدامه تخوض في المياه التي لا تزال تتساقط من الأجساد. لم يعد هناك غرباوي وابن بلد.

وصار الليل يتكوم، وتتكوم الأجساد فوق بعضها.. وكم من صدور تعبت من رءوس مرتمية فوقها. لكنها لم ترفسها، خوفا من أن تكون أخا أو أبا أو صديقا أو عمة أو زوجة خال.

الفصل السادس

النجم الذي هوى

دخل الحكيم وبص له بالعين
وقال له: يازينة الأُمَرَا أجيب دواك منين
ياحكيم العيان طبب وخد ميه
طلع الحكيم ورأسه مطاطية
ياطبيب العيان طبب وخد متين
طلع الحكيم يخبط على الكفين

(بكائية)

(١)

وأخيرا قال الأعرج:

ـ في ذاك الفجر، فجر وصول الأنفار، ضحك «جمعة» المؤذن من كلامه، مع كل؛ فإن الصلاة خير من النوم. وكان «جمعة» يصعد إلى المئذنة فجرا وصبحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاء. كنا نقول له: «يا أخي دوشتنا وها أنت ترانا قد أتينا لنصلي». فكان يضحك ويقول: «إنكم تمشون فوق الأرض فحسب ولم تتيقظوا بعد». ثم يندمج: «يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا، واسمح لنا بالرضى يا واسع الكرم.. يا رب جاءتنا سراية وانزرعت على شط مصرفنا، مارد كبير يزحف ويسحب وراءه شكائر طين، لا ظلمة الليل تخفيه، ولا شمس الضحى تكشفه.. يا مارد يا كاتم نفس العباد، تظن نفسك في العز تهنا إلى آخر الدهر فيا رب يا رب يا رب»؛ كان ساعتها متأكدا أن أحدا في البلدة لم ينم، حتى الخفراء النظاميين، أشهر النوام في بلدتنا، كانوا يروحون ويجيئون ويملؤون الليل كحة وصياحا وشخطا في الهواء بلا داع، هي ليلة واحدة يسهرونها في كل موسم: ليلة وصول الأنفار إلى التفتيش، وسهرهم لايمنع حدوث السرقات

أبدا.. والغريب يا دياب أن البلد لاتسرق إلا في الليلة التي يسهرون فيها لحراستها.

يا دياب يا أخي. كتب على بلدتنا أن تكون تابعة للتفتيش وللسراية مع أنها ليست ملكا لأصحاب السراية. أهل البلد صاروا خدما للسراية وهي تتحكم في أرزاقهم. كلما اشتدت حاجة الواحد منا إلى المال يلعن السراية، وكلما نزل بأحد منا مكروه لعن السراية، أما حين يكون الواحد منهم في عز ونغنغة فإنه ـ أيضا ـ يلعن السراية. كان المرحوم يقول: «والله لو نطقت هذه المئذنة لقالت ما في الخمر». نعم فهي المئذنة الوحيدة في البلد وقد شاهدت أشياء يشيب لها الطفل. في الصبح رأى المرحوم أتومبيلات وكارتات تدلق أمام السراية رجالا مقمطين. عند أذان العصر رأى خدم التفتيش قد انتشروا في البلد فجمعوا بيضها وجبنها وسمنها ولبنها ودجاجها وحمامها وخرافها. الحواري امتلأت بنسوة يحملن أشياء يتوجهن بها نحو السراية.السكة امتلأت بالصبايا يحملن البلاليص في اتجاه الترعة ويغيرن طريقهن المعتاد ليمررن في عودتهن بالسراية كل واحدة منها دعكت وجهها بورقة حمراء وكعبها بقطعة من الطوب. رجال البلد لايستغربون فالفتيات طائشات، إنما كانوا يستغربون لمنظر النسوة المتزوجات يحلو لهن التلكؤ على «الموردة» يتحككن يغتسلن لا يتحرجن من تعرية سيقانهن. عند أذان المغرب شاهد المرحوم خفراء السراية يلتحمون بالخفراء النظاميين ويتهامسون في ود لم يعرفوه من قبل. قال المرحوم عند أذان العشاء امتلأت السكك بناس تروح وتجيء. قال المرحوم في عز الليل همدت الحواري والطرقات. لم يكن هناك أثر للأنفار في

البلد أو على الطرقات؛ لأن الوسية أعطت الإسطبل للأنفار. من ساعة ماعلمنا بالخبر رحنا نسأل: ماذا سيقول الخفراء في الصباح عندما تظهر السرقات بينما الأنفار محبوسون في الإسطبل؟ ولكن المرحوم ظل فوق المئذنة حتى طلع الصباح وارتفع الصوات في البلد؛ نفس الصوات الذي إن سمعناه عرفنا في الحال أن الناس قد سرقت.

(٢)

كانت الصفحة تظل معلقة بين يدي «طلعت» لبرهة طويلة يستمع فيها إلى كلام الأعرج. وصاح فجأة:

ـ إن كلامك يا خال أعرج هو الخالق الناطق الكلام الذي هنا.

ـ هنا أين؟

ـ هنا في هذا الدفتر العجيب.

شوح الأعرج:

ـ يخلق من الشبه أربعين.

ثم أخذ يلف سيجارة من كيس صغير مملوء بأعقاب مفروطة يجمعها له ولد من ولدان السراية. وراح «طلعت» يشارك في الاستماع إلى الأعرج.

(٣)

كانت الناس يا ولداه تلف حول أطراف البلد، تدخل الحواري وتخرج منها ولا تدري أنها دخلت وخرجت، وأيضا لا تدري إن كانت تدخل أو تخرج. الكلام أيضا كان يدور، لا أحد يعرف من أي حنك يخرج الكلام: جاموسة محمد خطاب سرقت.. جوالات قمح ضاعت من مخزن الحاج داود.. دكان بكري البقال اتقش ولم تبق فيه قشة واحدة.. هدوم العروسة.. عشاء العيال.. فراخ أم محمد.. يا للمصيبة؛ يومها وقف المرحوم يضحك. وعندما يقف المرحوم ليضحك فمن المهم أن تتفرج.قال المرحوم: أين الخفراء؟. قال واحد من الواقفين: ذهبوا يسلمون السلاح ككل صباح.

قال المرحوم: ليتهم يدعونه في السلاحليك.. إنهم لا يهددون به سوى الناس الطيبين الذين هم في حالهم.. أين كنت.. وكيف ترد عليّ.. ويوم أبيك أسود.. وقدامي على الدوار.. أنا رايح أصلي الفجر.. فجر يا ابن الكافر؟.. رايح أدور الساقية.. ساقية برضه يا ابن الكلب.. سأشتري دخان.. دخان في عينك.. هذا والله ما نأخذه من البنادق المعلقة على الأكتاف.

ثم إنه مشى. ومشينا وراءه. فتنا على شارع الجرانة وشارع العقالوة وبيت أحمد أفندي الشوربجي. وقف المرحوم فوق جذع نخلة ونظر في حارة العبايدة. الناس يتلقفون كل من يخرج من الحارة ويسألونه: ماذا حدث؟.. دار الشيخ عبد الباقي سرقوا منها الناف والمحراث وبردعة الحمار وعنزة. قال المرحوم ضاحكا: ترى أين كان الحمار إذن ساعة سرقت بردعته؟. البنت التي كانت واقفة تقول الخبر اتكسرت عيناها ودارت ابتسامتها بطرف شالها ومرقت في الزحام. قال طفل من أهل الحارة: «الحمار كان يعشر حمارة الجيران» ضحكنا جميعا، واندفع صوت من داخل الحارة يقول إن حمار الشيخ عبد الباقي قليل الصبر حين يهيج، يقطع أي قيد وينط أعلى جدار. قال «بدوي عسر» بخبثه المعروف: «يا أخي قل إن حمار الشيخ عبد الباقي يعشق حمارة الجيران وبينهما غرام وهذا كل مافي الأمر». رد فرحات المنادي أعمى العين: «يقولون إنها ترسل له الهدايا والمراسيل». فانفجر «بدوي» ضاحكا وشوح بذراعه وقال: «إنها تجيء بنفسها وتسحبه» قال الطفل المسحوب من لسانه: «ما هذا.. إن الجيران ليس عندهم حمير» رد عليه طفل آخر: «لا يا عبيط.. إن امرأة الجيران هي التي تعشق الحمار و..» ارتفع أكثر من صوت ينهره: «امشي جاك عمى في عينك قليل الأدب»، وقال آخرون: «خذوا فالكم من عيالكم» مرة واحدة انتبهنا لزئيط مرتفع. كان «محمود» ابن الشيخ عبد الباقي يسحب الحمار خارجا به من بيت الجيران. تصدى له بعض أبناء عمه وطلبوا منه أن يترك الحمار في مكانه إلى أن يجيء العمدة. رجال آخرون صاحوا بأن هذا عيب، وأن الله أمر بالستر، وعلى العبايدة أن يأخذوا

حمارهم ويقولوا في محضر التحقيق إن الحمار كان في الحقل مثلا. قال أبناء العم إن التحقيق لن يصدق أن اللص يسرق بردعة الحمار ويترك الحمار نفسه. فجأة ظهر الشيخ عبد الباقي وأمر ابنه أن يسحب الحمار ويعود به إلى البيت ثم سار خلف ابنه وحماره في صمت، لكنه وقف مرة واحدة والتفت إلى الناس قائلا: «خلاص يا أسيادنا.. حينما يسألنا التحقيق أين كان الحمار ساعتها سنقول إنه كان في مهمة رسمية عند الجيران» ومضى مثل نخلة قصيرة يطوحها ريح عاصف ولم تكن الريح سوى الضحكات. المرحوم هو الآخر أخذ يتطوح مثله ولكن على طريقة المنشدين في الذكر واضعا كفيه على صدغيه، وارتفعت الدندنة الحلوة: «يقولون ليلى بالعراق مريضة.. فقلت يا ليتنى كنت الحمار المداويا» ثم رمى بنفسه على الأرض وسار ووراءه ناس إن رششت الملح فوقهم لاينزل إلى الأرض.

عند جنينة «العبد شتا» وقف المرحوم فوق تل مرتفع بين المقابر. راح الناس يتسلقون المقابر. سقطت عيونهم في قلب الجنينة فظهرت عليهم الدهشة وصاحوا: العبد شتا عارٍ كما ولدته أمه، يتقرفص يدفن رأسه بين ركبتيه، ومحمد أفندي الشّربيني يقف وراءه يجلده بالكرباج. محمد أفندي هذا يستأجر أشجار الجنينة منذ أعوام، مقابل عدد من كيلات القمح وأردب من الذرة يدفعها للعبد كل عام، والعبد يحرس الجنينة مقابل حق الدخان. كان صوت الكرباج يشرخ الهواء والعبد لايئن، ابتسم المرحوم وقال: «محمد أفندي كما تعرفون من حملة الكرابيج في البلد.. بسم الله ماشاء الله صرف عليه أبوه حتى رباه وصيره من حملة الكرابيج»

قال رجل عجوز لعله موجود بيننا الآن: «ولسان الكرابيج فصيح» رد المرحوم بابتسامة: «خاصة مع المواشي أمثالنا».

الطريق المنحدر من المقابر إلى قلب الجنينة صار مثل عش النحل خطين كبيرين، واحد يهبط إلى الجنينة والثانى يصعد منها. صعدت الأخبار من الجنينة تقول: «العبد شتا هو الذي فعل بنفسه هذا، أقعد نفسه هذه القعدة وسلم الكرباج لمحمد أفندي وطلب منه أن يظل يضربه حتى يَبُكّ الدم من جسده..لماذا؟.. أصل الحكاية أن العبد شتا كان يجلس في خُصّ الحراسة في عز الليل، فدخلت عليه امرأة مهدودة الحيل راحت تسقيه أنفاس الحشيش وتذيب له سنة الأفيون في كوب الشاى. فلما اشتد عصبه وقام وجدها رجلا.. فتح فمه ليصرخ. لكن ضربة سريعة سقطت على نافوخه فسقط ميتا، ولم يفق من الموت إلا في الصباح ليجد نفسه عاريا، ولم يجد قفصا واحدا من أقفاص الفاكهة التي كانت مجهزة للسفر.

وراء المرحوم مشينا. دخلنا شارع السوق. تركنا ماكينة الطحين ثم تركنا البلد كلها. ليس في الخلاء بيوت سوى بيت «محمد أفندي الشربيني» الواقف وحده بين الحقول. عند هذا البيت وقف المرحوم فاصفرت وجوهنا. جرى المرحوم فطلع شجرة التوت القريبة ونظر في قلب شونة الغلال ذات النوافذ العريضة. زعق كأنه مذبوح «سبحانك يا رب.. تكشف المستور بإرادتك» سألناه. أشار إلى الشونة: «تفرجوا.. بالله تفرجوا» كأن الريح هبت علينا فبعثرتنا هنا وهناك.. طلعنا فوق أكتاف بعضنا ورحنا ننظر والمرحوم يقول: «أترون.. الأقفاص التي سرقت بالأمس من جنينة العبد شتا» من هيافتنا سألناه: «كيف يسرق الرجل نفسه؟» وقال عريف الكتاب

بهلفطة مقرفة: «يخربون بيوتهم بأيديهم» حتى الطفل المسحوب من لسانه قال: «لقد سرق الأقفاص ليضرب العبد شتا» ونظر المرحوم إلينا وفي عينيه نار، وقال: «هكذا الأمر في البلد.. السارق يحاكم المسروق ويجلده» قلنا جميعا: لا إله إلا الله. صاح المرحوم بغيظ: «لسوف يدفع العبد شتا ثمنا كبيرا يا رجال.. سيظل يعمل أجيرا طرف محمد أفندي بلا مقابل طول حياته.. وربما يموت قبل أن يفي بالدين» أكمل العجوز: «وقليل إن مانزعت ملكية الجنينة» طرقع المرحوم بإصبعيه مؤكدا: «العبد شتا يجلد نفسه لأنه كان يعرف اللص ويتربص به ولكن اللص دخل من الخلف ونكح رجولته.. فماذا غير الكرباج يشفي غلة الندم» ثم دار ومشى عائدا للبلد والجميع خلفه كصبيان أشقياء يتامى..

كان حضرة العمدة جالسا في الڤراندة يلعب الدومينو مع شيخ البلد والأسطى فانوس صاحب عزبة الكخيا المجاورة للتفتيش، وكنا نسير وراءه وحولنا غبار كثير ثقيل. وقف الأسطى فانوس وصاح: «الحق يا عمدة» وقف العمدة لاهثا: «ماذا؟» قال الأسطى فانوس: لا بد أن حريقا شب في البلد وصاح العمدة: «اللهم احرقهم جميعا.. لا يدعوننا ننعم بدقيقة راحة». أما شيخ البلد فلم يقف، وأما العمدة فلم يجلس، بل صاح فينا: «خير يا أولاد الزانية بلا أجر.. لا بد تعاركتم كالعادة» توقفنا حين توقف المرحوم، وصرخ العمدة: «انطق يا ثور أنت وهو» ثم تلفت وراءه: «إيتوني بالخفراء».. ثم دخل وغاب عن عيوننا.

(٤)

قال «طلعت» لجده مهيوب:

ـ والله والله إن خالي الأعرج هذا قد لخبطني.

ضحك مهيوب في إعجاب:

ـ قل إنك لست على بعضك.. لا تتهم الناس.

ـ إنه هو وهذا الدفتر يقولان كلاما واحدا..

مسح على كتفه بحنان:

ـ الدور والباقي على رأسك أنت.. نريده أن يقول كلاما ثانيا.

اقشعرت رأس «طلعت»:

ـ أتعرف يا جدي.. أراهن أنهم جميعا قد ذاكروا في هذا الدفتر.

ضحك «مهيوب» وزر على عينيه، وصارت ذقنه البيضاء الطويلة تتطوح كقحف الجريد:

ـ إنهم لايذاكرون في القرآن.. ولا في شيء..

قال «طلعت» في تصميم:

ـ أقطع ذراعي إن ماكان هناك من جلس وكتب كلامهم.

ـ سلامة ذراعك يا ابن القاضي.. يا فهيم.

تضايق «طلعت» من ذكر القاضي:

ـ كنت مرة تقول لي إن كل واحد منا يجلس على كتفيه ملكان.. ملك الحسنات وملك السيئات..

رفع الجد إصبعه الطويلة أمام عينيه:

ـ ولكننا لانراهما.. وهذه حكمة الله.. إنهما في شغلهما ليس لهما دعوة بنا.. يكتبون كل ما يفعله أو يقوله الواحد منا بلا زيادة أو نقص..

تحسس «طلعت» الأوراق:

ـ هذا الدفتر..

ولكنه لم يجد كلاما يقوله. وصارت ذقن الجد تكنس الهواء من الضحك:

ـ إذن فلماذا لاتسمعني ما تقرأ.. خلني معك وأسمعني.

وأخذ «طلعت» يتمتم في صوت خفيض بأشياء غير مفهومة.

(٥)

ـ ما كان الواحد منا يتصور أن العمدة يبكي مثل الطفل. كان يشق الهدوم ويقول: «دبرني يا شيخ البلد أنا في عرضك».

ويرد عليه شيخ البلد وهو يداري كسوفه: «أنت الآخر مسروق يا عمدة.. لكن.. يا عمدة كنت تقول بأنك بعت المحصول».

ورأيت شيخ البلد ينظر إلى فانوس وعلى وجهه خيال كلام، والأسطى فانوس لا يريد النظر إليه، المهم أننا جرينا. كنا نغوص في أرض موحلة.

طار صواب «الأشموني» وصار يزعق: «ابتعدوا عن الأرض يا كفرة.. سنشتلها بعد أيام.. الكاشف سوف يجيء ليأخذ حق أفندينا من محصول الأرز.. الكاشف لايقبل عذرا.. أربع سنوات لم أدفع والعمدة قال إن الدفع هذا العام».

يا هول المنظر. تطوح الأشموني وارتطم دماغه بجذع الشجرة وتفجر الدم، وساعتها لم نعرف أن الأشموني مات. كنا نجري خلف المرحوم لا نعرف أين يريد أن يذهب بنا. ولما وقف على

شاطئ الترعة وقفنا نحن أيضا. رأينا بغالا وحميرا وجمالا تخرج من البلد، ورأينا المرحوم يصرخ مرة واحدة وقد وضع يده على صدره. ورأيناه يقع. كانت رصاصة واحدة، لا نعرف من أين انطلقت، لكنها قصفت عمر الجدع.

الفصل السابع

ألسنة الأوراق لا تعرف أصحابها

وقلت لها يا عين مافيكيش منافع للناس
وأحطك يا عين في قمقم من نحاس
وأسبك عليك يا عين القمقم والرصاص
وأرميك يا عين في بحر الغطاس
قالت والنبي والله خدي على عهد الله
لا أخون بنت في قمرتها
ولا عروس في جلوتها
ولا جاموسة في ضرتها

(رُقيةَ)

(١)

جفت مذاود الإسطبل بعد أن كانت تحولت إلى برك صغيرة.. والذين كانوا ينامون فوقها صارت خرقهم وهلاهيلهم كومة من الطين لا تبغي الجفاف. والآن لا أحد يرغب في اعتلاء المذود فقد اتضح أنه مهما علا ليس معصوما من الخطر.

وهز «عمرو» رأسه مؤكدا.. ووافقه «طلعت» على هذا الكلام..، وقال إن الأنفار ذابوا في بعضهم منذ تلك الليلة، فأي واحد ينام الآن في أي مكان، ثم قال بعد برهة:

ـ وقلت الخناقات..

فقال «عمرو»:

ـ والله يا طلعت يا أخي.. ماذا أقول؟.. إننا.. كلنا.. كل الذين في الإسطبل نريد أن نتخانق مع أحد..

ـ من يا ترى؟

ـ أنت أيضا معنا.. كلكم.. كلنا..

الشعر في رأس «طلعت» يقف:

ـ لا بد أنك تقصد الخولي؟

ـ جايز.. إنما لا.. الخولي أيضا مثلنا.. يريد أن يتخانق مع أحد.

ـ يعني لا بد وأن يتخانق الواحد والسلام..

وأخذ يفر الصفحات ويدعك عينيه، وراح «عمرو» يحدث نفسه بصوت عال:

ـ المندوب يزعق للمفتش.. والمفتش يشخط في الناظر.. والناظر يشتم الباشخولي ويلعن أباه.. والباشخولي يضرب الخولي..

والخولي يمزق أجسادنا بالخيزرانة..

وأخذت ثمة أصوات تنعق هنا وهناك..

ـ لا أحد منكم يفتح فمه يا أولاد الكلب.. أريد أن أنام..

ـ نم يا أخي.. ما منعك أحد..

ـ من الذي يتكلم؟.. أرني نفسك لو كنت رجلا..

اعتدل «طلعت» ونظر «عمرو» مبتسما:

ـ إننا حسدنا الإسطبل يا عمرو..

ولم يرد «عمرو» إنما ظل ينظر نحو الضجيج مبتسما..

ـ وحد الله يا عبد السلام.. وحد الله..

ـ عبد السلام لا يلعب معك يا ابن الزانية..

ـ يه.. يه.. ولماذا الغلط؟!

ـ قلت لكم مائة مرة اسمي الباشخولي.. باشخولي السراية..

ـ لكنك الآن.. نفر..

ـ إن ذبل الورد تبقى رائحته فيه..

ـ إنما .. بس...

ـ خلاص يا أسيادنا.. خلاص.. نم يا باشخولي ولا يهمك.. حقك علينا.

رفع «مهيوب» رأسه وراح ينظر في أنحاء الإسطبل، وتأكد أن الولد «طلعت» ما زال جالسا يعبث بالأوراق التي أعطاها له «دياب» ومال واحد من الغرابوة على زميله وهمس:

ـ الباشخولي ركبته العفاريت..

ـ أظن أنه الباشخولي الذي أدخلنا الإسطبل أول عام..

ـ هو بعينه.. سبحان مغير الأحوال.. يومها كانت الأرض تخاف من مشط رجله.

ـ يقولون إنه طيب وابن حلال.

ـ وهل كان معنا في الإسطبل لتعرف أنه ابن حلال أو حرام؟!

وزغد كل منهما زميله لينزاح قليلا. وكانت أعقاب السجائر قد نفدت من الأعرج فنام كمدا كما قال من ساعتها. أما «طلعت» فعاد يغرس عينيه في الأوراق التي بات يرى فيها العجب..

(٢)

إشارة

من بندر طنطا إلى نيابة كفر الشيخ

نفيد سيادتكم أن المدعو «سليم الضبع» كان منذ ليلتين في المدينة، وبات لدى زوجته بالناحية ثم غادرها في الصباح متوجها إلى كفر الشيخ.. هكذا قالت لنا زوجته «أنجا هانم» التي لاهى «أنجا» ولا «هانم» لأنها أسمت نفسها هكذا لتثبت أنها من عائلة، تقول إن زوجها راح يتفاهم مع التفتيش في شئون الأنفار، لأنه، كما تقول أيضا، من كثرة خوفه على صحة الأنفار وسلامتهم سيطلب من التفتيش أن يعطيهم مكانا يبيتون فيه. وقد أكدت تحرياتنا أن الخبر صحيح، إذ إننا علمنا أن التفتيش أهدى للأنفار سراية كبيرة ينامون فيها بعد طول النوم في العراء ولا بد أن هذه جهود الحاج سليم. وبسؤالنا عن الميعاد المقرر لعودة الحاج سليم أفادت زوجته المذكورة بأن ذلك يخضع للظروف..

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

(٣)

بلاغ ثان

حضرة جناب الحكومة الكائنة بنيابة كفر الشيخ..

أشكركم وأقدم التحية لكم ولعظمتكم أفندم.. وبعد فأنا «عمرو» الذي وقف أمامكم أيام السرقات بسبب مقتل «جمعة الحصاوي»؛ أحيط علم سيادتكم أنني بينما كنت أسير خلف حمار الكاتب قابلني حمار آخر يحمل خرجا على ظهره ويسير وحيدا. وقال الكاتب: هو حمار ضل الطريق وفر من صاحبه فلا شأن لك به. أما أنا فقلت لنفسي يظهر أن صاحب الحمار يفعل مثلما تفعل الناس بين أعواد التيل. لكن الطريق طال والحمار بلا صاحب.. فجعلت بالي منه، وأخذت أسوقه أمامي من غير أن يشعر الكاتب. كان الخرج منتفخا وساهيت الكاتب وتسلقت ظهر الحمار ونظرت بداخل الخرج، ويالهول ما رأيت.. الخرج ملآن بأكياس صغيرة مثل كف اليد، كل كيس من قماش العبك مبطط ككف الحلاوة العلف ومرسوم عليه ثلاث سنابل، وأكياس أخرى مبرومة كقمع السكر. وأخذت أفك

عنها ورق السولفان فإذا هي عجينة تشبه لون الطمي الغامق وذات رائحة غريبة. ومددت يدي لآخذ قضمة أذوقها، فانشرخت أذني وطار الشرر من عيني ولم أدر إلا والكرباج السوداني يلفع رقبتي. صرخت ووقعت على الأرض، إذ إن الكرباج السوداني لايمسكه إلا الناظر بذات نفسه؛ لم أجد الكاتب ولا حماره فعرفت أنه حود مع الجزورين إلى حوض البقمة، وعرفت أن هذا الحمار مشى بي في طريق آخر من غير أن آخذ بالي، وكان أمامي رجل متقمط ببذلة مثل بذلة الناظر، وكالخواجة يلبس البرنيطة وكنت أبكي والأرض تزيحني عن نفسها، وكنت أشعر أنني رأيت هذا الرجل من قبل. وكنت أريد أن أصدق أنه المندوب، الذي إذا فاجأ التفتيش بزيارة اهتزت حيطان القصر ونبحت الحمير فوق السكك وهي تجري بسرعة هنا وهناك لكي يصدق المندوب أن الكاتب والباشكاتب والناظر والباشخولي يباشرون العمل بإخلاص..

كان جسمي ينتظر الكرباج ويغلي كبراد الشاي؛ لكن الأفندي مد يده. وعدلني وشخط فيّ: اسمك ايه؟. قلت له اسمي ولكنه لم يراع خاطر الكاتب فصفعني على وجهي. وحين فتحت عيني تأكدت أنني والله العظيم يا سعادة البيه أرى وجه الحاج سليم الضبع مقاول الأنفار.. أي نعم هو.. أنا لست تائها عن وجهه. أعرفه حتى ولو لبس فوق وجهه وجها آخر وتعجبت.. هل الحاج سليم رقي إلى مندوب؟. المهم أنني تأكدت من أنني أرى الحاج سليم بعينه والدليل على ذلك أنني في الحال لم أعد خائفا.. فما دام الرجل الذي أقف أمامه ليس من رجال التفتيش، فلا داعي للخوف منه حتى لو كان الشيطان. وأخذت عيني تتجرأ عليه حتى وجدته

في غضب، ثم إنه تهجم عليّ يريد أن يضربني بالبونية في وجهي، ثم إنه فعل حركة لايمكن أن يفعلها المندوب أو أي أفندي محترم من أهل التفتيش، حيث إنه أخرج لسانه وطواه تحت أسنانه وضغط عليه، هذه حركة لم أر في حياتي أحدا يفعلها غير الحاج سليم حينما كان يهدد السواقين بالضرب. ومثلما رأيته يفعل مع السواقين زغدني في صدري بغيظ وقال لي: «مالك وحمير الناس.. امشي في حالك وإياك أن تفعل هذه الفعلة مرة أخرى». ثم أشار بيده في الهواء وجعر، فانشقت الأرض عن رجل غريب، من الأغراب الذين يجيئون البلد كثيرا، غجر وعربان وتملية وراكبي حمير فوقها أخراج، قال له: «خذ حمارك وامشي» فقال الرجل: «حاضر يا بيه»، وما إن استدار ليمشي حتى رأيته يطير في الهواء كقحف الجريد ثم ينكفئ على بوزه فعرفت أن الشلوت قد وصله في الموعد المناسب ورأيته يسير وراء الحمار ببطء من غير أن يمتطيه.

استدار الأفندي ببذلته الوجيهة ومشى وراء الرجل الغريب في اتجاه السكة الزراعية. أما أنا فرحت أجري بعيدا وقد نسيت السكك، ولما تعبت من الجري رأيت فجأة أشياء تحدث: نفس مايدور عند زيارة المندوب أو المفتش.. السكة صارت تشغي بالخولة والباشخولة، وجاءني هاتف يقول لي إنهم جميعا يفعلون هكذا لكي يخدعوني ويصوروا لي ظلما وعدوانا أن هذا الأفندي هو المندوب بنفسه. على أنني لم أصدق مايحدث. وطلع في دماغي كلام: هل يكون هذا الرجل يمثل على الباشكاتب أيضا؟. لكن زوجة الباشكاتب ظهرت في دماغي، فتذكرت أن أي زائر للتفتيش لا يمكن أن يدخله من غير أن يسلم عليها أولا ويستمع

منها إلى كثير من الودودة، التي يحبونها جميعا. وقلت لنفسي: إذا كان هذا هو المندوب أو المفتش فأين الكارتة التي يجيء بها تجرها الخيول ذات الأجراس؟..

صرت أجري نحو السراية لعلني أجد الكارتة موجودة هناك. لكنني وجـــدت بدلا منها «عبد السلام» باشخولي السراية يقف بين مجموعة من الخولة الخصوصيين يحدثهم عن الزيارة المفاجئة التي قام بها المندوب اليوم، حيث جاء بلا كارتة وبلا حراس وبلا كافة شيء حتى يخفي نفسه ويفاجئ الأنفار في العمل. انسحبت من لساني وقلت: «يا جماعة إن هذا المندوب هو الحاج سليم بعينه ولا أحد غيره». فانهال «عبد السلام» على نافوخي بالضرب، وظل الباقون يضحكون ويسخرون، وأنا من شدة غيظي أحلف لهم إنهم جميعا غافلون، وإن عليهم أن يدققوا النظر في وجهه حتى يعرفوا من هو بالضبط.

لكن «عبد السلام» اعتقلني وظل يضربني بقحف الجريد حتى مزق جسدي كله.. وفي النهاية أطلق سراحي..

فى صباح اليوم التالي جررت ساقي وذهبت إلى العمل فوجدتهم يطردونني من السراية ويقولون إنني مجنون. بذمتك يا بيك هل أنا مجنون؟. أنا اليوم أتعرض للجوع بينما أعول أسرة كبيرة. إنني أرجو من الحكومة أن تأخذ لي حقي من التفتيش لأننا جميعا عاجزون عن الكسب، وحتى القرش الذي دفعناه للعرضحالجي مقابل كتابة هذه العريضة استبدلناه بثلاث بيضات من بيض دجاجتنا الوحيدة.

(..هذا الولد كذاب يا بيك فوالله مادفع لي سوى بيضة واحدة

فقط رغم أنني أنا الذي نبهته إلى كتابة هذه العريضة ونقشتها له لكي تنصفه الحكومة ولم يكن هو يعرف شيئا من هذا). ويا بيك ربنا يخليك اعمل معروف رد لي الحمار من جديد حتى أستطيع الإنفاق على أبي وأمي وأنا مستعد للإنكار بأنني شاهدت الحاج سليم في ثياب المندوب، ولو أرادوا فإنني أكتب لهم ورقة وأختم عليها وأحلف على المصحف والبخاري إن من رأيته كان المندوب نفسه.. أدامكم الله ذخرا للغلابة، ونصرا للمظلومين..

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام..

(٤)

بلاغ ثالث

السيد الفاضل وكيل النيابة. أقدم لكم أسمى آيات التحية وأعظم أشواق التقدير والإجلال. أما بعد أعرف سيادتكم أن الذي سرق حقيبة الحاج سليم هو شيخ البلد، وقد فعل فعلته نكاية في العمدة والأسطى فانوس؛ لأن التنافس بينهما شديد يا حضرة الوكيل وكل منهما يريد أن يكون أكثر ثراء من الآخر. لكن الواقع أن العمدة ليس غنيا ولا يحزنون، إنما هكذا يتصورونه والصيت ولا الغنى. وبصفتي واحدا من أهل البلد فإنني أفهم العمدة جيدا وأعرف أنه لايملك شروى نقير، وأنه والحق يقال رجل في منتهى الأمانة والشرف. أما شيخ البلد فإنني أستعين عليه بالله، إنه يسرق الكحل من العين، وقد شاهدته بنفسي في تلك الليلة المشئومة ينبه على شيخ الغفر بأن يترك الغفر يستريحون في بيوتهم حيث إن الأنفار محبوسون في الإسطبل؛ فلما سمعت منه هذه المقولة يا سيادة الوكيل أحسست أنه ينوي شرا، خصوصا أنه من أسرة كبيرة في الشر. وفي عز الليل رأيت بعيني هذه التي سيأكلها الدود مجموعة

من الرجال يتسللون خارجين من بيت العمدة ومعهم الحقيبة، فظللت أتابعهم حتى رأيتهم يدخلون بيت شيخ البلد. ورغم ذلك كذبت نفسي ولكنني بعد ذلك بأيام رأيت في حديقة بيته قطعا متناثرة من الحقيبة. وعلمت من شخص يختلط بشيخ البلد في بيته أنه قد دفن البضاعة في بئر موجودة في حديقته وأنه يبيعها بالقطاعي لناس غرباء يحضرون إلى بيته ويخرجون في عز الليل، والعمدة بريء كل البراءة يا سيادة الوكيل من دم هذه الحقيبة السوداء. فأرجو منكم أن تقبضوا على شيخ البلد وتشدوا عليه الخناق حتى يعترف وإنني واثق أنه سيعترف وحينئذ تظهر الحقيقة لكم واضحة جلية..
هذا ما لزم عرفناكم

وتفضلوا بقبول فائق التحية

مقدمه.. فاعل خير.

(٥)

ضحك «عمرو» لايدري «طلعت» لماذا، وتقرفص فوق المذود الطويل وانحنى فوق ركية نار وراح ينفخ فيها ليسوي عليها سمكات اصطادها من المصرف خلسة. ثم اعتدل ومسح دموعه وأنفه..

ـ تقول إن الأوراق التي معك فيها اسمي؟

قال «طلعت» بحدة.

ـ نعم إنني وجدتك في هذه الأوراق.

قال «عمرو» وهو ينظر إليه بحب..

إذا رأيت امرأة تشبه خالتك.. تقول هذه خالتي؟

قال «طلعت»..

ـ إذا رأيت امرأة تتكلم مثل خالتي وتشبهها في كل شيء حتى في اسمها وشغلتها فسأقول عليها خالتي.

ـ وماذا تقول على خالتك الأصلية أيضا؟

ـ خالتي.. ويكون قد أصبح لي خالتان..

ضحك «عمرو» وقلب سمكة على وجهها الآخـر، وفتح خياشيمها فابتسمت هي الأخرى..

ـ لكن.. الرجل الذي في هذه الأوراق اسمه «عمرو»؟

ـ إنه أنت قلت لك.

ـ لا بد أنه سيدنا.. سيدنا.. سيدنا..

ـ سيدنا من؟!..

ـ ذلك الذي يذكرونه في الكتب، ويتحدث عنه فقيه الجامع.. ألا تعرفه؟.. كيف تروح المدرسة ولا تعرفه؟.. إنه ذلك الذي كان من أعز أصحاب النبي.

هتف «طلعت»..

ـ تقصد «عمرو بن العاص»؟.. لقد أخذناه في المدرسة.

ـ نعم هو.. لا بد أنه هو..

سرح «طلعت» برهة ثم هز رأسه وتأتأ مؤكدا..

ـ لا يا عمرو.. إن الأوراق التي معي ليست من نوع خطبة الجمعة.. وعمرو الذي فيها حمَّار في التفتيش، وأرسل بلاغا كالذى تريد أن تكتبه.. وطرده التفتيش وضربه عبد السلام.. إن الدنيا كلها من طقطق لسلامو عليكم موجودة في هذه الأوراق.

طقطقت أوراق الحطب وانتفضت السمكة فوق النار، وتراقصـت ظلال النار على وجه «عمرو» وزاغ بصره في الهواء ومصمـص بشفـتيه، وأخيـرا هز يديه وقال في حيرة: «عجايب» ثم اعتدل مطوحا كفه في وجه «طلعت»، ومثل رجل في الستين قال:

ـ يا طلعت يا أخي.. ماذا نحن حتى تكتب أسماؤنا في الأوراق؟.. إن الأسماء في هذه الدنيا كثيرة.

لمع في عيني «طلعت» بريق حلو ثم هتف..

ـ طيب.. ما لهذه الأوراق والقضية التي أخذتكم الحكومة بجرائرها وأتت بكم جميعا إلى هذا الإسطبل لتصبحوا أنفارا مثلنا وتصبحوا أيضا «غرابوة»..

قاطعه «عمرو»..

ـ أنفار نعم.. «غرابوة» لأ..

ثم اغتصب ضحكة، وربت على كتف «طلعت» ليسترضيه.

إنك طبعا لست من الغرابوة.. إنك صاحبي وأنا ابن البلد.

فلم يهتم «طلعت» بل شوح في فروغ بال ثم صاح:

ـ ملعون أبو الغرابوة «كي تنبسط».. لكننا الآن في القضية.

ـ قضية ماذا؟..

ـ التي حكمت عليكم جميعا أن تصبحوا أنفارا وتناموا في الإسطبل معنا.

ـ إننا أنفار قبل القضية.. ولكننا لم نكن «غرابوة» في يوم.

ـ إنك تقول هذا..لكن جدي «مهيوب» وغيره ممن هاهنا يقولون إن النفر نفر.. والنفر يعني «غرباوي».

ـ تريد أن تزعلني منك «يا طلعت»؟.. إننا أصحاب فلماذا الغلط؟.. أم لأنك تروح المدرسة وأنا لا أروح؟..

اقترب منه «طلعت» واستعار لهجة جده «مهيوب» وهدوء حركاته واتفاق الحركة مع الصوت مع شدة الود والأخوة، قال:

ـ لماذا تجيء بسيرة المدرسة في الموضوع؟.. إنني لا سمح الله لا أتباهى عليك بالمدرسة.. فماذا أخذته منها؟!. إن جدى يقول في أمثاله.. «أصلك وقتك».. وأنا الآن نفر.. وغرباوي.. ولا أزعل من هذه الكلمة.

قال «عمرو» وقد شعر أنه يحدث رجلا كبيرا، وشعر أيضا أنه لولا المدرسة ولولا فك الخط ما تكلم «طلعت» هكذا وهو أصغر منه:

ـ يا طلعت.. إنك تقول إن النفر يعني غرباوي..

ـ ماذا تقول للتفتيش إن جاء وقال لك.. الشغل غدا في البلد الفلانية؟.. هز «عمرو» رأسه في شيء كالأسف، وقال:

ـ معك حق يا طلعت.. إنني لن أقول للتفتيش شيئا..

فالتفتيش لن يسألني.. وكانت رائحة الشياط قد تصاعدت من السمكة، فسحبها «عمرو» من ذيلها ورماها بسرعة وراح يضرب أصابعه في بعضها لينسى وجع اللسع. وجاء صوت خشن من نهاية الإسطبل زاعقا..

ـ يا من تدعى «عمرو».. ألا تريد أن تنام؟

قال «عمرو»:

ـ ومالك أنت؟!

قال الصوت الخشن..

ـ اسكت يا أخي وجعت رءوسنا أنت والولد التلميذ.

ثم راح يبرطم..

ـ والله عال.. نقلبها كُتَّاب.. طول النهار تشقى وفي الليل تقرأ سورة عبس.. نم يا أخي.. يا أخي نم..

قال «عمرو» متضايقا:

ـ اللهم اخزك يا شيطان..

اقشعر بدن «طلعت» وقال مثل الكبار:

ـ وحدوا الله يا جماعة.. دعوا الليلة تفوت على خير..

برز رأس شيخ الغفر من وسط الإسطبل وصاح نحو المذود:

ـ تكلم يا جدع على كيفك.. وهات معك من يتكلم..

قال ذو الصوت الخشن:

ـ كيف؟.. ألاتريد أنت الآخر أن تنام؟!

ـ والله يا جدع لقد ضاع النوم من عيني.

ـ وما ذنبنا نحن؟!

هكذا قال ذو الصوت الخشن، فقال «شيخ الغفر» وهو ينهض جالسا:

ـ أصلك لا تعرف لماذا يهرب النوم من عيني؟..

ـ لا والله لا أعرف.

ـ تبقى إذن حيوانا.

ـ الله يسامحك يا عم.. نحن تعودنا على قلة الأدب.

ـ افهم يا حمار.

ودلق في صوته كثيرا من الود:

ـ ليس من صوت بجانبي.. لهذا لا أنام.. لا صوت يؤنسني.

ضحك «عمرو» وهو ينزع الجلد المحروق عن السمكة:

ـ هل أنت خائف يا شيخ الغفر؟!

ـ أي والله يا «عمرو» يا ولدي.. كل هؤلاء الناس ينامون لصقي.. وأخاف.. تتراءى لي أحلام مثل الزفت المغلي كلما أغمضت عيني.. مصيبة.. أحس أنني بلا رفيق في هذه الدنيا.

مصمص «طلعت» بشفتيه متعجبا:

ـ كل هؤلاء الناس بجانبه ويحس أنه بلا رفيق في هذه الدنيا.

وصفق ذو الصوت الخشن بيديه:

ـ هذا والله شيء لم نسمع به من قبل.. الناس تطلب الهدوء لتنام وشيخ الغفر يطلب دوشة الرأس.

ثم نهض جالسا هو الآخر يدعك ساقيه وركبتيه في ألم ويتأوه. وقال شيخ الغفر:

ـ والله لو أنك مرتاح البال لنمت.. لكنك أنت أيضا بلا رفيق في هذه الدنيا.. إنما أنت أصلك غرباوي وسخ.

تغاضى ذو الصوت الخشن عن «غرباوي وسخ» وابتسم لأن شيخ الغفر فهمه واعتبره مثله يمكن أن يكون له رفيق في هذه الدنيا، هو الذي ولدته أمه في الترحيلة وتركته يتربى وحده في الترحيلة. وبدا كأن كل هذه الرءوس كانت تنتظر من يدعوها للكلام، فارتفعت، وارتفعت معها أصوات كثيرة تقرض العيش المقدد، وتتكلم، فلا تعرف إن كانت تتعارك أم تتبادل الود.

الفصل الثامن

الارتحال وراء القاضي

ما سفر إلا سفر الحميري
يا سفر الجندي بلا خبيري
غربتنا يا زمن غراري
وسقينا بعد الحلا مراري
يا مين يبشرني على وليفي
طلع الجبل ولا سكن في الريفِ

(١)

صاح شيخ الغفر بعد أن لم يجد نوما كالعادة:

ـ اسمع يا شاطر.. أنت يا .. أخ يا تلميذ.

ـ قل له يا ابن القاضي وهو يرد.

فانتبه «طلعت» ورفع وجهه عن الصفحات ونظر في عمق الإسطبل.. كتل من الظلام تتماوج خلال ضوء مختنق. رد أخيرا:

ـ ماذا؟.. من يناديني؟

شوح «شيخ الغفر» نحوه صائحا:

ـ ما هذا الذي تمقق فيه عينيك؟ قصة عنترة أم الهلالية؟

فرد الباشخولي «عبد السلام»:

ـ سمعت التلميذ يقول لعمرو إن هذه القصة فيها لا أدري ماذا؟

فقال «عمرو»:

ـ فيها عمرو بن العاص.. وكلام كالذي نقوله هنا.

نهض «شيخ الغفر» واخترق الأجساد حتى وصل إلى المذود فاقتعده بجوار «عمرو» و «طلعت» وقال:

ـ اقرأ لنا يا عم.. أسمعنا.

وبدا لطلعت كأن أرض الإسطبل ترتفع وتصير في محاذاة المذود المرتفع، ورأى رءوسا لا حصر لها تستعد للإنصات.

فارتعش قليلا وبلع ريقه ثم اندفع يقرأ.

فقرة لعلها مهمة

اقتطعنا هذه الفقرة من كتاب دليل العمد والمشايخ والعاملين في الأمن العام والضبطية تأليف الأميرالاى علي حلمى مدير جرجا. ونهدف من ورائها إلى أننا قد نستفيد مما ورد بها من تعريفات.

صفات العمدة وشيخ البلد: أهم هذه الصفات التي يجب أن يمتاز بها هي:

أولا: أن يلم بواجباته العديدة المفروضة عليه.

ثانيا: أن يكون مطيعا لرؤسائه مخلصا في عمله.

ثالثا: أن يكون حافظا لكرامته وسمعته.

رابعا: أن يكون نزيها.

خامسا: أن يكون عادلا.

سادسا: أن يكون صادقا وأمينا.

سابعا: أن يتمسك بأهداف الفضيلة ومكارم الأخلاق.

ـ شيء يلخبط.

ـ فعلا يا شيخ الغفر.

ـ يا جدع قم لننام.. بلا وجع رأس.. وراءنا شغل من صبيحة ربنا.

ونهض شيخ الغفر وابتعد إلى حيث يفترش جواله بجانب المذود في الركن البعيد، ولم ينس أن يدوس ـ عامدا ـ على قدم، وربما رقبة من انتهز فرصة غيابه عن مطرحه وتمدد على راحته. وهنا ارتفعت الصرخات بدأت صرخة واهية، فكأنها موجة سريعة تدافعت داخل الإسطبل ومست في طريقها كل وجه ثم خمدت في الحال، وانتفضت الأجساد جالسة تدعك في عيونها وتتوجس. وكان «دياب» أول من صاح:

ـ اخز الشيطان يا طلعت ونم.

وتململ «الأعرج» وهمس في أذن دياب:

ـ ماذا يفعل الولد الذي من بلدكم؟

همس «دياب»:

ـ لا شيء.. لكنه سيثير لنا وجع الدماغ.

رفع «مهيوب» رأسه وصاح:

ـ نم يا طلعت.

ـ طيب يا جدي.

وقلب أوراقه على وجهها وسكت ناظرا في الفراغ، ونظر الباشخولي عبد السلام إلى عمرو وابتسم.

ـ إلى أين رحت يا عمرو؟

رد بصوت مبحوح:

ـ حاجة تمخول يا خال عبد السلام.. طلعت يقول لي: في هذه الأوراق كلاما كالذي نقوله.. أقصد مثل موضوعنا.. قضيتنا.

شرد «عبد السلام» لبرهة ثم شوح بيده في فروغ بال:

ـ كل قضايا الدنيا تشبه بعضها.. ومن يدقق يتعب. حدثت قلقلة. واقترب شبح الأعرج فنظروا إليه. وما إن اقترب حتى انقضت يده على الأوراق ورفعت منها حزمة.. ثم استدار عائدا. ومرت برهة حتى أفاق «طلعت» من ذهوله وصاح: «إيه.. الورق. هات الورق يا خال أعرج.. اعمل معروف هاته»، ونظر إلى «عبد السلام» و«عمرو» يستنجد بهما. لكنهما لم يفعلا شيئا، واكتفى «عبد السلام» بأن صاح في تريقة: «ماذا فعل الورق بك يا أعرج؟!» فضحك الأعرج من بعيد وصاح: «سأقبض الخواجة»، فإذا بضحكة عريضة تنفجر بين الأجساد المتمددة، إذ إن قبض الخواجة عندهم معناه قضاء الحاجة، ذلك أن الخواجة ظل يقبض منهم طوال السنين حتى لم يعد لديهم شيء يقبضونه له سوى خرائهم. انقبض صدر «طلعت» حيث عرف فيم ستستخدم هذه الأوراق قال الباشخولي وهو يضرب ركبتيه بكفه: يلزمك أوراق ما دمت ستقبض

الخواجة.. والله فكرة.. أنا الآخر أريد أن أقبض الخواجة.. ولكن أين أقبضه؟.. ليس في الإسطبل مكان.. على كل حال.. ليس هذا بجديد علينا.. كانت الخيول والبهائم تقضي حاجتها واقفة في نفس هذا المكان.. ونحن أيضا نفعل مثلها.. والله عجبتني يا أعرج في فكرة الورق هذه. وانقض على الأوراق فسحب هو الآخر حزمة.. فلم يستطع «طلعت» حبس دموعه.. فجمع ماتبقى من الأوراق وبرمها على شكل عامود ثم دفنها في عبه وتمدد في مكانه.. وفجأة امتلأ الإسطبل بصوت ضراط ورائحة فساء لا تطاق، وكان ثمة من يقولون في شيء كالتشفي:

ـ اقبض يا خواجة.. اقبض حتى تشبع.

(٢)

ربت «شيخ الغفر» على ظهر «طلعت» وسأله بلا مناسبة:

ـ هل صحيح أن أباك قاض؟

تفصد العرق على جبين «طلعت» وارتعشت على شفتيه ابتسامة واهنة ولم يعرف بماذا يجيب، فهو ليس متأكدا من شيء. على أن الجد «مهيوب» رفع رأسه من قرب باب الإسطبل واعتدل جالسا وصاح في الحال:

ـ نعم يا شيخ الغفر.. أبوه قاضي.. قاضي بحق وحقيق.

ونظر «شيخ الغفر» إلى «طلعت» متفحصا ومصمص بشفتيه في تحسر:

ـ وما الذي رماك على هذا المر؟

فتصاعدت عشرات الأصوات كالكورس:

ـ الذي هو أمر.

بكرة الأصوات راحت تكر:

ـ لاحول الله.

ـ من رأى بلوى غيره هانت عليه بلواه.

ـ الدنيا مليئة.

ـ اللهم لك ألف حمد وألف شكر.

ـ كده رضا.. إن زادت عن كده تفسد.

وكان «طلعت» قد راح يكره جده كره العمى، وهم بأن يصرخ، أن يضرب أحدا في وجهه، أن يهيل على الإسطبل كل طوب الأرض. لكن الباشخولي عبد السلام نهض هو الآخر واخترق الأجساد وجلس بجواره:

ـ بتروح المدرسة يا ولدي؟

جاء صوت الجد مهيوب في تفاخر:

ـ قلنا وسيأخذ الابتدائية بعد عام.. قلنا مائة مرة.

فزام صوت جهوري كأنه الكون كله. وساد الإسطبل صمت وقور، مقصود لذاته، كالصمت الذي يخيم على سرادق الجنازة فجأة حينما يظهر صاحب الجنازة قادما.. برهة طويلة مضت ثم بدأت مصمصة الشفاه تنتقل في جنبات الإسطبل.

فجأة اضطجعت العجوز التي سلقت شيخ الغفر ذات يوم، ثم عادت فاعتدلت جالسة ورفعت كفيها في الهواء متمتمة بشيء لم يتبينه أحد، فلما فرغت قالت:

ـ فكرتني يا ولدي.. الله يمسيه بالخير.

اعتدل «مهيوب» وكان أول من هب جالسا ملقيا بصره تجاهها في انتباه شديد في حين رفع «طلعت» رأسه مسلما سمعه لفم العجوز، التي قالت دون أن تشعر بهذا أو بذاك:

ـ أخاف أن يكون هو.

ثم شهقت.

ـ هو من؟

صوته فح بها ترددت له أصداء في أنحاء الإسطبل.

ـ أأنت ابن القاضي؟.. إذن فأنت ابنه.. يا حرام.. شفت الزمن.

ـ أنت من أي بلد يا ولية؟

هكذا شب «مهيوب» سائلا في ود:

ـ من صفط الملوك.

رفع ذراعه صائحا كأنه يبرئ نفسه في ساحة محكمة:

ـ رحتها.. أقسم بالله العظيم رحتها.

رمقته العجوز في تهكم حلو، صانعة من كفها مظلة على عينيها:

ـ إذن فأنت ذهبت إلى صفط الملوك؟

ـ نعم والله يا خالة.

ـ معذورة أن تظل عامرة حتى الآن.

رعد الإسطبل بضحكات غير متحفظة، انتهت بشخر وغنج شارك فيه حتى الجد مهيوب نفسه، وقال بلهجة حكيمة:

ـ صدقت والله يا خالة.. وهل أنت تقولين فيها؟.. إن الخراب يحل بأقدامنا.. ومتى ذهبنا إلى مكان وحل به رزق؟!.. لقد عاشرتك سنوات الترحيلة يا أم عبده.. واجتمعنا سويا في محطات الغربة الطويلة.. فما رأيت وجهك الصبوح في يوم في محطة غربة وأصابنا رزق.

فضحك عجائز الإسطبل ضحكة غير صاخبة، وشوحت العجوز قائلة:

ـ يا ه.. صرت الآن أبوكاتو.. ولو كنت فالحا ما ضاع منك القاضي.

قال الجد مهيوب مبتسما:

ـ لو كنت فالحا ما زوجتها منه أصلا.. لكنه النصيب.

وكان «طلعت» قد اعتدل ثم تقرفص مطرطقا أذنيه.

ـ لكنك لم تكملي يا خالة.

هكذا صاح ثم ارتبك وهبط ثانية فغاص بين كتفيه. قالت العجوز:

ـ كل واحد في بلدنا يعرف القاضي.. فهو ابن ناس طيبين.. صرف عليه أبوه حتى علمه وعلّى مراتبه.

هز الجد رأسه في تأييد باتّ:

ـ نعم هذا صحيح.. قالوا لي هذا وأكدوه.. ثم ماذا؟

ـ كانوا دائما يقولون: الوفد الوفد الوفد.

ـ من هم؟

ـ أهله وهو.. يمشون في البلد يزعقون: الوفد الوفد.

زام «مهيوب». صاح شيخ الغفر:

ـ تقصد الولية أن القاضي كان وفديا.. في حزب الوفد يعني.

أضاف الباشخولي عبد السلام:

ـ أبا عن جد.

ردت العجوز:

ـ ما أعرف.. لكنه كان دائما يخطب مثل فقيه الجامع.. ويلتف الناس حوله على الجسور وعند النواصي.. وفي منادر الذين يدعونه لذلك.. ولما صار قاضيا تزوج ابنة الباشا.

ضرب «مهيوب» رأسه بكفه صائحا في ألم مشروخ:

ـ قالوا لي هذا.. صحيح.. إنه من الكبار في البلد ما قلت في هذا شيئا وإلا ما زوجته حبة عيني.

ـ فلما تزوج ابنة الباشا.. صار باشا.

ـ باشا.. صار باشا؟

هكذا جعر «مهيوب» وانتفض «طلعت» من أعماقه وراحت أنفاسه تتسلق الوجوه والصدور والأكتاف حواليه.

ـ سعادة الباشا راح.. سعادة الباشا جاء.. من يومها وقف عن الكلام.. لاخطب ولا جسور ولا نواصي ولا: الوفد الوفد الوفد.. وقبلها كانوا يقولون في البلد: حضرة القاضي سيجيء بماسورة للمصرف، سيجعل الحكومة تبني جمعية في البلد لتشد حيل الفلاح، سيوظف الولد فلان والولد علان.. والحق لله ما رأيت مواسير ولا جمعيات ولا استوظف من أهل البلدة أحدا.

ضحك الإسطبل ضحكة خافتة قالوا بها الكثير. وتمخطت العجوز في طرف جلبابها وظلت ساكتة، فقال شيخ الغفر بعصبية:

ـ انطقى يا ولية.. قولي.. أنت مسلية.

ـ كانت نسوان عائلته يقلن بينما يتعوجن ويتقصعن: حضرة القاضي لم يعد يتكلم في البلد.. نعم.. ليس خوفا من أحد.. إنه بدلا من أن يتكلم في هذه البلد الكحيانة راح يتكلم هناك.. في وجه بلكونة مولانا الملك.. شفت كهن النسوان.

قال «دياب» فجأة بعد نوم طال أمده:

ـ أصلها بلد العميان بلدتكم هذه يا خالة.

ـ أصلها بلد الملوك يا روح أمك.

هكذا صفعته العجوز في الحال. وراح صوت دياب يتسلق صخب الضحك:

ـ صفط الملوك.. ها.. بلدة تتمسح في الملوك وأهلها جميعا تملية سل مل.

ـ افهم يا عبيط.. بلد التملية هذه أمك ماطالتها.. ما كان لمثل أمك أن تطولها.. ولذا فهي قد أنجبتك على أكوام السباخ في عشش الصفيح التي أنت منها.

ـ ناسها لايتخيرون عنك والله يا خالة.

ـ مع كل فبلدتنا هذه.. اسمع ما أقوله لك.. بلد الملوك.. أن تعيش فيها لا بد لك من ملك ترتديه فوق ثيابك أو تحت ثيابك وقت اللزوم.. كل واحد بفلوسه وعزوته يشتري ملكا على قده ليتحزم عليه ويطلق منه النار على من لايعجبه.

ـ ومن لايستطيع شراء ملك؟

ـ يجيء هنا ويؤانسنا في الإسطبل.

ـ ألا يستطيع الواحد أن يربي له ملكا وليدا.. يشتري له البرسيم أو يدرج به على القنيان؟ وفي النهاية يذبحه؟

كان ذلك هو «عبد السلام» وارتفع الضجيج، وصاح شيخ الغفر فيمن حوله وقد بدا على وجهه أنه يفتعل المرح:

ـ لي مزاج أن تكمل الولية ماتقول.. دمها خفيف على قلبي هذه الولية.

ـ أي والله يا شيخ الغفر.. دمها خفيف على قلبي أيضا ولكن آه لو تسكتوا.

هكذا قال «طلعت» بصوت عال.

ـ أكملي يا ولية.. هيه.. ثم ماذا؟.. أقصد.. كلمينا عن القاضي.

ـ يهمك القاضي يا شيخ الغفر؟

ـ يهمنا كلنا والله يا خالة.

ـ والله يا أخي أنتم ما يهمكم شيء في الدنيا.

ـ لماذا يا خالة؟.. نحن ناس.

ـ تقول الجد؟.. أنتم ناس؟!.. لم أكن أعرف.

ـ نحن ناس مثلك بالضبط والله.

ـ الله يسخطك.. عصا من إذن تلك التي شرخت ظهورنا؟.. عصاك يا شيخ الغفر أم عصا الشيطان؟

ـ عصا الشيطان والله يا خالة.. الله يجازيه.

كان هذا الأخير هو عبد السلام

ـ وأنت أيضا تتكلم؟ أين كرباجك؟.. نسيته؟.. إننا لم ننسه بعد.. أم أنكم نسيتموه يا أولاد؟

غمغمة وزئيط مضغوم.

ـ عبيد كلكم. لكن لا يا باشخولي، هذه الضهور كلها، أنا معك أنها أغلظ من جلد الجاموس. فمن طول ما انهال عليها من عصي وكرابيج وشلاليت وقحوف نخيل أصبحت لا تفرق بين لسع العصا ولسع اللهب المحرق.. إنما لا.. تعال اكشف أمامى ظهر أحدنا.. سترى حبالا غليظة من الدم الأزرق النيلة، تلتف حول ظهورنا مبرومة ومجدولة.. أستطيع أن أفكها حبلا حبلا.. وحينئذ تراها فتلا رفيعة.. أقول لك إن هذه الفتلة هي طرف كرباجك يوم دخولنا

الإسطبل، وهذه الفتلة هي بوصة شيخ الغفر يوم كان اللصوص يتهموننا بالسرقة. وهذه الفتلة هي خيزرانة الكاتب يوم لم تضحك له البنت الملاية، وهذه وهذه.. فكيف تكون مثلنا يا شيخ الغفر؟!.

ـ مثلكم والله يا خالة وأقل منكم.. هأنا وحضرة الباشخولي معكم في الإسطبل لا أحد أحسن من أحد.

ـ كيف يا ولد.. كيف تكون مثلنا وظهرك ليست كظهورنا أبدا.. أنت وأمثالك حديثو عهد بانحناء الظهور.. رقابكم فقط هي التي تعودت على الانحناء أمام أسيادكم حتى انكسرت..

ـ هذه الولية زودتها.

ـ دعها يا عبد السلام.. والله لقد انكسرت نفوسنا وصرنا مضحكة..

إنها تتكلم الحق فدعها تضربنا بالبلغة..

ـ لسانها يطول علينا يا شيخ الغفر.. لايصح هذا.. امرأة «غرباوية» كهذه لايصح أن تهزئ الواحد منا.. نحن أولاد بلد ولنا مراكزنا..

انفجرت العجوز ضاحكة، وكانت جميع العيون المحيطة بها تنظر في فمها الخرب فلا تعرف إن كان هذا الصوت الجهوري يخرج منه أم من فوهة بركان..

ـ لا أحد في هذه البلدة له مركز.. أفهم هذا.. حتى أولئك «المحاريس» الذين كانوا يعطونكم المركز هم أنفسهم لا مركز لهم.. افهم يا قلب أمك.

اعتدل الباشخولي جالسا في تحفز.. لكن تحفزه سرعان ما باخ وسلبت حرارته بفعل الضحكات التي شارك فيها حتى شيخ الغفر زميله في المحنة. اثنان لم يشاركا في الضحك: «طلعت» و «عمرو» إذ راح كل منهما ينظر في الآخر كان بينهما كلام غامض وشيء مجهول يثير لديهما قلقا مشتركا..

ـ هذه المرأة لن «تجيبها للبر».. لقد بدأ لسانها يطول على التفتيش أيضا..

وأشار الباشخولي بإصبعه نحوها كأنه يرشد البوليس عنها..

التفتيش سيدك أنت يا روح أمك.. أما أنا فليس له عندي إحم ولا دستور.. عمري الآن تسعون عاما بالتمام.. أضعت قواي كلها في أرض الوسية.. وأعطيت أولادي كلهم ـ وكلهم رجال ـ للسلطة.. السلطة أخذت من كل امرأة ولدا وأخذت مني قبيلة.. حفروا المصارف وشقوا الترع وبنوا الكباري.. وفي الآخر شربت أرض السويس دماءهم فصارت قناة تمر المراكب فيها.. كلهم ماتوا في السخرة.. فماذا أخذت السلطة من أبيك؟.. إنها أعطتك.. أعطتك عصا وأمرتك أن تضرب من ليس في يدهم عصي.. سلمناكم ظهورنا لكيلا تضربونا على بطوننا.. أنتم أيضا كنتم تعطون ظهوركم لأهل الوسية.. إنما نحن، إن مالت ظهورنا فرقابنا مرفوعة، لأنها ما مالت إلا للبذر والسقيا.. أما أنتم فأعطيتم الظهور بينما الرقاب منكسة.. ويعلم الله ماذا يفعل الواقفون خلف ذوي الرقاب المنكسة..

انتفض الباشخولي عبد السلام معتزما الذهاب إليها لتأديبها..

لكن شيخ الغفر تشبث بذيل ثوبه مذكرا إياه بفضيحة سابقة.. فتقرفص عبد السلام وهو يتلمظ وينفخ. ابتسمت العجوز.

ـ تفتري علينا حتى وأنت هنا.. ماذا تنتظر أن يفعل الله بك أكثر من هذا؟..

صفق كفا على كف في حيرة:

ـ والله ما أعرف كيف أتصرف مع هذه الحرباء التي لا تستحي.

ـ الحرباء لا تستحي من كلب مثلك يهز ذيله كثيرا.

فانتفض قائما وداس غير عابئ بتحذير شيخ الغفر، وما يدري إلا ودياب يقبض على ذراعه ويدفعه دفعة صغيرة بعيدة إلى مكانه في لمح البصر، فنظر إليه الباشخولي في غيظ وتهديد، فرفع «دياب» قبضته في الهواء وهزها بعدوانية شديدة.. فنكس الباشخولي رأسه في الأرض وسكت.. فرجع «دياب» إلى مكانه يبرطم بألفاظ غامضة أنهاها صائحا:

ـ تكلمي يا ولية على كيفك.. لا يهمك من أحد.. إنك في عمر جدتنا.. ولك الحق في أن تقولي ماتشائين.. نعم.. في الإسطبل نفعل ما نشاء ولا نخاف من أحد.. طول النهار نشوف الذل من الخولة والباشخولة والكاتب ومن الشمس أيضا..

خيم على الإسطبل صمت قصير لكنه عميق.. صاح «طلعت» والنبي يا خالة.. لم تقولي لى: ما اسم هذا القاضي؟

فصاح «مهيوب»:

ـ صحيح.. لم تقولي ما اسمه؟

ـ اللهم صل وسلم عليك يا نبي.. اسمه: خالد الشباسي.

ثم تثاءبت..

ـ خالد الشباسي؟..

ـ خالد الشباسي؟!.

ـ خالد الشباسي؟!

هكذا انتقل الاسم بين ثلاثة، ما إن تجاوزهم رنين الاسم حتى نظروا إلى بعضهم من بعيد كأنهم يتعرفون على بعضهم من جديد: الجد مهيوب وعبد السلام وشيخ الغفر. هتف «طلعت» في جذل:

ـ تعرفه يا عم؟.. هه.. تعرفه؟

لكن شيخ الغفر سرح بعينيه بعيدا: هه..

هتف الجد «مهيوب»:

ـ إنك تخرفين يا ولية.. هذا ليس اسمه.

أنت أدرى.

ـ قلت لك ليس اسمه.

ـ أنت حر

ثم شوحت العجوز..

ـ يجوز أنه قاض آخر.

قال مهيوب، لكنه أدار أصابع يمناه حول أذنه علامة الالتباس، ثم صاح فجأة:

ـ طب شكله ايه؟

رمقته العجوز على بعد:

ـ ليس طويلا ولا قصيرا..

ـ تلتين.. مضبوط.

ـ وجهه قمحي اللون.. لكنه يحمر حين يغضب وحين..

ـ يضحك.. مضبوط.

ـ في لسانه لدغة..و..

ـ بس

ثم وقف رافعا يديه

ـ هو.. عرفته من لسانه

وتنهد خافضا صوته في ألم:

ـ فهل يعقل أن يكون له اسمان؟

ـ يجوز..

ـ لأ.

ـ لعله نصاب..

ـ لأ.

ـ هناك من يحمل اسمين..

ـ لأ.

ـ فلان الفلاني وشهرته..

ـ لأ.

ـ إذن فأنت نسيت اسمه.

ـ كيف؟.. صغير أنا؟.. يتساقط لعابي على صدري؟

ـ دب يده في صدره، وجعل يرفع خرقة وراء خرقة، حتى تسللت كفه إلى الداخل وراحت تبحث وتبحث وعضلات وجهه تتقلص وتتقلص وتنعقد وتزحف التجاعيد من صدغيه وجبهته فتخفي عينيه، ثم خرجت الكف ممسكة بحافظة من الجلد بدت على البعد ثمينة رغم قدمها الشديد. فتحها وأخرج ورقة مطوية ففتحها ثم فك منها ورقة أخرى راح يفردها:

ـ هذه قسيمة الزواج.

.. وقربها من عينيه:

ـ لم أذهب إلى مدرسة أو كتاب.. ولكن هذه القسيمة علمتني فك الخط.. أليسوا يقولون: كثرة الحزن تعلم البكاء؟.. نعم.. أنا كنت أجري وراء لقمة العيش.. وصرت أجري وراء الاثنين في مشوار واحد..وكانوا جميعا حين أفرغ من سؤالهم يقولون. من؟.. فكان عليّ أن أفتح القسيمة مرات ومرات لأقرأ لهم الاسم والعنوان.. وكان لا بد أن أكون عارفا ومتأكدا أنني أنطق الحرف الصحيح..

غير هذا كان لا بد أن أعرف وأتأكد بنفسي ما الذي احتفظت به القسيمة لابنتي من حقوق رقبتها..

ثم انتبه، فسكت، وراح يدقق النظر في القسيمة وصاح واضعا إصبعه على الاسم:

ـ هذا هو «فريد أبو الشوارب».. اسمه هكذا.. «فريد أبو الشوارب»..

كأن ثعبانا متسللا قرص الباشخولي «عبد السلام» فصاح أي.. آه.. ثم شرد برهة، وردد:

ـ هذا الاسم ليس غريبا عليّ.. لكن.. أمعقول أن يكون هو؟

انتبه إليه أكثر من وجه، خاصة وجه «شيخ الغفر» ووجه «عمرو» الذي راح ينقل البصر فيما بين شيخ الغفر والباشخولي، في حين كان «طلعت» ينتفض بشدة، وكان «دياب» هو الآخر قد ظهر عليه الانتباه وراح يتابع، ثم إن رءوسا كثيرة تقاربت من بعضها، منحية بعض الأجساد جانبا.. فبدت كالأطراف المعنية.. فجأة قال شيخ الغفر:

ـ هذه الولية شحططت رأسي وراءها.. منك لله يا شيخة.

ونطق «عمرو» بلهجة ذات معنى:

ـ الكلام يجر بعضه..

وهتف الجد مهيوب:

ـ اسمعي يا خالة.. منذ متى لم تَرَيْ القاضي؟

ـ من عمر هذا الولد..

وأشارت نحو «طلعت» فانبرى «عبد السلام» بسرعة:

ـ ماسمعت عنه شيئا تحكينه لنا؟

ـ أختي «حمدة» تشتغل في دارهم.. وقبل هذه الترحيلة كنت في البلد، وجاءت سيرته، فقالت أختي «حمدة»:

الطلبة قتلوه..

أولاد المدارس يعني.. وأبوه قال: ابني طلق العاهرة ابنة الباشا.. يقول أصلها كانت عشيقة الملك.. ويقول أبوه ابني خائف من الملك والملك خائف منه.. وأختي «حمدة» قالت في أذني: القاضي دخل السجن؛ لأنه كان فيما يقولون يهدد الملك بالقتل.

فشمل الإسطبل سكون عميق، ثم تثاءب عبد السلام وعوى مثل الكلب حين يقال إنه شاهد عزرائيل.

(٣)

..تقاربت الـــرءوس. انتصبت الآذان. لكن الباشخولي «عبد السلام» ظل ساكنا لبرهة ران خلالها صمت متحفز مشحون. وكان شيخ الغفر يبدو مستعدا لفتح دماغ من يشوش عليهم هذه اللحظة، عاقدا حاجبيه مركزا البصر في فم الباشخولي كأنه يسمع بعينيه لا بأذنيه. وتمتم الباشخولي:

ـ من أول ما بدأنا نحكي عنه كأن لساني يتحرك لأقول:

هو الذي أعرفه. لكن لما رأيته، في المرة الثانية، قلت:

يا عبد السلام هذا هو القاضي الذي كنت رأيته في المحكمة وأنت واقف في القفص، في الحق لم أتأكد. أصله كان يجلس ووجهه للناس وأرى وجهه من الجنب فقط لأنني كنت في القفص وكان الأبوكاتو ـ الله يلعنه ويلعن أبوه ـ يدوش الدماغ، يخبط على الترابيزة وعلى كفه ويصرخ، ولم أفهم من كلامه شيئا، لكنه كان يشير بإصبعه نحوي أنا وشيخ الغفر وعمرو وأهل البلد الأبرياء وكل الذين يقفون معي في القفص، إنما كنت متأكدا أنه يقول علينا إننا لصوص وإننا نمص الدم من العروق وإننا سرقنا عرق الأنفار

في الليل من وراء العمدة، وكان القاضي ينشال وينحط ويغتاظ وينقر على الخشبة ويقول له: «يا أستاذ إن العمدة والأعيان كانوا يحتفلون بمقاول الأنفار والسهرة شغالة ودخان الحشيش يعبق البلد ولا بد أنهم كانوا سعداء بشيء دخل جيوبهم» فكنت أفرح بالقاضي لما يقول هذا الكلام، فأنظر إليه فلا أرى إلا أذنه وصدغه والشعر الأبيض وسلك النظارة يغوص بينه، وفجأة يرفع الأبوكاتو صوته ويشير نحونا ويقول إن الله أمر بشنقنا.. شغلني ابن الكلب عن رؤية وجه القاضي يومها. ولما خرجنا من المحكمة بضمان العمدة والعمدة بضمان التفتيش أحببت القاضي وجعلت أتذكر شكله فلم أستطع..

ووالله ما أعرف الآن إن كان هو قاضي المحكمة أو غيره.. لكن العمدة بعث يطلبني في الليل. ولولا أن اثنين من الغفر جاءا يطلبانني لما ذهبت ولا اعتبرت هذا العمدة الملعون. ليس من عادة العمدة أن يقول لأحد: اقعد ـ بل الويل لمن لايقف عند مروره أو لا ينزل عن حماره إن كان أحدهما مقبلا نحو الآخر. إنما هو في تلك الليلة قال لي: اقعد يا عبد السلام.أقول لكم الحق جلست. جاء خادمه ـ وهو غفير لايعرف الدرك ولا حمل البنادق ـ ووضع الشاي أمامي، نفس الصينية بأكوابها التي لاتخرج إلا للأكابر. وبنفسه راح يصب لي الشاى في الكوب وبزبوز البراد يصب في دماغي أفكارا غامقة مثل صبغة اليود فقلت لنفسي اللهم اجعله خيرا. كنت أعرف من الأول أنني كما قال لي الأبوكاتو والقاضي شاهد إثبات. ولما سألت: يعني ماذا شاهد إثبات؟.. قالوا لي.. «يعني أنت الذي رأيت الأنفار وهي تسرق». مع أنني لم أقل هذا، ولم أر الأنفار يسرقون

أكثر من خيارة أو حزمة فجل. ولما صرحت بهذا زغدني الباشكاتب في جنبي يومها وقال: يا ضلالي.. كل سنة نجيء بك لتبصم على هذا.. أنت باشخولي السراي وكنت تبصم على أقوالك كلما حدثت السرقات، وتشهد على أن الأنفار لصوص أولاد كلب سل مل.. هذه هي مهنة باشخولي السراي على الدوام.. فهل ترجع في أقوالك! لو امرأة ما رجعت في كلامها.. لولا أنه جلبابي الوحيد لكنت شققته حتى الذيل، إنما اكتفيت بقولي: يا حضرة الباشكاتب إنك كنت تناديني من أي مكان لكي أبصم.. وتقول لي ابصم فكل المشتغلين في السراي لا بد أن يبصموا على المحضر.. وكنت تقول لي بينما هم يصبغون إصبعي بالقلم الكوبيا: «ألست مسروقا أيضا! إنك من التفتيش، وسرقة التفتيش يعني سرقتك» فما كان من الباشكاتب ساعتها إلا أنه صار يصفعني ويضربني بالشلوت في حجرة الطلمبة وحدنا ويقول لي: «الجلسة في الغد، وأنت طول عمرك تشهد نفس الشهادة فكن رجلا واثبت على مبدئك وإلا حبستك المحكمة وقالت إنك نصاب.. لا بد أن تقول إن الأنفار خرجوا من الإسطبل في عز الليل وهجموا على دار العمدة وسرقوا حقيبة الحاج سليم وهربوا.. فإن قال لك القاضي كيف وأنت يا باشخولي أغلقت عليهم الباب بالقفل؟!. تقول: لقد خرجوا من بين سقف الجملون.. فإن قال لك القاضي وكيف رأيتهم وتركتهم؟.. تقول: لقد جروا فأطلقت النار عليهم لكنها لم تصبهم ولم أستطع اللحاق بهم» قلت له يا حضرة الباشكاتب تريدني أن أشهد زورا؟! فشخر لي، أي والله لقد شخر هذا الكحكوح فما نطقت، فشد إصبعي وصبغه بالقلم الكوبيا ثم لصقه على ورقة بيضاء وقال: «هذه الورقة

البيضاء هي أقوالك.. وإذا غيرت في أقوالك أمام القاضي تشهد عليك هذه الورقة» فلما طوى بصمتي ووضعها في جيبه ابتسم وقال: «صرت الآن رجلا بحق وللتفتيش أن يجعل باله منك ويعوضك» وأظن أنه قال أيضا: «وحين يعلم المقاول سوف يعوضك» وجاءت الجلسة وقلت أمام القاضي ماقاله لي حضرة الباشكاتب..فصاح الأبوكاتو: «شريكهم.. لقد والس على الأنفار ولا بد أنه أخذ حقه منهم» صرت أنظر إلى حضرة الباشكاتب فلم أجده في الجلسة، فرحت أصرخ وأقول: «مظلوم والله.. حضرة الباشكاتب هو الذي قال لي هذا».. فصار القاضي يضحك والناس كلهم يضحكون.

لفت الأيام والمحكمة لم تطلبنا، لذا خفت حين طلبني العمدة لوحدي، وخفت أكثر لما رحب بي، وخفت أكثر وأكثر لما صب لي الشاي بنفسه وقال: «تفضل يا سي عبد السلام» سي عبد السلام.. ذلك احترام ليس من ورائه خير. شربت شفطة وقلت: «خير يا حضرة العمدة؟». فأشعل سيجارته وأعطاني علبة دخانه كي ألف سيجارة. يا للمصيبة ماذا في الأمر؟ قال: «يا عبد السلام إني أقصدك في خدمة». أقصدك؟ وخدمة؟ من أكون يا حضرة العمدة حتى تقصدني في خدمة؟ ابتسم وقال: «أنت رجل ولا كل الرجال يا عبد السلام لكن الظروف لاتنولك». ربنا يخليك يا حضرة العمدة هذه شهادة لا تقدر بثمن. قال: «أصل الحكاية أنني وثقت فيك من دون الناس كلها.. حتى الغفر. وهم لا يعرفون شيئا عن الموضوع الذي سأكلمك فيه الآن». قلت في نفسي لا بد أنه ينوي شرا بحضرة الباشكاتب أو حضرة الناظر أو بواحدة من الزوجتين المعيبتين ويريد أن يسألني عن سر من الأسرار، ثم جعلت أفكر

في شيء يستحق أن أقوله ولا يعرفه إلا واحد مثلي دهس في قلب التفتيش، لكنه قال: «جاءني الليلة في السر ضيف لا أحد يعلم بمجيئه غير الغفير الذي استقبله بالركوبة عند المحطة.. أما غفيري فهو على ضمانتي ولسانه في محفظتي وأما أنت فثقتي فيك كبيرة». قلت له رقبتي فداءك يا حضرة العمدة وسرك في بئر مظلم. هز رأسه وقال: «عيب.. أتعرفني بك يا عبد السلام؟.. لكن ما علينا.. هذا الضيف عزيز عليّ مثل عيني.. وهو يريد أن يصل إلى بلدة قريبة هاهنا بيننا وبينها فركة كعب.. اسمها الحصة.. وطبعا.. لايصح أن أتركه يذهب إلى هذه البلدة وحده في عز الليل.. كما أن غفيري لايصلح لتوصيله».

دماغي لف يا جدعان. الغفير الذي قابله لايعجز عن توصيله لكن العمدة قال: «الرجل أصله من كبار القوم ومقامه أعلى مما يتصور خيالك ولا يريد أن يجلب لي وجع الدماغ في البلد» طيب، أحكمت أن يسافر الليلة؟. قال وهو يقرب فمه من أذني: «سعادة البيك له أقارب في هذه البلدة لم يروه من سنين طويلة.. ولأسباب يعلمها الله يريد أن يزورهم في السر.. يقولون إنها زوجته.. ويقولون ـ بيني وبينك ـ إنها امرأة يعشقها وتعشقه وإنها فلاحة فقيرة» فرأيتني أكره الرجل وقلت لنفسي والله مايستحق التوصيل مثل هذا الفلاتي. وإذا بالعمدة يمسكني من اليد التي توجعني. قال وهو يميل على أذني ثانية: «خلي بالك.. خدمة الناس لا تضيع هدرا..قدم السبت تجد الأحد قدامك.. أتفهم؟.. أنت في بلوى.. قضية ومحكمة.. هذا الرجل إذا انبسط منك سيخدمك.. سينجيك من هذه القضية» قلت له أيقدر حقا يا حضرة العمدة؟ فرجع بظهره

مشوحا في وجهي: «إنه المحكمة نفسها. إذا قال لجدرانها قومي من مطرحك تقوم في الحال» فجعلت أهرش في قفاي ولم أتكلم.

إلا والرجل يدخل علينا. طول بعرض كفرعون، البدلة السوداء والطربوش والشعر الأبيض حول أذنيه وسلك النظارة الذهب يغوص فيه، وتلك العقدة المفرشحة التي يعقدها الأفندية حول رقابهم. والعصا الأبنوس في يده، وفي اليد الأخرى شنطة من الجلد مثل شنطة المحضر والصراف والكاشف. قال وهو يشد سلسلة الساعة من جيب فوق سرته ثم ينظر في الساعة الذهب: «الوقت خلاص يا عمدة سيطلع علينا الفجر في الطريق» هب العمدة واقفا وأنا قبله. وظللت أرتعش إذ إن الرجل كان ينظر إليّ. قال العمدة: «خلاص يا سعاده البيك.. هذا الرجل المحترم سوف يوصلك.. إنه مثل أخي وأكثر.. فلا يكن عندك أي شاغل من ناحيته». نظر الرجل إليّ ثانية وابتسم وهز رأسه والعمدة يقول: «هذا هو خالد بك فريد أعز أعز أصحابى فلا تتركه إلا حين يأمرك.. مفهوم؟». فهززت رأسي وقلت.. مفهوم. ومشى الرجل فمشينا وراءه. وحين رأيت صدغه وسلك النظارة الذهبي والشعر الأبيض حلفت بالطلاق أني رأيته من قبل، ولم يطلع من بالي، وصرت أتذكر وأتذكر..

ظلت الركوبة تمشي طويلا داخل جنينة العمدة وأنا أترنح خلفها ويغرزني الظلام في طين الأرض المروية حتى طلعنا على الطريق الزراعي بين أشجار الجزورين فخلصت قدمي من الطين وفتحت صدري للهواء فتبختر الرهوان. من حسن حظي طلع القمر، فصرت أجري وأجري أريد ـ بس ـ أن أنظر في وجه الرجل لأتأكد من شكله، لكن الرهوان يسبقني فلا أرى إلا صدغيه من هنا مرة ومن هنا أخرى.

قال فجأة: «اقترب الفجر يا عبد السلام». شهقت، وحلفت بالطلاق مرة ثانية إن الذي يقول يا عبد السلام هكذا هو الرجل القاضي في المحكمة، وصوته ليس غريبا عليّ. قلت: «الفجر بعيد يا سعادة البيك». قال. «أنت وفدي أم دستوري أم سعدي؟». ففرحت لأنه كلمني هكذا، ثم إنني ضحكت، فعاد يقول.. «إوعى ما تكونش وفدي» ثم ابتسم. فجريت بجانبه ثم كشفت ذراعي وقلت: «أنا هذا يا سعادة البيك»، وجعلت أرفع سمانة ذراعي نحو عينيه ليرى. فإذا به يوقف الركوبة ويدقق النظر في سمانة ذراعى ثم ينظر في وجهي نظرة لم ينظرها أحد في وجهي سوى حضرة القاضي في المحكمة أول مرة وقفت فيها أمامه.. أشعل عود كبريت وأمسك بسمانة ذراعي وصار ينظر فيها ووجهه يضيء بالفرح ثم أطفأ العود وقال لي وهو يبتسم: «تعرف هذا الرجل الذي ترسمه على ذراعك يا عبد السلام؟». قلت: «طبعا يا سعاده البيك.. إنه سعد.. سعد زغلول:. فصار الرجل يربت على كتفي مثل أبي، ثم أخرج محفظته وأعطاني جنيها بحاله حتى صرت أرقص من الفرح.

ولقيتني أسأله: «عدم المؤاخذة يا سعادة البيك.. حضرتك من نواحينا؟. عدم المؤاخذة فأنا أريد أن أتشرف». هز رأسه وقال: «نعم يا عبد السلام أنا من هذه المديرية وبلدتي في الأصل هذه التي تختبئ في سعف النخيل ولا يبين منها سوى طرف المئذنة.. أرض العائلة زحفت عليها أرض الوسية وابتلعتها.. وطبعا يا عبد السلام أنت تعرف أن الملكة نازلي لما تزوجت الملك فؤاد أبوها صبح عليها بهذه المديرية كلها.. نعم.. في صباحية فرحها كانت المقتلة دائرة في بلدتنا.. أبي وإخوتي وأعمامي، بالفئوس والكريكات

والشوم والبلط والسكاكين.. وغفر التفتيش والهجانة والعساكر السواري بالبنادق والكرابيج والعصي.. مات من إخوتي من مات وجرح من أعمامي من جرح فلم نحزن إنما أكلتنا الحسرة على عمي الذي دخلوا عليه الدار وطعنوه بالخنجر وهو يصلي فمات راكعا فحلفنا جميعا ألا نركع لغير الله.. وقاتلنا حتى جاءت الدنيا كلها لتحكم، وجاء المفتش ودفع الدية ودفع ما قال إنه ثمن الأرض ولكننا لم نسكت.. فأعطونا بدلا منها أرضا في مديرية أخرى من أراضي طرح البحر كلفتنا الجلد والسقط»..

ذاك ما قاله الرجل والله يا إخوان. قلت في نفسي والله ما يكون هذا الرجل فلاتيا أبدا. وقلت له: «يا سعادة البيك العمدة يقول إنك عدم المؤاخذة.. لك هنا ناس.. أظنها امرأة أو..». فلم يتركني أكمل، وقال: «إن كان على الزوجة فأنا لي زوجة هنا في بلدة صغيرة في نفس المديرية سوف أذهب إليها بعد أن أنتهي من هذا المشوار». والرجل حكى أشياء كثيرة لست أذكرها كلها. أظنه قال: اسمع يا عبد السلام.. ألم تعرفوا بعد من الذي سرق عرق الأنفار؟. لا أعرف من أين جاءتني هذه الشجاعة، قلت في الحال: «مقاول الأنفار يا سعادة البيك» ابتسم الرجل، لا أظنه ضحك بصوت عال، وقال: «كيف حكمت بهذا يا عبد السلام؟». فقلت: «والله يا سعادة البيك ما يستطيع أن يفعلها غيره، وعلى فكرة يا سعادة البيك، هذا المقاول وضع عند العمدة حقيبة فارغة، وكان يعرف أنها ستسرق، فلما سرقت زعم أن بها عرق الأنفار». فإذا بالرجل يحتضن الحقيبة التي معه بخوف، وإذا به يضحك، ويقول: «اقتربت من الحقيقة ولكن ربما يكون ناظر الوسية هو الذي سرق». ووقف

شعري والله يا إخوان، ناظر الوسية؟ إنه صحيح يوالس مع المقاول، يأخذ نصف المقاولة ويقبل من المقاول أنفارا لا تنفع ولا تشفع، لكن كيف يسرق حقيبة كهذه؟.. قال الرجل وهو يشير إلى حقيبته: «سوف يتضح كل شيء عما قريب» صرت أنا أنظر إلى الحقيبة التي معه وأتعجب لماذا أشار إليها؟ وكنت أريد أن أسأله وتحرك لساني بالفعل، ولكن..

ومصمص «عبد السلام» بشفته وسكت..

ـ لكن ماذا؟..

هكذا ارتفع الصياح من حوله، حتى أنه انزعج، وصار يتلفت حواليه في خوف..

ـ لكن ماذا.. أكمل..

اعتدل «عبد السلام» وشرد بصره وزاغ:

ـ فجأة وجدناهم يقبلون نحونا من بعيد. كانوا ثلاثة. وكانوا يركبون الخيل.

قلت في نفسي: لا بد أنها دورية الليل. وقلت هذا للرجل. فلم يبد عليه الخوف مثلي، بل إنه ضحك ضحكة قصيرة وقال: «دع كل واحد وشأنه» فما كان مني إلا أنني التصقت بالحمار لأحتمي به. ثم اتضح أنها تشبه دورية الليل؛ ولكن يعلم الله إن كانت هي حقا أم هي دورية أخرى؟ إلا أنهم صاحوا قائلين: «قف مكانك» فلم نقف. فصاحوا ثانية: «قلنا قف مكانك» فلم نسمع كلامهم، والحمار الملعون صار يبرطع من الخوف، وما أدري إلا والرصاص ينطلق

مارا من فِوق رأسي بالضبط، فقلت جاءك الموت يا تارك الصلاة وأخذت أَهُرّ. وكان الرجل يصيح بي: «أوقف هذا الحمار»، وكان يرفع يده إلى أعلى، والحمار الملعون لا يريد التوقف. هب.. خطوة والثانية صار الخيل فوق رءوسنا. رأيت وجوههم. كانت وجوها مجرمة. فوقعت من طولي وادعيت الموت. أما هم فأمسكوا بالحمار، وصاح كبيرهم: «أتعبتنا يا رجل.. نحن نبحث عنك من مدة طويلة وأنت هارب من العدالة.. الحمد لله أنك وقعت في أيدينا» وضحك الرجل بصوت عال حتى كاد يقع من فوق الحمار وقال: «أنا؟.. أنا يا أخ أنت وهو لست هاربا من العدالة.. أنا هارب من أجل العدالة وأنتم الصادقون» فقال كبيرهم بتهكم: «ومن أنت إن شاء الله؟» فقلت في نفسي: والله ماهذه ألفاظ الدورية أبدا، إنها ألفاظ من بلدتنا وأصواتها أيضا أكاد أعرفها وإن كانت متنكرة في زى أفندية. وقال الرجل: «أنا العدالة، نفسها يا أخ أنت وهو.. وسفري الليلة من أجل العدالة.. معي قضية سوف أقرؤها في بلدتي على مهل وأكتب الحكم فيها على رواقة». صرخ كبيرهم كأنه ناظر الوسية بالضبــط: «لانأكل من هذا الكلام.. قل لنا من أنت أحسن لك» أخرج الرجل من جيبه أوراقا مدها نحوهم رأيتهم ـ وأنا ممدد على الأرض أبربش بعينى ـ يتلهفون على جذب المحفظة التي يخرج منها الأوراق. فلما رأيتهم منشغلين صرت أزحف حتى انقلبت في المصرف الجاف واختفيت بين أعواد البوص، وسمعتهم يتصايحون بكلام لم أفهمه وصار صياحهم يبتعد عن أذني شيئا فشيئا ولكنني لم أخرج من البوص إلا حين خرج الصبح من بوابة الفجر. ومن يومها لم أعرف ماذا حدث، وحتى العمدة

لم يسألني عن شيء بعد ذلك، بل إنه عاد من جديد لا يعرفني ولا يحترمني.

شوح بذراعه في الهواء علامة على أنه لم يعد عنده كلام.

ولكن الصمت ظل مطبقا لبرهة بدت طويلة..

وزام «شيخ الغفر» زومة طويلة عميقة، ثم مال على «طلعت» وقال كأنما ليحاول نسيان الأمر برمته:

ـ لقد نسيناك يا ولدي.. أرنا الآن ماذا تقرأ.. وكيف تقرأ..

ـ فبدا كأن الإسطبل ترتفع أرضه، لتصير في محاذاة المذود المرتفع. وكانت رءوس كثيرة مستعدة للإنصات بشغف. وراح.. «طلعت» يقرأ في طلاقة لم يكن عرفها من قبل أبدا خاصة في حصص المطالعة..

الفصل التاسع

جنون التفاصيل

أقسمت عليك أيها السم السموم
إن كنت في الدم تخرج إلى اللحم
وإن كنت في اللحم تخرج إلى العضم
وإن كنت في العضم تخرج إلى الجلد
وإن كنت في الجلد تخرج إلى الشعر
وإن كنت في الشعر تخرج إلى الهوا
بحق من هو على العرش استوى

(تعزيمة تلقى على الملدوغ)

أظن أنه قد آن الأوان لأن أنفجر، ولكن على طريقتي الخاصة، أو بمعنى أصح بقياس مهنتي: أكتب تقريري. أنا وكيل النائب العام الذي رزئ بمهمة التحقيق في هذه القضية الخرافية الواقعية المجنونة العاقلة.

في الواقع إنني لم أعد أعرف بالضبط إن كان ماحدث قد حدث بالفعل أم أنه مجرد كابوس ثقيل الوطأة. ومصدر الدهشة ليس في أن ماحدث قد حدث في قرية من قرى مصر، فهو بالنسبة إلى ماحدث من قبل وما قد يحدث من بعد شيء عادي تماما ويحدث كل يوم، ولكن مصدر الدهشة حقا، وما أصاب توازني من صدع حاد هو أن يكون هذا الذي حدث واقعا قائما في قرية مصرية على شمال الدلتا وسط برية من براريها، وفي سنة ١٩٥٠ على وجه التحديد، حيث تموج البلاد بتيارات سياسية وثقافية متعددة، وحيث قطعت البلاد شوطا هائلا في الدنو من الحضارة الغربية المعاصرة، حيث تتأهب البلاد لقفزة تنقض بها على قلب العدو فتخلص منه خلاص الأبد، وحيث قد توهم مثقفو هذه البلدة أنهم يقودون شعبا واسع الوعي والنطاق..

وحيث كنت أنا نفسي أتوهم أن أبناء بلدتي من الفلاحين والتجار

والحرفيين قد صاروا على وشك الوثوب على مقود الأمور في هذه البلاد.. إذا بي فجأة أراني أخوض في الخرافة خوضا، أكتشف قرية مصرية لم يصل إلى علمها بعد أن البلد لم يعد فيها سلاطين، وأن ملكا اسمه فؤاد قد توفاه الله وحل محله ابن له يدعى فاروق، ولم يصل إلى علمها بعد أن نظام جباة الضرائب قد انقرض، ولم يعد هناك مايسمى «بالكاشف» الذي يحصل الإتاوة لأفندينا. إنهم قبيلة من البشر تجمد بها الزمن تماما، حتى أنك وأنت تدخل بين أهلها وتتسرب إلى نفوسهم يخيل إليك أنك تتخبط في كهف طوله بلا نهاية وضيقه ضيق القبر. لهم أب واحد وصحبة واحدة، أما أبوهم المقدس فهو زعيمنا الخالد «سعد زغلول» هو ذلك الأب الذي ألقيت على عاتقه مهمة الخلاص لهم من كرباج الزمن الأعمى.. من مصاصي الدماء الغرباء وأذيالهم ومخالبهم الكامنة بين ظهرانيهم، ومن أجدر منه بالقيام بهذه المهمة؟! إن إيمانهم بقدرته فائق الحد، إيمان بعمق مأساتهم، وتحميله شاهق الأمنيات. ولهذا فما أشد مرارة المأساة في حلوقهم! وما أبشع الشعور بالفجيعة! لقد قالها سعد.. «لا فائدة»، ولم يكتف بقولها.بل قالها ومات. فانهارت بذلك كل آمالهم، وتهاوى كل نجم مضيء في الأفق، وصرت تراهم بلا مزاج وبلا رغبة في المعرفة وحتى بلا رغبة في إقامة الجسور بينهم وبين كافة الأفندية، فكل الأفندية في نظرهم أبناء المدينة الكافرة، وكلهم ينتمون إلى الحكومة وكل من ينتمي إلى الحكومة من قريب أو بعيد ليس أهلا للثقة بأي مقياس. إنه عدو لدود غير أنه مفروض على الواحد منهم أن يعتبره صديقا ماذا وإلا، وما الداعي لدوشة الدماغ؟ ليكن صديقا، وقد قالوا للكنيسة أسلمي

فقالت أسلم ولكن مافى القلب في القلب، ويا أيها الأفندي المبجل إذا ما استقبلك أهل هذه البلدة استقبالا حافلا مهيبا، وإذا ماصفقوا لك تصفيقا مدويا وهتفت حناجرهم في الثناء بذكرك فلا تظنن أنك قد صرت في القلب منهم وامتلكت النواصي..، لا.. رويدك.. وخفف من غلوائك فلعلك لم تخط من نفوسهم خطوة واحدة، بل إنني أقول لك: كلما بولغ في تبجيلك عليك بالتوقف فورا لمراجعة نفسك؛ لأن هذا معناه شيء من اثنين لا ثالث لهما..

إما اتقاءً لشرِّك، وإما اعتلاء لظهرك بكل سلاسة المكر الأصيل.

وأما الصحبة التي كانت تجمع هذه القرية أو هذه القبيلة فكانت تسمى «الوفد»، أؤكد لك أنك إذا حاولت معرفة أبعاد الوفد كحزب سياسي في نظرهم فلن تصل إلى شيء ذي بال، ولكنك ستجد أنهم اختاروا هذا الاسم رمزا لتجمعهم على مؤازرة الأب والانضواء تحت لوائه.

أعرف أنه ليس من حقي أن أكتب هذا الكلام هنا، فليس هذا مجاله. والمطلوب مني أن أكتب تقريرا أو مذكرة قانونية بما انتهت إليه هذه القضية شديدة التعقيد لشدة بساطتها. ولكن من لي بعقل قوي يستطيع استيعاب هذا الواقع ويظل فوقه. إن الانسان حين يصطدم بواقع كهذا لا بد أن يتساءل: كيف ظل هذا الواقع قائما حتى الآن؟!.. ومن المسئول عن ذلك؟! لا شك أن هناك من يستفيد من بقاء هذا الواقع على ما هو عليه، فهو لايمكن أن يكون نبتا شيطانيا، كرقعة عريضة من الحلفاء في وسط صحراء قاحلة، بل إن الشيطاني حقا هو تلك القوة العاتية التي ظلت مسيطرة على هذا

الواقع كل هذا الدهر فحولته إلى دهاء، وأقامت حوله سورا كالذي يقام حول حديقة الحيوانات غير أنها هنا حيوانات منتجة.

ليعتبر المشرع هذا الكلام لغوا، ليشطبه إن أراد، ليشطبني أنا نفسي من سجلات الميري، ولكنني لا بد أن أسجل هنا أنني فشلت في أن أكون قانونيا في نظرتي وسلوكي، ذلك أنني فشلت في فهم أبعاد هذه القوى الشيطانية العاتية التي تكمن خلف هذا الواقع والتي كدت أمسكها بيدي مسكا، والتي كنت أحس بما يقرب من اليقين أنني ريشة في يدها، وأنني سخرت أيضا لخدمة أغراضها، وأن دائرة التحقيق كلما توسعت امتد ضوؤها إلى آماد شاهقة ويجد الجد حتى يصير هزلا، ويتصاعد الهزل حتى يعانق الجد، وفي اللحظة التي يناوشك فيها اليقين بأن الأمر يجري بصورة عفوية تماما، يداهمك اليقين فجأة بأن الأمر محكم غاية الإحكام، وأن هذه العفوية نفسها مجرد قشرة لكنها سميكة كقشرة الأرض تحتاج إلى حفار آلي قوي إذا أردت الوصول إلى نبع المياه في جوفها.

تقرير

انتقلنا في مساء اليوم التالى لوصول هذه العريضة سالفة الذكر، ومعنا تصريح من النائب العام بتفتيش بيت شيخ البلد وحديقته. أخضعنا البيت كله لتفتيش دقيق، وبدون شوشرة في الأول، كانت الرغبة في معرفة التفاصيل قد وصلت بي إلى حد الجنون، حتى خيل إليّ أن كل شيء تقع عليه عيني أو تسمعه أذني لا بد يحتوي على تفاصيل غامضة لو كشفت عنها لاتضحت حقائق غير التي نعرفها

هنها. وأحس أنني تحولت إلى أعين لا حصر لها ترقب وتراقب ولا تمل ولا تكل وليس ببعيد أن يصيبني جنون حقيقي إن لم يكن قد أصابني بالفعل.

أدهشنا أن وجدنا البئر المشار إليها في العريضة المثبتة موجودة بالفعل غير أنها كانت خالية من كل شيء سوى الفراغ. كانت مغطاة بصخرة عريضة مربعة لكنها متليسة بطبقة من الطين مغروس فيها بعض الحشائش المصفرة، إلا أن الصخرة حينما تغطى البئر تلتصق بقشرة الأرض التصاقا تاما حتى يصبح من الصعوبة اكتشاف علائم تدل على أن هنا فتحة بئر. ولو ترك الأمر لخبرتنا التفتيشية لعجزت كل العجز عن اكتشاف موضع البئر. ومما أثار دهشتنا حقا أن شيخ البلد وهو يسير خلفنا حاملا المصباح بنفسه قال:

ـ لعلكم تبحثون عن البئر؟

فأحسست بمحاولاتي تبوخ. قلت له:

ـ طبعا نبحث عن البئر.. فأين هي؟

تقدم بضع خطوات، صاح آمرا أحد الأولاد بأن يرفع الصخرة. ففعل. هبطنا جميعا إلى الأرض بواسطة سلم مبني نميل برءوسنا داخل البئر وشيخ البلد يغوص بالمصباح في جوفها ليرينا عمق ما فيها من فراغ. خليط من الروائح النفاذة يتصاعد من البئر تشي بأن البئر تستخدم في تخزين أشياء كثيرة ومتنوعة. رحت أتلفت حوالي مداريا سخريتي من نتيجة التحقيق، ابتسم شيخ البلد وقال إن هذه البئر تجر عليه كثيرا من المتاعب؛ ولهذا فهو ليس عبيطا حتى يخزن

فيها شيئا مهما، فضلا عن أن يضع فيها شيئا كالذي «فى رءوسنا» ولم نكن قد أشرنا له بعد عما في رءوسنا. فصحت فيه:

ـ ماذا تعني بما في رءوسنا؟!..

ابتسم كثعلب عجوز مراوغ.. قال مشوحا بذراعه في الهواء:

ـ أي شيء يا بيك..

صرخت فيه آمرا إياه أن يكف عن المراوغة ويجيء صريحا معتدلا. رسم على وجهه سذاجة بريئة، قال في مسكنة:

ـ يا بيك إنكم لم تجيئوا هنا من الباب للطاق، ولم تحضروا أيضا للفسحة أو للتفرج على بئر أثرية كهذه.. فلا بد أن البئر ليست هدفكم وحدها.. شيء معين في جوف البئر قيل لحضرتكم إنه موجود، فجئتم تبحثون عنه.. أليس كذلك بالذمة يا بيك؟!.. هه هه.. شرفتم والله يا بيك.. عودوا كي تأخذوا الشاي قبل أن يبرد.

نظرت إليه في غضب وحقد. أضاف:

ـ أما هذا الشيء الذي تبحثون عنه فلا أعرفه أبدا.. وسبق أن قلت هذا من قبل.. ثق في شخصي يا بيك؛ فأنا لست صغيرا، ثم إنني لست من الرعاع.

وكان لا بد أن أسأله عن قصة هذه البئر والحكمة من إنشائها. في اللحظة التي أوشكت فيها على النطق بالسؤال اقترب شيخ البلد مني وقال بلهجة الهمس رغم علو صوته: إن هذه البئر من الموروثات المهمة بالنسبة للعائلة، مثل البيت والأطيان والحديقة بل ولقب العائلة نفسها.. فهي تدل ـ فيما يزعم ـ على عراقة ما،

وعلى أن العائلة كانت تتميز بإمكانيات خاصة. وأضاف ـ بينما يتمخط ويمسح فمه وذقنه بطرف كمه الواسع ـ: إن ردم هذه البئر جريمة كبرى في حق العائلة وهو ليس بمجنون حتى يفكر فيها لأنه إذا ردمها فمعنى ذلك أنه ـ ببساطة ـ يردم اسم العائلة.

* * *

دخلنا المندرة، دار حول نفسه في فراغها وصفق كفا على كف، قال وقد أحسست أن صوته أفلت منه:

ـ منه لله العمدة.. شكوته للذي لا يغفل ولا ينام.. لكن بإذن الله ربنا سينتقم منه.

واستدار إلينا ثانية وبدا أنه تذكر وجودنا.. أشار إلى الكنب قائلا..

ـ تفضلوا يا بيك لتستريحوا..

كنا بالحق متعبين. جلسنا. جاءني إحساس بأن سبه للعمدة على هذا النحو أمر يجب أن يبحث جيدا. انتهزت فرصة شروده فربتُّ على كتفه وقلت..

ـ هون عليك.. ربنا كبير..

قال بلهجة جهيرة:

ـ معلو.. و.. و.. م

ثم تناول صينية الشاي وقدمها لي. أخذت كوبا وأومأت لمن معي ألا يمانعوا في شرب الشاي. قلت بلهجة ودية خالصة:

ـ ماله العمدة.. عامل فيك ايه؟!

انطلق يسب العمدة سبا صريحا غليظا ومغيظا؛ الأمر الذي جعلني أتراجع بظهري لأستريح قليلا:

ـ لا بد أن في الأمر شيئا يغضبك على هذا النحو؟

صمت قليلا.. اندفع فجأة وبلا تمهيد:

ـ تصور يا بيك.. هذا الرجل.. يـ.. يتهمني بسرقة الحقيبة؟

ـ كيف يا شيخ البلد؟

ـ هذا ماحدث.

ـ هل لديه دليل على ما يقول؟

ـ أتحداه..

ـ فكيف إذن يتهمك؟!

ـ رجل لايستحي.. نعم.. هو رجل لا يستحي وكفى.

ـ لكن لا بد أن هناك سببا دفعه لهذا الاتهام؟

ـ مجنون يا بيك.. هذا كل مافي الأمر.

ـ وكيف بلغك أنه يتهمك؟

ـ في الأول سمعت الخبر من بعض الناس.. كذبته.. أبقيت على الود والزمالة في الحكومة .. وفي ليلة.. فوجئت به يصارحني.. يسألني إن كنت بالفعل قد تصرفت في الحقيبة من خلف ظهره..

ـ هل كانت الحقيبة في بيتك أم في بيته؟

ـ كانت في بيته هو.. في حجرة الكرار.

ـ فكيف إذن يتسنى لك حرية التصرف فيها؟!

ـ إنك يا بيك لا تدري.. عدم المؤاخذة.. كم هو خبيث ولئيم!.. لقد ظن أنني..على حسب قوله.. أردت حماية الحقيبة فأرسلت في السر من يقوم بنقلها من بيته إلى بيتي..

ـ ولماذا في السر؟!

ـ حتى لا يعارضني..

ـ هل كانت مسألة إخفائها أو حمايتها أمرا مطروحا بينكما؟

ارتبك قليلا. اصفر لونه. بلع ريقه. تلعثم:

ـ هه.. ا.. آه.. إنه يفترض هذا.. أو.. لا أدري..

ـ وما الحكمة في أن تهتم بها لدرجة أن تفكر في نقلها إلى بيتك؟

ـ لم أنقلها والله يا بيك.

ـ أقصد حسبما يقول العمدة.

ـ إنه يقول الكثير.. يخرف كما يشاء..

ـ لكن لا بد أنك كنت مهتما بأمرها..

ارتبك ثانية. شفط من الشاي رشفة قال بعدها:

ـ أرجو أن يعجبك الشاي..

ـ ممتع يا شيخ البلد.

ـ بالهناء والشفاء.. أخشى أن يصد نفسكم عن العشاء.

ـ عشاء ماذا؟!

ـ عما قليل ينتهي الأولاد من تجهيزه.. أسرعوا يا أولاد.

فكرت في الاعتراض، لكنني أحجمت. فأنا في الواقع لم أعد وكيلا للنائب العام، على الأقل في هذه اللحظة، أنا رجل جن بالبحث عن التفاصيل بأي ثمن، لقد شاءت ظروف العمل أن تضع رأسي برأسها فتوصلني ـ وأنا لم أتجاوز أبجدية العمل ـ في قضية كهذه ليست فحسب معقدة بل هي في نظري تصلح للفرجة أكثر مما تدعو للتحقيق. قد يكون قولي هذا دليلا على عجزي من الناحية العملية، أو دليلا على سذاجتي كشاب لم تضعه الحياة في تجربة خشنة من قبل، ولكن المهم أنني صادق مع نفسي ولا يعنيني إن كان تقريري هذا في صيغة قانونية أم همجية، إنما الذي يعنيني بحق هوأنني أجرب محاولة الوصول إلى الحقيقة بأسلوبي الخاص، غير مرتد ثوب النيابة وإن كنت أحتمي بدرعها.

خلعت حذائي وتربعت فوق الكنبة فانبسط شيخ البلد غاية الانبساط.. بدأت أتحدث في كثير من الأشياء التافهة، عن صعوبة الحياة، عن الأحزاب، عن التفتيش، الملك أفندينا، الضرائب الباهظة. بل أطريت ذوق شيخ البلد في اختيار جلبابه وامتدحت صوفته الإنجليزي. وحدثني هو عن حضرة المأمور وما تفعله بهم

زياراته الليلية المتكررة والمفاجئة. وكان المأمور قد ميل على الكنبة المجاورة وارتفع شخيره فجأة مثل تلاطم السحب في يوم شتوي عاصف. ونظر إليه شيخ البلد وابتسم ومال عليّ كأنه يحتضنني بشرف عظيم، قال:

ـ يدوخنا والله يا سعادة البيك.. يحضر في الفارغة والملآنة.. وأحيانا بلا سبب واضح.. إلا أننا نكتشف في آخر الزيارة أن الكسكسي قد وحشه خصوصا مع البط المحمر في السمن.. ثم راح يحدثني عن زوجة الناظر التي تحكم التفتيش وزوجة الباشكاتب التي تحكم البلد. وقال إن هاتين السيدتين هما كل شيء في هذه الناحية كلها ولا سلطة تقف أمامهما في المديرية..

السبع ورقات المنجيات

الورقة الأولى:

جاءت الطبلية العريضة وتقرفصت أمامنا، ثم تبعتها صينية نحاسية. أعرض منها. توالى دخول وخروج رهط من الرجال كل يعمل شيئا. كان ثمة «ريس» لهؤلاء جميعا، أخذ يلقي الأوامر لهذا وذاك، ويختصر طريق القادمين بالأطباق فيأخذها عنهم ويضعها بعناية. كانت طقوس الوليمة جديرة بأن تحظى بانتباهي، لولا أن هذا الـ «ريس» شغلني بكثرة النظرات الموجهة إ'يّ، فلقد أحسست أنه يتصيد عيني ليركز البصر فيها بشكل بالغ اا صرار والإلحاح،

وكلما وجه ملاحظة إلى حامل طبق أعقبها بنظرة إليّ كأنه يريني مدى اهتمامه بي وبشهيتي.

رأيت أن أبدأ معه حوارا ما. طلبت منه أن يدعو رجالنا للمجيء من خارج الحجرة والجلوس معنا فنحن جميعا واحد. ورجالنا الذين قصدتهم ليسوا سوى شرطيين ومخبر سري، وكانوا قد تخلفوا عند دخولنا المندرة تحرجا من الجلوس في حضرة وكيل النيابة والمأمور وضابط المباحث في غرفة واحدة. إلا أن الرجل نظر إليّ نظرة أولاد ليل فاجرة. ثم صاح قائلا مع هزة من يده:

ـ لا تحمل هم الرجال يا بيك. فلهم طعامهم.. ثم إنك صدقت في أننا جميعا واحد.. تعجبني والله يا سعادة البيك.

لم أسترح لمنظره أو لهجته. قدرت أنه يستهدفني لسبب ما. ولربما أراد أن يبلغني شيئا ولذا فهو يقوم بتوسيع الطريق لي. قررت بيني وبين نفسي أن أعطيه الفرصة ولكن دون أن أكون البادئ بها جهرا. قال شيخ البلد:

ـ تفضلوا يا أسيادي.

ثم نظر إلى المأمور، ونظر إليّ برجاء أن أتولى إيقاظه، ففعلت، ورغم أنه كان جسدا ميتا لاحراك فيه يتصاعد منه فحيح أجوف مصحوب بقلاقل رعدية إلا أنني ما كدت أشرع في إيقاظه حتى رأيته ـ ولا أدري كيف ـ قد تربع أمام الصينية قبل أن أتأهب أنا للسير نحوها. حينئذ رمقني شيخ البلد بنظرة ساخرة أرغمتني على الضحك بصوت عال..

تحلقنا الصينية.. شمر شيخ البلد ذراعه وضرب يده عدة ضربات هنا وهناك أفسد بها الأشياء في الأطباق ـ إشارة للكرم ـ ثم حركها تجاهنا، ثم قال بلهجة بدت لحظتها كإيقاع موسيقي ثابت فيما بينهما على الدوام:

ـ بإيدك يا حضرة المأمور.

شمر المأمور ذراعيه، دب يديه في الإوزة الكبيرة المحمرة ونزل فيها تفسيخا وتفصيصا حتى خلص لحمها من العظام بدربة فائقة، ثم هز يديه بحركة من ينفضها من المسئولية ويعلن أن كل واحد مسئول عن الكمية التي يحتاج إليها.. ثم نشطت الملاعق كسيوف تنطلق من قلعة حصينة.

فى الحق كان من الطريف أن أستمتع بمشاهدة هذه العملية التي يقودها المأمور في استبسال كبير. لكن الرجل الذي يحوم حولي ويحاول أن يحكم السيطرة على انتباهي أرغمني على مد جسر جوي بالغ السرية فيما بيننا. وكنت جائعا، إلا أن منظر المأمور وهو يبدو كمن ينتقم من عدو مجهول، ومتابعة شيخ البلد له في انتباه جعلني أحس فجأة بفقدان الشهية.

نهضت واقفا. في لمح البصر فقفز الرجل أمامي في فرح صبياني ووضع الفوطة على كتفي وتقدمني قائلا:

ـ تفضل يا بيك.

مضيت خلفه حتى نهاية المندرة. وصلنا إلى ركن قصي مجاور للباب حيث يوضع الطست والإبريق. انحنى الرجل متناولا الإبريق.

وانحنيت فتناولت الصابونة. راح يصب الماء على يدي في احتراس شديد. أخذت أتلكأ حتى أعطيه فرصة لمحادثتي. فوجئت بأنفاسه تقترب من رقبتي، ثم بصوته يسرح داخل أذني:

ـ إنك طيب يا بيك وابن حلال كما يبدو عليك..

قلت:

ـ كتر خيرك يا عم.. أنت الأحسن.

تلفت حواليه في تلصص. مال على أذني هامسا بصوت مرتعش ذي رهبة كادت تربكني:

ـ أنا محتاج لك يا سعادة البيك.. محتاج لك.. أريدك أن تأخذ لي حقي من هؤلاء الكفرة.. ربنا بعتك لي.. ربنا فوق وأنت تحت.. أنا وقعت من السماء وأنت تلقفتني.

اقشعرت رقبتي. ارتعشت قليلا:

ـ ما الحكاية بالضبط؟!

ـ لا بد أن أجلس مع جنابك بعض الوقت.. لكي أحكي لك الحدوتة.. اعمل معروف يا بيك.. اقبل أن تجلس معي ولو برهة على انفراد.. ولا تجعل شيخ البلد يعرف شيئا..

تشبثت بمظهر عدم الاهتمام. قلت:

ـ دبر لي لقاء بمعرفتك.

همس في أذني:

ـ تعرف من الذي قتل «جمعة المؤذن»؟

التصقت قدمي بالأرض. ترنحت الأفكار في رأسي. خرج السؤال من صدري كالفحيح:

ـ من؟..

ـ أنا..

ـ أنت؟.. تقول أنت؟..

ـ نعم أنا..

هكذا ببساطة؟..

خيل إليّ أن كل الدماء التي في عروقي تصعد إلى أذني.. هل كان من الأوفق أن أصدر حكما بالقبض عليه في الحال.. لقد خشيت أن يجيء ذلك على حساب كثير من المعلومات التي يمكن أن أستفيد بها. إن القضية الآن لم تعد مجرد قتل المؤذن «جمعة الحصاوي»، إنما هي قضية بلدة بكاملها تعرضت للسرقة دفعة واحدة في بضع ساعات، حتى حكامها تعرضوا للسرقة أيضا، أو هكذا زعموا، والحق أنني لم أعد قادرا على تنظيم التحقيق، على رسم هيكل شكلي له على الأقل في رأسي، فهل أحقق في مقتل «جمعة المؤذن»؟ أم في السرقة التي تعرض لها الأهالي؟ أم في سرقة الحكومة نفسها؟ أم في ضياع عرق الأنفار؟. المؤكد أن كل هذه الأشياء متشابكة، وأي طريق إلى أحدها يؤدي بالضرورة إلى لب القضية برمتها؟. ولكن هل تراني أترك هذا وذاك وأحقق فيما هو أدهى من ذلك.. وهو أن حكومة البلد نفسها متهمة بالسرقة أيضا؟. وذلك من واقع الأوراق التي يضمها هذا الملف العجيب؟..

مهما يكن من أمر فإن هذا الذي أدلى بهذا الاعتراف الآن بهذه البساطة موجود تحت يدنا ويمكن التحفظ عليه..

أعدت مسح يدي بالفوطة للمرة العشرين ربما. وسألته بسرعة وبصوت خافت:

ـ وقتلته ليه؟..

ذاب جسده الفاره في صوت باك حزين:

ـ منهم لله يا بيك.. أوقعوني في المصيبة من غير ثمن..

ـ من هم؟

ـ الأسطى فانوس..

ـ من؟..

ـ الأسطى زفت.. بلا مؤاخذة..

ـ الأسطى فانوس هو الذي جعلك تقتل جمعة المؤذن؟

ـ هو يا سعادة البيك..

ـ ما السبب؟

ـ لا أعرف.. ولكني قتلت.

ـ ولماذا رضيت بقتله؟

ـ الغلب يا سعادة البيك..الدنيا الوسخة.

أقبل المأمور كالعربة الكارو يزيق بحذائه الميري ويزدرد بقايا

الطعام في فمه. تذكرت أنني لم أعرف اسم هذا الرجل. قلت له قبل أن يبتعد خلف المأمور:

ـ متشكر يا ..

ـ خدامك إبراهيم.. إبراهيم السيد عبده.

ـ عاشت الأسامي..

وعدت إلى جلستي فوق الكنبة أحاول تجميع رأسي الذي تبعثر.

الورقه الثانية:

انتصف الليل تقريبا، بدأ شيخ البلد يفقد الأمل في انصرافنا، وبدأت ألحظ توتره الخفي، وأدرك كم هو رجل حصيف محنك ليس من السهل أن يهزم، وليس من اليسير أن ينفعل. اعترت المأمور لحظة نشاط مفاجئة. راح يكثر من الوقوف والذهاب إلى دورة المياه. أخيرا تربع بجواري. همس في أذنى قائلا:

ـ أظن القعدة وافقت هواك..

لم أرد، ربما لخوفي من التسرع في الرد، وأنا في أعماقي ميال للبقاء ولا أريد إظهار السعي إليه. إلا أنه عاجلني قائلا ـ كأنني وافقته على رأيه ـ:

ـ تعجبني.. أنا أحب الشبان المفتحين مثلك وأحب الشغل معهم.. بإخلاص ونية صافية..

ثم صمت برهة وأضاف:

ـ ولا. نظرتي ليست في محلها؟!

أفهمته بحركة من رأسي أنني راض عن كل ما يقول ويفعل، فانبسط وجهه واخضوضر شاربه في ضوء وهج الوابور ذي الإيقاع الهادئ الأليف. حياني بهزة من رأسه كأنه يرحب بي لأول مرة في حياته، وقال بصوت فيه غنة رجالية ممجوجة:

ـ يعني.. صافى يا لبن؟..

آثرت هز الرأس تجنبا للدخول في كلام. بحركة مسرحية متقنة زحف رأسه نحو شيخ البلد وضرب له حاجبه الأيمن ضربة كدت أسمع لها صوتا، ابتسم شيخ البلد كأنه يتنهد بعد مجيء الفرح وانحنى في جلسته تجاه الباب صائحا بلهجة آمرة مبتورة الإيقاع:

النار يا ولد..

* * *

و...

تهت. لا أدرى كيف تربع «المنقد» والتفت حوله كتيبة من الحجارة صفت على رقعة عريضة من الخشب. كنت قد سرحت سرحة فارغة من المحتوى. لم أفق إلا وظل عود غليظ يزحف على الحائط المجاور لي. كانت بوصة الجوزة تلمس شفتي. اعتذرت. فلما انزعج المأمور من اعتذاري أبديت عدم اعتراضي على ما يفعلون، وسحب «إبراهيم» الجوزة من شفتي المأمور وغمز له قائلا بلهجة ذات معنى:

ـ ايه رأيك في التعميرة دي يا حضرة المأمور؟

كتم المأمور نفس الدخان في منخاريه وسربه على مهل، وقال كأنه على علم سابق بها:

ـ جميلة فعلا.. بس يا خسارة.

ونظر لي إبراهيم وغمز بعينه. ويبدو أن المأمور لحظه، فمال نحوي قائلا:

ـ تعرف تعميرة من هذه؟

ـ لا والله لم يحصل لي الشرف..

ـ هذه هي تعميرة الحاج سليم.. التي كانت في حقيبته.

ـ الحقيبة المسروقة؟

ـ اسم الله عليك..

ـ !!..!!..!!..

ثم انفجرت ضاحكا. لكنني لم أستطع منع نفسي من السؤال:

ـ وكيف وصلت إليك يا حضرة المأمور؟

فأشار بيده وهو يقتطع التعميرة بمزاج ويضعها فوق الحجر:

ـ البركة في شيخ البلد..

ـ شيخ البلد؟!

ارتبك شيخ البلد، تململ، قال في هدوء منقطع النظير.

ـ أنت الآن يا حضرة المأمور ستجعل سعادة البيك يشك فينا بحق وحقيق.

قلت بلهجة حاولت ألا تكون جادة:

ـ أنا أحب أن أعـرف كيف حصلت على هذه التعميرة.. الجيدة..؟

أشار بدوره إلى إبراهيم، قال:

ـ هذا الولد الملعون.. أصله كان حاضرا ساعتها.. الحاج سليم أعطاه تموينه..

ـ أنت إذن تعرف الحاج سليم جيدا يا إبراهيم؟

نهض إبراهيم، راح يسيخ الجوزة ويدلق ماءها الأصفر على الأرض:

ـ لا وأنت الصادق يا شيخ البلد.. الذي أعطاني التموين هو الأسطى فانوس..

ـ أعطاها لك من جيبه؟

هكذا قلت بسرعة. فرد إبراهيم:

ـ ليس في جيبه شيء طبعا.. لقد فتح الحقيبة وأخرج منها كيسا.. أعطاني منه قطعة وشال الباقي تحت فخذه..

ـ معنى ذلك أن الحقيبة كانت ملآنة بالحشيش والأفيون؟

ـ لم أر..

ـ تقول إنه فتح الحقيبة أمامك..

ـ لم يفتحها.. قل إنه رفع الغطاء وسرب يده إلى داخلها ثم أخرجها بالكيس.. فلم أر ما بداخلها.. الحق لله..

ـ وأين وضع الحقيبة؟

ـ مكانها في الحجرة.. في دار العمدة..

ـ وأين كان العمدة ساعتها؟

ـ كان حاضرا أيضا..

ـ والحاج سليم؟

ـ كان موجودا هو الآخر..

ـ وكان يوافق على مايحدث؟

ـ وماله هو؟.. يوافق أو لا يوافق؟..

ـ إن الحقيبة حقيبته..

ـ لم تكن حقيبته.. الأسطى فانوس أخرج الكيس من حقيبته هو..

ـ الأسطى فانوس هو الآخر له حقيبة؟

ـ طبعا.

ـ سرقت هي الأخرى يا ترى؟

ـ الله أعلم.. السرقة هذه.. الله أعلم بها..

ـ لكن لماذا يعطيك الأسطى فانوس هذا الكيس؟

ـ كل واحد يشتغل في المشروع يأخذ حقه..

ـ أي مشروع؟

ـ مشروع النقل..

ثم ضحك عاليا وبطريقة ضايقتني. تمنيت لحظتها أن يكون هذا الحوار في حالة رسمية، إذن لأمرت بضرب إبراهيم حتى يبين له أصحاب. إلا أنني حاولت كتمان ضيقي، وقلت مجاهدا ألا أكون خشنا أو رسميا:

ـ مشروع ماذا؟

شوح شيخ البلد. وقال:

ـ هذا الولد الملعون كان قد وقع في فخ العمدة والأسطى فانوس..

ـ بمعنى؟

ـ قل يا رب.

فقلت: يا رب. وأحسست أنني سأفقد عقلي حتما إن استمر الوضع هكذا، بل وندمت لأنني تنازلت عن هيئتي الرسمية، لكنني مالبثت أن صبرت نفسي قائلا لها: ربما كان هذا طريقا إلى المعرفة.. فلنستمر إلى النهاية. ثم سيطرت عليّ فكرة الانفراد بإبراهيم..

وإذا بالمأمور يقول في تشف:

ـ قل له يا أبا خليل على الحقيقة ولا تخش شيئا.. قل لسعادة البيك حتى يعرف أننا غلابة ونشتغل لحساب الآخرين.

وضغط على «الآخرين» فقال إبراهيم:

ـ إن الحكاية معروفة من طقطق لسلامو عليكم.. ولا بد أن سعادة البيك يعرفها هو الآخر.

هززت رأسي بالنفي. ابتسم المأمور في خبث:

ـ إن سعادة البيك حديث التخرج ولا يعرف هذه الحكاية.

قال ابراهيم:

ـ كل الدنيا تعرف.. حتى الأطفال.

صرخت:

ـ تعرف ماذا.. تكلم.

ـ يا سعادة البيك.. الحشيش الذي يضبطه رجال الحدود بالأطنان «أين يذهب»؟

قلت منفعلا:

ـ تحرقه الحكومة طبعا.

فنظر شيخ البلد إلى المأمور وهو يشد الأنفاس بعمق. وقال إبراهيم:

ـ لا.. إنها لاتحرق إلا شيئا ضئيلا.

ـ والباقي؟

ـ رزق الهبل على المجانين.

وضحك ضحكة مكتومة.. وأكمل المأمور:

ـ رتب كبيرة يا سعادة البيك.. كل واحد يأخذ حقه.

ـ ماذا؟.. ماذا؟

ـ إنك مازلت شابا شريفا وفقيرا.. ربنا يكرمك.

ـ وهل يشربونه كله؟

قال إبراهيم:

ـ يوزعونه يا سعادة البيك على من يبيعه لحسابهم..و.. يوفرون له الحماية والأمن.. وآهي ماشية يا سعادة البيك.

لمعت في عيني المأمور جمرات متوهجة بالخبث والتشفي. ثم قبل يده وجها وظهرا وقال :

ـ ربنا يغنيها بالحلال.

* * *

فكرت في الذهاب إلى دورة المياه بهدف أن يصطحبني إبراهيم إليها فأتكلم معه قليلا. غير أنني ما كدت أبدي الرغبة حتى وقف شيخ البلد بنفسه وقال:

ـ تفضل سعادتك.

ومضى أمامي.

صحت أحتج على تعبه وأطلب الاكتفاء بإبراهيم. فلم يوافق

فأقسمت أن يعفي نفسه، وأقسم أن يصطحبني، واقترح المأمور أن تجيء دورة المياه إلينا. أخيرا لم أستطع التراجع.

جنون التفاصيل يربكني ويوقعني في كثير من الحمق بلا شك. أحس أنه يجعلني مسخا مجنونا مثيرا للضحك.

مضى شيخ البلد أمامي ولحقت به. توقفت على عتبة المندرة حتى ظهر إبراهيم في الدهليز من كوعة جانبيه حاملا مصباحا أشار به إليّ فذهبت إليه. فإذا بهذه الكوعة تعريشة ضيقة مسقوفة بالبوص، تتصاعد منها رائحة نتنة. قال إبراهيم:

ـ خلي بالك يا بيك.. فتحة الكبنيه على اليمين وأنت داخل..

رغم أنه علق المصباح على الحائط وخرج ساحبا الباب الصفيح خلفه إلا أنني لم أتمكن من حفظ توازني في جلستي المتقرفصة، وحين تبين لي أنني أعاني من عدم التوازن أدركت مدى سخف المحاولة؛ لأنني أساسا لم تكن بي حاجة إلى دورة المياه.

طرقات على الباب الصفيح أفزعتني. ثم وورب الباب، وامتدت ذراع وضعت أمامي إبريق الماء. صعدت نظراتي من الإبريق إلى الذراع إلى الفراغ الموارب فوجدت وجها خيل إليّ أنه معلق في الظلام تلمع فيه عينان لوزيتان حادتان. انتفض جسدي وسقط من مؤخرتي صوت قبيح طويل النفس. حينئذ ارتج الباب ثم ارتجت التعريشة كلها بصوت ضاحك، وصار الوجه المعلق في الهواء يرعد بضحكة متواصلة ويرتج مثل كرة من المطاط. اختل مابقي من توازني وأحسست أنني مهان. لكنني افتعلت ابتسامة، على أن

صوت شيخ البلد خرج من الوجه المعلق في الهواء قائلا وهو يحاول التقاط الأنفاس من فرط اللهاث:

ـ يا سعادة البيك.. أنت من غير مؤاخذة لـم.. لم تخلع البنطلون.

انتفضت واقفا. تحسست أفخاذي بحركة لا إرادية في فزع لا إرادى أيضا نعم، لم أكن قد أسقطت البنطلون.. قال شيخ البلد:

ـ ماذا إذن لو كنت شربت؟

رحت أفكر في اعتذار يمكن الاستماع إليه. لكن شيخ البلد فتح الباب عن آخره، فخيل إلي أنه قد هتك كل أسراري. رفع المصباح وتقدمني قائلا في خبث شديد:

ـ تفضل تفضل.

فخرجت صاغرا.

* * *

دخل بي حجرة صغيرة، بها سرير ذو عمدان صفراء. بجواره كنبة عريضة ينام فوقها صبي صغير. جلست حيث أشار لي. قال وهو يتهزز أمامى مثل ذئب لئيم إنني يجب أن أعتبر البيت بيتي وأتصرف كما يحلو لي. فقلت: طبعا طبعا. نظر في عيني متراجعا بذقنه إلى مستوى صدره مما أنبت له ذقنا ثانية وثالثة وعديدا من ذقون صغيرة آخذة في التضاؤل. قال كما يخاطب المتهمين:

يا بيك أنت ممتنع عن الصراحة.. لماذا؟.. من ناحيتنا فقد فتحنا لك قلبنا.. ألا تفتح قلبك أنت أيضا وتجعل المسألة أخوية؟

وجدتني أؤكد أنني بالفعل قد رفعت الكلفة بيني «وبينهم» وسألته ببراءه: «ولا إيه» فهز رأسه موافقا ولكن في خبث عميق: «طبعا» ثم أضاف باسما:

- الصوت الذي سمعناه منذ قليل تستطيع أن تعيده على راحتك.

فتساقط العرق فوق جبيني والتهب رأسي.

- تستطيع إذن أن تشرب هذه السيجارة الحلوة؟

لم تكن سيجارة، إنما كانت خابورا في حجم الإصبع الكبير.. قلت له إنني حقيقة لا أشرب هذا الشيء ولا أنوي أن أجربه لاعتبارات صحية ليس أكثر. وقلت له أيضا إنني أشكره على كرمه، فأخرج من جيبه علبة من الصفيح نزع منها مسمارا مبططا غمسه في جوفها فعلقت به قطعة من عجينة بنية اللون أغلب الظن أنها أفيون، قدمها لي قائلا في رجاء:

- إذن فهذه اللحسة على لسانك.

تراجعت بفمي جزعا مشمأنطا، فزحفت يده بإصرار:

- ستفرفشك وتنعشك.. وتجعلك آخر «فللي».. وتظل مفنجل العين حتى صباح بعد غد.

وقربها من شفتي:

- لا تخف. إنها أفيون خام.. من نوع فاخر.

فتحت فمي لأتكلم، فإذا بالقطعة فوق لساني: ومن يدري ربما

كنت في أعماقي أريد تجريب هذا النوع من المكيفات. قبل أن تنفجر الدماء من وجهي أسرع بالقلة صائحا منذرا:

ـ لو بصقتها يجيئك مغص مؤلم.. ابلعها وأمرك لله.

وكنت بالفعل قد بلعتها دون أن أدري، وأحسست أن مياه البحر كلها لن تغسل عن حلقى الشعور بالغثيان.

الورقة الثالثة:

من لي بألفاظ تصور حقيقة الحال التي وصلت إليها بعد كوب الشاي الرابعة؟ والتى فتحت شهيتي للسجائر والحديث، فجأة انتبهت فإذا أنا في حالة من الصفاء لم أشعر لها بنظير في حياتي. كل شيء في نظري وعقلي ووجداني وحولي متوافق متوائم لا غبار عليه.. أي هدوء ذلك الذي حل بأعصابي ونفث في عروقي دما ساخنا يتصاعد ليدفق في رأسي، لكن شيئا من دفق الأفكار اللامعة والخواطر الثمينة لا يستقر في رأسي إلا ريثما تتدافع موجاته لتسقط في آبار مجهولة من رأسي. لكنني مع ذلك مستريح البال كأنني قد خرجت من الدنيا ظافرا مؤديا جميع الحسنات والفروض والواجبات على أكمل وجه.. طرائح السجائر تتكوم أمامي وتنفد ثم تتكوم من جديد، وأرى أن أي شيء ماعدا الاستمرار في الشرب سخف لا موجب له..

فجأة دخل المخبر السري في صحبة «إبراهيم»؛ دهشت فلعلني قد نسيت الهيئة المصاحبة لي. تقدم المخبر السري مني ثم همس في أذني:

ـ اثنان يقفان خارج الدار يتنصتان.. جناب المأمور يقول لحضرتك هل نقبض عليهما؟

لا أدري لماذا نظرت إلى شيخ البلد. هل تراني كنت أستنجد به وأستغيثه فيما يجب علينا أن نفعله؟ معنى ذلك أن شخصيتنا قد بهتت ولم يعد لها لزوم، لكنني لم أستسلم لهذا الخاطر وإن كنت أومن أن شخصيتنا باهتة من الأساس منذ أن استعانت الرتب الكبيرة بمن يبيع لها نصيبها من الحشيش المضبوط، ولقد أيقنت أن وجودنا الودي يمكن أن يكون بديلا لقوة السلطة فينا، ذلك أن قوة سلطتنا ـ أيضا ـ لم تعد بذات بال منذ أن تهنا في التحقيق وتضاربتنا أمواجه الهادرة، كما وأن أحدا من المسئولين الكبار لم يهتم بهذه القضية أدنى اهتمام، ولولا حماسي أنا الخاص لمعرفة أصولها ودراستها لكان من السهل كلفتة التحقيق وتقفيل موضوعاته بأي شكل ويا دار ما دخلك شر. ثم، لعلنا بوجودنا البسيط يمكن أن نحقق مالم نحققه بوجودنا المركب.

تلقف شيخ البلد نظرتي واستفهم مني عما أسر به المخبر السري، فأخبرته بالخبر. فهز رأسه بحركة العارف بالأمور لكن صفحة وجهه انقلبت في الحال، ثم هز رأسه مرة أخرى هزة حاسمة وقال:

ـ اقبض عليهما.

ثم اقترب مني وهمس بحروف متآكلة:

ـ العمدة ما زال موقنا أنني تصرفت في الحقيبة.. وأنني الآن.. عدم المؤاخذة.. أحاول أن أشتري سكوتكم.

قلت له إنني أريد أن أتفاهم معه في هذه النقطة بالذات. فقال:

ـ وماله يا سعادة البيك؟!

وأشعل لي سيجارة. نفثت الدخان وقلت له:

ـ الآن وقد صرنا أصدقاء أريدك أن تكون صريحا معي كل الصراحة.

اقترب مني. أومأت للمخبر السري بأن يقبض على الشخصين. قال شيخ البلد:

ـ لا أكذب عليك.. العمدة والأسطى فانوس اتفقا معا على أن يسرقا الحقيبة ويهرباها.

ـ كيف عرفت؟

ـ كل شيء كان أمامي.

ـ وأنت.. كنت توافق؟

ـ أنا كنت أقعد معهم فقط.. إنما ورأس أبي ما وافقت.

ـ وقلت لهم إنك غير موافق؟

ـ لم أقل.. لكن لم أقل أيضا إنني موافق.. أي والله ماقلت.

تذكرت ما قاله شيخ الخفراء في التحقيق من أن شيخ البلد أمره بتسريح الخفراء في تلك الليلة. ولكني جاهدت ألا يبدو على وجهي شيء من ذلك. جاملت شيخ البلد بأن قلت:

ـ العمدة رجل وسخ.

فتهللت أسارير شيخ البلد وتقافز الفرح على وجهه واندمج في ضحكة حبورة بدا خلالها كطفل عجوز. وأشار بيده في الهواء كأنه يقول: أعد إلا أنه قال وهو يكح بشدة:

ـ أي والله صدقت.

ـ ولماذا فكر في سرقة الحقيبة؟

ـ يقول لك: الحاج سليم هذا رجل مفتري.. عمره ما أعطى للأنفار حقهم.

ـ والعمدة.. يريد الانتقام للأنفار بسرقة الحقيبة؟

ـ يقول: إننا نخدمه كثيرا وهو يغلق مخه.. لايبز بشيء.. يضحك علينا بالتعميرة.. كل واحد كيس حشيش وانتهينا.

ـ هل الحاج سليم تاجر مخدرات كبير؟.. مهرب مثلا؟

ـ لا.. كما قال الولد إبراهيم.. إنه يوزع فقط لحساب بعضهم.

دوما نوع الخدمة التي يؤديها العمدة؟

ـ أول هام.. يخيف الأنفار من شكوى الحاج سليم.. فالخفراء أفهموا الأنفار أن الحاج سليم حماية، وجبار، ومن يشتكيه يروح في داهية.

ـ يعني بيعملوا إرهاب للأنفار.

ـ العمدة هو الذي يعمل.. الخفراء أنفسهم يصدقون.. مثل الأنفار.

ـ والأنفار يصدقون؟

ـ يصدقون وفي نفس الوقت لا يصدقون.. والمهم أنهم لايشتكون.

ـ شيء غريب.

ـ ثاني هام.. العمدة كما سبق أن قلت لحضرتكم يخدم الحاج سليم في حكاية التوصيل، التي تتكرر كل مرة.

ـ إنك لم تقل لي شيئا كهذا.

ـ لا بد أني نسيت.. لكن أنا الآن أفتح لك قلبي.. اعلم يا بيك أنني أول من يتمنى ظهور هذه الحقيبة.. إذا كنتم مشغولين بأمرها قيراطا فأنا مهتم به أربعة وعشرين.. إنني أنا الذي سرقت ولا أحد غيري.. حقيبة مثل هذه بها كل هذه الكمية من الذهب الأخضر تضيع من يدي هكذا عيني عينك.. أخشى أن أموت بحسرتها.

ـ لكنك سبق أن قلت: المشروع.. ثم قلت الآن التوصيل.. أرجو التوضيح..

ـ المشروع هو مشروع النقل كما قلت لحضرتكم.. يعني التوصيل كما قلت الآن.. أي أن الحاج كان يجعل من بيت العمدة مركزا.. والواقع أنه من شدة خبثه ولؤمه.. العمدة يعني.. كان يستغفلني ويجعل من بئري هذه مخزنا.. كان يدبر الخطة من وراء ظهري هو والأسطى فانوس.. ويقول لي: هناك أمانة نريد حفظها عندك في البئر عدة أيام.. من عبطي أوافق.. ويضعون الأمانة، في العادة تكون جوالا أو جوالين أو صرة مثل صرة الهدوم.. لم أكن

في العادة أعرف مافيها يعلم الله، ولكن.. هذه الحقيبة علمتني أن في الأمر مكسبا كبيرا.. المهم أن العمدة كان يرسل كل حين من يفتح البئر وينزل بداخلها ويغلق على نفسه ثم يخرج حاملا شيئا ما..

ـ نرجع للاتفاق الذي تم بشأن سرقة الحقيبة؟..

ـ نعم.. ظن الوغد أنني معهما في العملية.. نقبهما جاء على شونة..

ـ هل العمدة وحده هو الذي يتهمك بالخيانة؟

ـ سترغمني يا بيك على الاعتراف ثانية؟.. ولكن لايضر.. إنني صاغ سليم.. أصل الحكاية أن العمدة بعد أن تم الاتفاق على أن نقوم نحن الثلاثة بتهريب الحقيبة.. عاد في المساء وانفرد بي في ركن بعيد.. وعرض عليّ أن نقوم أنا وهو فقط بتهريب الحقيبة من وراء ظهر الأسطى فانوس ونفوز بها وحدنا.

ـ ألم تفكروا في عاقبة الأمر؟

ـ إننا.. أقصد العمدة والأسطى فانوس..كنا نعتقد أن البلدة في الصباح ستتعرض للسرقات.. بسبب وجود الأنفار..

ـ هل الأنفار يسرقون بالفعل؟

ـ المعروف أنهم يسرقون.. وكل مرة يتم القبض على مجموعة منهم.

ـ المهم.. اتفق العمدة معك على..

ـ لكنني لم أوافق طبعا.

ـ هل قلت له ذلك؟..

ـ في الواقع هززت رأسي فقط.. فلعله تصور أنني أهزها موافقا.

ـ ولماذا لم تقل له إنك لاتوافق؟

ـ المفاجأة ألجمتني.. أوقفت لساني يا بيك.. ولهذا فالعمدة يتصور أنني نفذت رغبته وقمت بتهريب الحقيبة ثم طمعت فيها وأنكرت..

ثم تنهد بحركة مسرحية متقنة، وقال:

ـ اقبض على الكلاب الذين يقفون خارج الدار ليعرفوا أنني سليم.

يبدو أن كثرة التفاصيل مثلها مثل قلتها تماما.. في الأول كانت التفاصيل كالمصابيح تضيء أمامي الطريق إلى الحقيقة، ولهذا أحببت التفاصيل واستهدفتها؛ ولكن هأنذا أغرق في التفاصيل المتضاربة فلم أعد أعرف خلالها طريقا. إنها تبدو لي مثل ركام من الظلام، ربما كانت حزمة من الأضواء الباهرة سلطت وهجها على عيني فلم أعد قادرا على رؤية شيء، حتى هذا الرجل الذي يجلس أمامي، لم أعد قادرا على معرفة حقيقته بالضبط: هل هو عبيط؟ أبله؟ خبيث؟ شرير؟ كلما عاملته على أنه أبله يتضح لي في اللحظة التالية أن الأبله الحقيقي هو أنا. وكلما احتشدت له باعتباره خبيثا شريرا فاجأني بأنه عبيط.. إنه فيما يبدو خليط متنافر من الخبث والبله والمكر والشر، مناور مداور مخادع لايستهان به.

الورقة الرابعة:

حتى هذه اللحظة لا أستطيع أن أتصور ماحدث على حقيقته. في الواقع لم أكن أتخيل مطلقا أن يحدث ماحدث.. في البداية خيل إليّ أن حالة الصفاء الشديدة التي اعترتني قد بلغت من العذوبة والرقة أن جعلتني أرى في لحظة واحدة مالم يكن من الممكن رؤيته في سنوات.

فجأة دفع المخبر السري بأحد الشخصين فمثل أمامى في حركة تمثيلية وراح يوهمني أنه من فرط الغلب يكاد يركع أمامي. دققت في ملامحه برهة فارتجفت كل عروقي. ولما نكس رأسه في الأرض ليخفي ملامحه كنت قد تأكدت تماما من حقيقة شخصيته، وسيطر على جسدي خدر لذيذ، نظرت إلى المخبر الذي كان ماثلا بالباب يستعد للانصراف وسألته وأنا أعني هذه الألفاظ بالتحديد:

ـ أين الحمار الثاني؟

ابتسم المخبر السري رغما عنه وأضاف ساخرا دون قصد:

ـ دول طلعوا تلاتة يا بيه..

ـ حلو..

هكذا صحت، ثم أضفت مثل أولاد الحظ:

ـ ليلتنا أنس إن شاء الله..

وأحسست أن غلافا من الخجل البسيط يغلف وجه الرجل المقبوض عليه، وبدا أنه يريد أن يستدركني بقول ما. برق في

ذهني خاطر تخيلت معه صورة الحمار الثاني الذي إن كان هو حقا اكتملت الصورة.. ناديت:

ـ أحضرهم حالا..

ضغط المخبر السري على شفته السفلى كأنه يغمزني، وأشار إلى الداخل:

ـ موجودين يا بيك.. مع حضرة المأمور..

ثم اقترب مني وهمس في أذني:

ـ أصلنا عرفناه.. مقدرش ينكر.

ـ همست:

ـ من؟

ـ حضرة العمدة..

ولم يقاوم الضحك.. أنا نفسي أفلتت مني ضحكة سوقية جدا لاتليق برجل مثلي، لكنني ـ ربما لكي أمسح أثرها الانفعالي المفاجئ ـ صرخت بأعلى صوتي، ومن أعماق الكبرياء السلطوي الأجوف:

ـ قل للمأمور يقبض عليه رسميا.

وإذا بالمأمور يدخل:

ـ لا لزوم للانفعال يا بيك.. أنا من نفسي عملت الواجب.

ثم اقترب مني:

ـ لا.. إنني أعجبك.. أعمل كل حاجة نعم.. لكن ساعة الجد جد..

ـ وأين هو؟

ـ حبسناه..

ـ أين؟

ـ في البئر.

ـ البئر؟

ـ نعم يا بيك.. حضرتك لا تعرفني جيدا كما يبدو.

لو قرأت هذا في قصة لأشعلت النار فيها وقلت: إسفاف ومهما يكن من أمر فإن جنون التفاصيل لم يعد جنونا بل صار واقعا. لم أعد أبحث عن التفاصيل إنما صارت هي تتدفق عليّ..

ـ اقعد يا حضرة المأمور..

جلس. استدرت إلى الشخص الواقف:

ـ أنت يا رجل.. اخلع هذه البلاوي التي ترتديها واظهر على حقيقتك.

بنبرة خافتة كأنه يلعب بآخر نَفَس في صدره قال:

ـ أبدا والله يا بيك.. أنا رجل غرباوي غلبان لا هنا ولا هناك.. الحظ الأسود هو الذي رماني ولا أعرف أي شيء.. إنما كنت ألف حول البيت وكنت أريد أن أشرب.

أشعلت سيجارة. قلت بصوت عال: إنه ليس من الغريب أن ينجحوا في حياتهم ويصيروا ذوي أملاك ومناصب طالما أن لديهم هذه القدرة على التمثيل. فلم تتحرك عضلة واحدة في ملامح صاحبنا، فأحسست برغبة في تعذيبه، صرخت فيه آمرا:

ـ أدر وجهك للحائط.

استدار بالفعل.

ـ ارفع يديك لفوق.

رفعهما. استدرت إلى المأمور:

ـ قل لي يا حضرة المأمور ماذا حدث في غيبتي عنك؟

فانتفخت أوداج المأمور وأحس بفرح كبير وشرع يحكي..

* * *

قال المأمور:

كانت القعدة قد احلوت واختتمت على خير، وانزوى إبراهيم مع المخبر السري في ركن المندرة وتبادلا الهمس والإيماء، ثم غاب المخبر برهة وعاد ليهمس في أذني أن هناك شيئا غير طبيعي يحدث في الخلاء، فما كاد السيد ضابط المباحث يسمع ذلك حتى نهض وراح يمشي على أطراف أصابعه وخرج، ثم غاب طويلا، وسمعت صوت خفير مفاجئ تحت الشباك البحري مباشرة يصيح مرتعدا:

ـ من هناك؟

ـ ماذا تفعل عندك يا خفير؟

ـ أمسك الدرك يا سعادة البيك.

ـ من أدراك أنني بيك؟

ـ ما دمت عند شيخ البلد تكون..

ـ تعال هنا.

وسمعت خطواتهما مقبلة. لكن صوت الخفير كان يطن في أذني بصوت أعرفه جيدا. فجأة دخل السيد ضابط المباحث ومعه الخفير. حمدت الله أننا كنا قد أنهينا «المسألة» ولم يبق من أثرها سوى رائحة ماء الجوزة وقليل من سحب الدخان. قال الضابط: «قف هنا يا خفير»، ثم جلس بجانبي وراح يخاطبه.

ـ من الذي أرسلك إلى هنا بالضبط.. ولماذا؟

قال الخفير بصوته الذي أعرفه جيدا:

ـ لا أحد أرسلني والله يا سعادة البيك.. أنا أمسك دركي.

ـ ودركك تحت الشباك مباشرة يا خفير؟

فسمعنا في الحال صوت شخير عال، أدركت أنه ليس صادرا من جثة نائمة بحق، إنه صوت يمثل الشخير. أخذت أتحدث مع السيد الضابط بأى كلام، فكف صوت الشخير، فكففت عن الكلام، فارتفع الشخير ثانية. فضحكت. إذ إن الرجل من فرط إحساسه بالخوف من أن نراه خيل إليه أننا بالفعل نراه، فراح يغطي نفسه بصوت الشخير.. كلها حركات قرعاء ولا نأكل منها كما تعرف.

ولذلك خرجت. رأيت جسدا عملاقا ممددا على مصطبة تحت الشباك. عفقته من رقبته. لم يفلفص. أوقفته.. دفعته أمامي إلى الداخل. وإن هي إلا برهة حتى دخل المخبر السري بشخص منهم وقال السيد الضابط إننا يجب أن نبلغك، فقلت له لا داعي لإزعاج سيادتك؛ فأنت مشغول في التباحث مع شيخ البلد وعلينا أن نقوم بدراسة أمرهم فإن وجدنا شيئا يستحق التبليغ أبلغنا به.

الواقع أن الأمر بدا طريفا. فالخفير إياه منكس الرأس يرتجف. قمت لأعطيه التحية المناسبة. رفعت كفي، انتفض الخفير ومد ذراعيه يحمي بهما وجهه صائحا يكاد يبكي؟

ـ حاسب يا حضرة المأمور.. سأقول لك.. سأقول لك.

صرخت فيه بغيظ:

ـ انطق بسرعة.. من أنت بالضبط؟

بذلة ومسكنة أجاب:

ـ أنا.. أنا.. أنا العمدة..

طار صوابي يا أفندم وحلفت بشرف أمي أن أظل أعامله كخفير بل أقل. سحبته من يده إلى الحديقة ومعنا ضابط المباحث. نزعت عنه اللبدة والبندقية وأوقفته على يديه ورجليه وأمرته أن يعترف بكل شيء دون لف أو دوران، لكنه تصور، أخذ يبكي مثل الطفل، وقال إنه كان ينوي أن يعرف ما الذي سنفعله بشيخ البلد حينما نعثر على الحقيبة.. وسألته:

ـ آه.. يعني متأكد أنت أن الحقيبة عند شيخ البلد؟

أجاب:

ـ طبعا.. مثلما أنا متأكد أنك حضرة المأمور.

ـ وإن طلعت كداب يا حلو؟

ـ اشنقوني..

ـ إيه.. نشنقك؟!

ـ أكلم حضرتك بقدر ما أعرف..

ـ أتعرف أين يخفيها شيخ البلد؟

ـ في البئر طبعا..

ـ عجايب.. ولكننا فتشنا البئر قطعة قطعة..

ـ لا يمكن.. هذا غير ممكن..

ـ تكذبنا يا رجل؟

ـ ألم ينر لكم باللمبة فقط؟

ـ كيف عرفت؟

ـ أنا شفت كل حاجة يا حضرة المأمور.

ـ إذن فأنت خفير من لحظة ماحضرنا؟

ـ أنا خفير من قبل أن تتحركوا من المركز.

ـ ألك إخباريات يا ابن الـ.....

ـ لا لزوم لهذا يا حضرة المأمور.

ـ اخرس يا ضلالي يا نصاب.

ـ ما دمت قلت هذا.. فرأسي وألف سيف أن أريكم صدق كلامي..

طيب. خليك مع الكذاب إلى باب الدار كما يقولون. ويقول المثل: الجمل طلع النخلة.. إذن فهذا هو الجمل وها هي ذي النخلة. وعليه بعثت المخبر السري ليراقب شيخ البلد ويبقيه مكانه حتى لا يجيء أو يعرف شيئا مما يدور.

تقدم العمدة أمامنا حتى موضع البئر فرفع غطاءها بدربة واضحة ثم هبط إلى الداخل، وكان واضحا أن قدميه تعرفان مواضع نتوءات بارزة تستخدم كسلم سرى للصعود والهبوط. تسمرت في مكاني. لقد أشعل عدة شمعات كانت متناثرة في عدد من الطاقات في سفح البئر. لم نكن نرى من جسده الكبير سوى رأسه فقط وهو بأعماق البئر. فتح بابا جانبيا ثم أشعل شمعة جديدة ودخل. غاب برهة طويلة تقطعت فيها أنفاسي مع الضوء العليل المتراقص. وأخيرا خرج العمدة من الفتحة الجانبية وهو يبكي مرددا في هستيريا:

ـ معقول؟!. معقول؟!. يا ابن الأبالسة.. تعملها في.. أنت واعر إلى هذا الحد؟.. كنت أستهزئ بك.. لكنني ابن كلب لم أجد من يحسن تربيتي..

وقعت الشمعة من يده فداسها في غيظ، ثم راح يصعد الدرج السري ويتعثر ويسقط فيصرخ وينفخ من ألم ومن غيظ ولا يكف رغم ذلك عن السب:

ـ أنا أستاهل.. إنني عبيط.. ولا أصلح للعمودية جنب هذا الداهية..

ثم وقف أمامي منهارا:

ـ من حقك الآن أن تفعل بي ما تشاء.

ـ اخرس يا ضلالي..

ـ ضلالي؟.. عليّ الطلاق الحقيبة كانت هنا.. إنما.. إنما.. هو شيخ البلد والأجر على الله.. كيف اتفقت معه؟!.. كيف وضعت يدي في يده؟!..

ـ لا تخرف.. ما الذي بينك وبين شيخ البلد؟

ـ يا حضرة المأمور.. صدقني..

ـ ما زلت تصر على أن الحقيبة كانت هنا؟

ـ إنني أنا الذي وضعتها بيدي..

دارت بي الدنيا يا أفندم. ابن المفضوحة هو الذي وضع الحقيبة في البئر. في حجرة مثل الفسقية. يعني معترف بالسرقة.. هو يسرق ونحن ندوخ. أضاف العمدة:

ـ ألم أقل لك إنني طيب؟!.. مثل الدلو اندلقت بمجرد أن لمسني شيخ البلد.. ضحك عليّ.. قال إننا نفعل خيرا لو قمنا بتهريب الحقيبة في عز الليل.. يا شيخ البلد عيب عليك لاينفع أن نفعل هذا.. يا عمدة صل على النبي فالحاج سليم لا ينفع معه غير هذا.. لماذا يا شيخ البلد؟.. لأنه لص، طول عمرنا نخدمه ولا يضع في عينيه حصوة ملح .. ومالنا نحن يا شيخ البلد ؟! أنصير لصوصا

على آخر الزمن؟!.. يا عمدة لا تكن عبيطا، إن سرقة مثل هذا تكون حسنة من الحسنات؛ لأن فلوسه كلها حرام في حرام.. تصور يا حضرة المأمور كيف أدخلها الرجل في دماغي حتى وافقت.. ولا أعرف كيف تحمست وجئت بنفسي لوضعها والاطمئنان على مكانها.. كنت أريد أن أبعد التهمة عن بيتي.. فإذا بي أضع الأمانة في فوهة قبر.. أين خبأها بحق الله؟!.. متى سربها؟!.. إنه إذن لساحر.. ماكنت أعرف أنه شيطان إلى هذا الحد..

لصان كبيران أنتما إذن؟ـ هكذا قلت في نفسي ـ والله، إني لمنتقم من جلد آباء الذين خلفوكم، هل يضيع تعبي هذا كله أونطة؟!.. أكلف دماغي وتنسفوه؟!. المهم يا أفندم حكمت على العمدة أن يهبط البئر ثانية ويحبس نفسه في الحجرة التي خبأ فيها الحقيبة، وحرسنا على فوهة البئر شيخ الخفراء نفسه، الذي جيء به فورا من عقر داره ـ مصيبة أمه سوداء هو الآخر. والآن ها هو اللص الثاني، لا بد أن يحبس مع زميله في نفس الحجرة حتى تجيء الحقيبة من تحت طقاطيق الأرض. من دوار العمدة نفسه سأبلغ إشارة للمركز ينهضنا بقوة من الهجانة. أما صاحب الشخير العملاق فقد نجح حتى الآن في ادعاء الخرس. ولكن سوف يتكلم حتى لو كان أخرس بالفعل. دعه الآن حتى أروق له ما دمنا وضعنا أيدينا على الفاعل الحقيقي..

الورقة الخامسة:

تحول شيخ البلد إلى جسد يتطوح مثل عود من الجريد تجتاحه رياح الخماسين. أخذ يفعل أشياء لا يمكن أن نفهمها. يصرخ،

يبكي، يزغرد، يشوح بيديه، يضرط بفمه، يشخر بأنفه.. يريد أن يرسم الجنون طبعا. كلمات تتساقط منه منغومة على شكل عديد الثكالى:

ـ يا غراب البين شحوالك.. إيش خلانا على بالك؟!

ثم تغيرت نغمة العديد إلى إيقاع لطم الخدود:

ـ العمدة عايز يخرب بيتي ليه.. العمدة حط الشنطة وبايديه.. ومن الكلام ده رح يجيله إيه؟..

المأمور حقا لا يأكل من مثل هذا الكلام. قام فلوى ذراع شيخ البلد بعنف استغربته منه؛ فهو الذي أطاح بالإوزة منذ قليل.

قال شيخ البلد لاويا عنقه محاولا أن يواجه المأمور:

ـ أنا.. أريد أن.. أقول لك يا حضرة المأمور.. لك حق تفعل بي هذا.. لكن.. أنا لست نذلا إلى هذا الحد.. أنا عندي نظر.. لو كنت أخذت الحقيبة فعلا كنت.. أقصد كنت وفرت عليك هذا كله.. كنت.. إنك لا شك تفهم قصدي.. سبق أن كنت رجلا معك ونفذت كلامي وأعطيتك حقك..

اشتعلت النار في المأمور. بركبته دفع شيخ البلد في مؤخرته فقلبه على وجهه. صاح شيخ البلد وهو ينهض:

ـ اخص على التربية..

دفعه المأمور أمامه وخرج به. وجاءني صوته من بعيد يأمره بالنزول إلى البئر.. ورحت أرتجف وأنا أتسمع أصوات صراخ

مكتوم تصل من أعماق حجرات داخلية بعيدة أو من فوق السطح لا أدري، ووضح في أذني صوت نسائي يصيح مولولا:

ـ يا دي المصيبة.. حطوه روخر في البير.. اللي سرق سرق وإحنا نتحط في البير.. منه لله الحاج سليم.. قبل ما يتحرك من البلد بعت رجالته سرقوا الشنطة من البير.. ليه مايقولوش الكلام ده للنيابة..

جالت بذهني خواطر كثيرة متضاربة ومتناقضة من الصعب الإمساك بها، وأحسست بميل لتصديق هذا الصوت. لكن ثمة إحساس بالخطر انتابني. وكان من الممكن أن أنهار بعد أن ارتفع صوتنا إلى هذا الحد، وبعد أن اعتدى سيادة المأمور على كل من العمدة وشيخ البلد في عقر دارهما، لولا أن دخل المخبر السري وأبلغني أن السيد ضابط المباحث.. بعد إذني قد اتصل بالمركز وأبلغه بكل أسف عن الظروف طالبا منه قوة من العساكر للاحتياط..

أمرت المخبر السري أن ينزع الملابس التنكرية عن هذا الرجل، فما إن تقدم المخبر ليفعل حتى انتفض الرجل واقفا واقترب مني قائلا في نبرة مرتعشة:

ـ إن الله حليم ستار يا سعادة البيك.. حضرة جنابك عرفتني خلاص..

أمرته في صلف أن ينطق باسمه. قال مترددا:

ـ ما.. ما.. حضرة جنابك عرفتني..

ـ انطق باسمك.

ـ أنا.. أنا الأسطى فانوس..

ـ أهلا وسهلا.. شرفت يا سعادة الباشا.

ـ الله يشرف مقدارك يا سعادة البيك.

ـ شف يا أسطى فانوس.. لن ينقذك سوى شيء واحد فقط.. أن تتكلم بصراحة.. وتعترف بكل شيء.. و.. لاحظ أن كلام العمدة ليس كل شيء.. احتمال كبير أنه يهلوس..يخرف..

قال بعد تردد:

ـ فـ.. فعلا يا سعادة البيك.. العمدة يخرف.

ـ احذر أن تختلق كلاما تنجو به.. ففي هذه المرة سوف أسويك على الجنبين.. حتى لو كان ابنك وزيرا..

مال برأسه موافقًا، وأضاف:

ـ العمدة يخرف تخريفا جامدا..

ـ كيف؟

ـ إنه رجل لئيم.. يسوق العبط على الهبالة.. يريد بكل وسيلة أن تفهم الحكومة أن واحدا غيره حصل على الحقيبة..

ـ لكنه اعترف على نفسه، وسواء ضاعت الحقيبة منه أم من شريكه فإن هذا لن يغير من موقفه شيئا..

ـ غدا أذكركم أن محاميه سيعتمد على نقطة ما في هذا الكلام ويدافع منها عن العمدة..

ـ أفصح عن غرضك..

ـ أكبر دليل على كذب العمدة هو قوله إن الحقيبة كانت في بئر شيخ البلد..

ـ يقول إنه اتفق مع شيخ البلد على سرقتها.. وعلى هذا تم نقلها بمعرفته سرا من بيت العمدة إلى بئر شيخ البلد..

ـ كذاب.. كذاب في أصل وشه..

ـ لماذا؟..

ـ لأن الحقيبة كانت في بيتي أنا..

ـ نعم؟.. ماذا قلت؟

ـ أقول إن الحقيبة كانت في بيتي أنا.. ألا تصدقني؟

ـ وهل يجرؤ مثلي على عدم تصديقك؟!

ـ ورأس أبي يا سعادة البيك إني أتكلم الصدق..

لم أعد أثق في أنني متيقظ العقل. إن طاقات جبارة ترتفع رءوسها الآن في أعماقي تبعث فيّ نشاطا لا أدري من أين جاء. لكن جوا من أجواء الحلم يسيطر على كل شيء، فإننا كثيرا ما نرى في الحلم أنفسنا في عشرات الأماكن بآلاف المشاهد فيما لايزيد على بضع دقائق. وفي الحلم لانسأل أنفسنا كيف حدث هذا أو كيف يمكن أن يكون. وإننى إذ أكتب هذا التقرير ـ غير الرسمى وغير القانوني، والذي سأصر رغم ذلك على وضعه في ملف القضية ـ لا أحس أنني قد أفقت بعد من هذا الحلم السخيف، ولعلني في أعمق

أعماقى لا أرغب في الإفاقة منه، ولعلني أحب الآن أن أضحي بكل الصيغ القانونية في سبيل أن أذكر كل ماحدث بأمانة شديدة، كما حدث وبكل حذافيره حتى لو كان ذلك على حساب سمعة النيابة والبوليس ومظهرهما..

وبعد، يقول هذا الرجل المدعو بالأسطى فانوس أن الحقيبة كانت في بيته هو، مع أن البلاغ الذي قمنا على أساسه في البداية يقول إن الحقيبة سرقت من بيت العمدة.. وبالرغم من أن العمدة بنفسه عاد وذكر أنه سرق الحقيبة بالاشتراك مع شيخ البلد، وأرشد عن مكانها.. فكيف انتقلت الحقيبة من بيت العمدة إلى بيت الأسطى فانوس؟! وكيف تسربت من بيت الأسطى فانوس إلى بئر شيخ البلد؟!. ثم كيف تسربت بعد ذلك من بئر شيخ البلد إلى مكان مجهول؟

هذا مايحاول الأسطى فانوس أن يجيب عنه.

قال الأسطى فانوس:

* * *

ـ أصل الحكاية يا بيك أنك عدم المؤاخذة غير آخذ بالك مما حدث. كيف؟.. أنا أقول لك: ليلتها شربت حتى تسلطنت تماما وأحسست أنني لا بد أن أزوغ قبل أن أصير مضحكة القعدة. لكن.. هل أقوم وأترك حقي؟.. نعم إن لي حقا.. أمري لله سأقول.. كان العمدة قد اقترض مني ثمن ثلاثة أرادب من القمح ووعد بتسليمي القمح في المحصول.. ومرت محاصيل كثيرة والعمدة «يطرمخ» وأنا أستعمل الذوق، فأنا والله طيب وألتمس العذر للناس دائما..

وكنت أشفق على العمدة وأقول يا ولد ربما كان معذورا فاصبر عليه.. أما في تلك الليلة فها هي ذي الثروة تهبط على العمدة، إذ إنه سيقبض من الحاج سليم نصيبه جزاء مساعدته في تهريب الحقيبة.. قل إنني استأذنت لشم الهواء على السطح.. جلست فوق خن الأرانب وذاب رأسي في ضوء القمر الذي لا أدري لماذا أريد وجهه في تلك الليلة هكذا.. فكرت كثيرا في الكلام الذي ينبغي أن أقوله للعمدة، وفي كيفية التصرف.. ويظهر أني غبت عن القعدة وقتا طويلا حتى إن العمدة جاء وجلس بجانبي.. قلت: فرصة. ولكن خطر لي شيء. لا بد أن العمدة جاء ليفاتحني في الأمر.. إلا أنه قال بعد برهة:

ـ مالك يا خواجة.. بتفكر في إيه؟

وبالمناسبة. المقربون مني ينادونني بلقب الخواجة، وهو لقب ربك والحق يسعدني. على أنني في تلك اللحظة صحت فيه مشوحا بيدي في الهواء:

ـ لا خواجة ولا زفت.. أريد نقودا.

زام العمدة:

ـ تريد مطالبتي بالثلاثة أرادب؟

ـ إن جئت للحقيقة أنا.. أفكر أن أقترض منك مبلغا بسيطا.

ـ لا.. دعك من حكاية السلف هذه.. فأنت يمكنك أن تأخذ حقك جيدا.

ـ أنا في عرضك.

ثم مال وهمس في أذني:

ـ أريد أن أعرض عليك موضوعا.. إذا وافقتني سنأكل الشهد معا.

ـ أي موضوع يا ترى؟

ـ أنت تعرف أن هذا الرجل ضلالي وابن كلب لايعرف ربنا.

ـ أي رجل؟

ـ الحاج زفت.. طول عمرنا نخدمه بلا ثمن.

ـ الموضوع.. ما الموضوع؟

ـ تعرف أن البلدة في الصباح سيتضح أنها سرقت.. الأنفار هنا كما تعلم.. ما المانع أن الحقيبة تسرق مع البلد؟

ـ وما المطلوب مني؟

ـ نضع الحقيبة عندك.. في بيتك.. فأنت بعيد عن الشبهات.

ـ وبعد أن تهدأ الأمور.. نتصرف.

لست لصا والله يا سعادة البيك. لكني وجدتها فرصة. وقلت لنفسي: آخذ الحقيبة عندي وأتصرف فيها وحدي. وبالفعل نقلت الحقيبة، ولكني في الصباح لم أجدها مكانها وعرفت أن رجال العمدة عادوا في الفجر ونقلوا الحقيبة إلى بيته من جديد دون علمي.......

الفصل العاشر

الوعد والمكتوب

يارب صبحنا صباح الخير
صباح خواجة ما عليه دين
يارب صبرنا صبر أيوب
وأيوب لماصبر وفى الوعد والمكتوب

(أغنية للساقية)

(١)

هتف «عبد السلام» متلهفا:

ـ هيه.. وبعد.

وكان قد وقف ثم عاد يتقرفص أمام «طلعت»:

ـ أكمل.. لماذا توقفت عن القراءة؟

وقال «شيخ الغفر» بانفعال شديد:

ـ كنت لبيبا على طول.. فما الذي أربكك وأوقفك؟!

وهنا قال «دياب» في إعجاب وزهو:

ـ خلي بالك يا طلعت.

وإذا بالجد «مهيوب» يهب قاعدا:

ـ طلعت لا مثيل له في العب كله.. ها أنتم قد سمعتموه وهو يقرأ مثل البلبل.. والله ما رأيت أحدا في الدنيا يقرأ بمثل هذه الفصاحة.. طبعا.. أمه لم تنشأ بهدلته في الغيطان فتركته لحفظ القرآن والعلم منذ تحرك لسانه في حنكه.. ووالله لولا أنه يريد أن يشتري لنفسه بذلة الشهادة الابتدائية لما تركناه يذهب إلى الترحيلة.

وكان «الأعرج» قد فتح فمه في بلاهة وأخذ ينظر هنا وهناك. أما «عمرو» فقد راح في شرود. وأما الأنفار فإن معظمهم قد تيقظ، وقليل منهم كان قد فهم ما يسمع، وراح يقول كلاما على الوجيعة. والأقل نطقت وجوههم بالفجيعة. وأخيرا نظر «طلعت» إليهم في حيرة.. فصاح «عبد السلام» في غيظ شديد:

ـ ما هذا الدلع الفارغ؟!. قلنا لك اقرأ.

قال «طلعت»:

ـ أقرأ ماذا؟!. لم يبق هناك شيء لم أقرأه.

انتبه الجميع وفزعوا:

ـ نفد الكلام؟.. أين بقية الورق؟

قال «طلعت» كأنه يصفعهم على وجوههم بالصرمة القديمة:

ـ لقد أخذتم الورق ومسحتم به مؤخراتكم.

وجموا كلهم.

ـ كيف؟.. من الذي فعل هذا؟!

ـ أنتم.. كلكم.. خال الأعرج هو الذي نبهكم فرحتم تفعلون مثله.

ـ ولماذا تركتنا نفعل هذا؟

هكذا صاح «عمرو» فجأة بصوت باكٍ.. قال «طلعت»:

ـ كنتم تشدون المظروف من تحت رأسي وتأخذون الورق.. لولا

أنني كنت أخبئ الورق الذي لم أقرأه.. وحتى هذا كنتم تسحبونه من تحت ثيابي وأنا نائم.

قال نفر من الغرابوة:

ـ يا خسارة.. كانت حدوتة مسلية.

ضحك «دياب» وقال «عبد السلام»:

ـ حدوتة؟.. يقول حدوتة؟!

رد «شيخ الغفر»:

ـ والله أكبر حدوتة.

هب «عبد السلام» واقفا:

ـ إنها قضية.. قضيتنا نحن.. فكيف تسميها حدوتة؟!

ـ كل هذا الذي حدث.. ولا تكون حدوتة؟!

ـ لكن.. ماذا جاء بقضيتنا في ورق كهذا.. وكيف يجيء الورق إلى الإسطبل؟!

ـ ألا تكون قضيتنا؟

ـ أقطع ذراعى إن ما كانت قضيتنا.. التي في هذه الأوراق.

ـ يا بني آدم.. قضيتنا في المحكمة.. فما الذي يأتي بها إلى الإسطبل؟

ـ حتى لو لم تكن قضيتنا فهي قضيتنا.

ـ إن دماغي سوف ينكسر.

ـ نريد أن نعرف ماذا تم؟

ـ الذي تم أننا جئنا هنا.. إلى الإسطبل.. وصرنا غرابوة.

ـ وجاءت قضيتنا معنا.. شيء غريب والله.

ـ وحقيبة الحاج سليم.. من الذي سرقها؟

ـ نحن.

ـ متأكد أنت؟

ـ هذا ماقالته المحكمة.. ثم حكمت علينا.

ـ هل قالت المحكمة هذا أمام عينيك؟

ـ لا أعرف.

ـ والمكتوب هنا؟

ـ حقيبة الحاج سليم.. التي هي عرق الأنفار.. سرقها الحكام الأعيان.

ـ لا.. لقد سرقها الحاج سليم بنفسه.. أنسيت؟

ـ نسيت ماذا؟

ـ قالت الأوراق شيئا من هذا.

ـ هل قالت هذا حقا؟

ـ أنا متأكد.

ـ أراهن.

ـ قالت.. قالت.. قالت.

ـ اقرأ لنا يا طلعت لنرى هل قالت أم لا؟

قال «طلعت» في غيظ:

ـ لم يعد هناك ورق.. سوى ورقتين اثنتين.

ـ مصيبة سوداء.. كارثة.

قال وهو يتلذذ بإيلامهم:

ـ كنتم تسرقون الورق.. وتمسحون به مؤخراتكم.

ـ والله إننا لحيوانات .. بهائم.. كيف نفعل هذا؟!

ـ تسألونني؟!

ـ نريد أن نعرف من الذي سرق عرق الأنفار؟

ـ نريد أن نعرف هل حكمت المحكمة علينا حقا أم لا؟

قال «طلعت»:

ـ هل ذهبتم إلى المحكمة؟

قال «عبد السلام» مشوحا بذراعه الطويلة المشعرة:

ـ مئات المرات.

ـ ونطق القاضي بالحكم أمامكم؟

ـ هذا مالا نعرفه.

ـ لم ينطق؟

ـ لا .. لقد نطق.

ـ ماذا قال إذن.. بالضبط بالضبط..؟

قال «شيخ الغفر»:

ـ لم نفهم كلام القاضي يومها.

قال «عمرو»:

ـ إنك تنسى يا شيخ الغفر.

شوح «عبد السلام»:

ـ أنا أيضا نسيت.

قال «عمرو»:

ـ يومها قال الأبوكاتو.

ـ كان مع الأسطى فانوس.

ـ وشيخ البلد أيضا كان معه واحد.

ـ والعمدة كذلك.

ـ لكن الأبوكاتو.. قال يومها إن القاضي سينطق بالحكم في المرة القادمة.

ـ بالضبط.. بالضبط يا عمرو.. قالوا لنا تعالوا في الجلسة القادمة.. وأنا نفسي ذهبت إلى الكاتب الذي يجلس بجوار القاضي..غير أنه لم يسمح لي بالاقتراب منه.. أعطيت بريزة يشتغل بها رجلان طول النهار للولد كاتب المحامي وبعثته لكاتب الجلسة يسأله.

فماذا قال لك؟

ـ قال إن القضية تأجلت للنطق بالحكم.. ثم كتب لي ورقة صغيرة قال إنها تاريخ الجلسة.. أين راحت؟.

وأخذ يبحث في محفظته. فلم يجد بها سوى ثلاثة أختام مربوطة ببعضها في فتلة دوبارة، وقسيمة زواج، وورقة قال إنها شرط ملكية الدار التي نزعوها منه مؤخرا ولم تكف للسداد. وكانت عين «طلعت» قد اتسعت وبرق فيها كلام كثير بعيد الغور، لكن يبدو أنه لم يستطع الإمساك به.. فقال في لهوجة:

ـ لا يهم يا خال «عبد السلام».. لا يهم.. هذه الورقة لا أهمية لها.

شوح «عبد السلام» وزفر، ثم دب المحفظة في جيبه.

ـ المهم.. هل ذهبتم إلى المحكمة يوم جلسة النطق بالحكم؟ ردت أصوات كثيرة:

ـ لا.. لم نذهب.. لم نكن نعرف.. لم يقل لنا أحد.

ـ كيف هذا؟

ـ العمدة أرسل إلينا الخفراء.. فلمونا من المنازل..

ـ العمدة كان متهما هو الآخر.. فكيف هو الذي يبعث لكم؟!

ـ لكنه عمدة.. نعم إنه متهم.. ولكنه عمدة..

ـ فكيف إذن جئتم إلى الإسطبل وصرتم أنفارا؟!.

ـ أخذنا الخفراء إلى الدوار.. وكان هناك العمدة وشيخ البلد

والأسطى فانوس وأفندية كثيرون لم نعرف من هم.. وقال العمدة إن المحكمة حكمت علينا جميعا برد ما سرقناه من الحاج سليم.. ثم صاروا بعد ذلك يأخذوننا ويتركوننا كل يوم.. ومن لم يستطع أن يدفع شيئا جاء إلى هنا ليشتغل والحاج سليم يقبض يوميته..

ـ قال «عمرو» وهو يجز على أنيابه:

ـ ليتني صدقتك يا طلعت من الأول.

وقال «عبد السلام»:

ـ نحن نستأهل مايجري لنا.

قال الجد «مهيوب» في تشف واضح:

ـ طبعا.. قضيتكم بين أيديكم.. تمسحون بها مؤخراتكم؟

ونفخ «شيخ الغفر» كل الهواء الذي في صدره، وزغد الأعرج في جنبه قائلا: «انزاح» فقال الأعرج:

ـ ما فعلنا شرا.. لقد كان ورقا.. وانتفعنا به.

قال «طلعت» في استنكار:

ـ مسحتم به مؤخراتكم..

قال «الأعرج» مستنكرا هو الآخر:

ـ ما العيب قل لي.. قبل مجيء الورق كنا نضع خراءنا تحت أقدامنا.. ها أنتم ترون الآن أن الإسطبل صار بلا رائحة نتنة.. إنني الآن أنعي الهم.. ولا أدري ماذا سأفعل بعد أن نفد الورق.. ويكون

شيخ الغفر رجلا بحق لو أعطاني الورقتين الباقيتين لأني محتاج إليهما الآن..

صرخ الجميع:

ـ والله نأخذ رقبتك قبل أن تأخذهما.

وقال «عمرو» بحقد شديد:

ـ من أدراني أن الأعرج لم يلف خراءه باسمي وعريضتي؟

فصاح «الأعرج» بنفس الحقد:

ـ ولماذا لا تكون أنت نفسك الذي لففت؟!. من ذا الذي كان يرمي تلك اللفة الكبيرة الساخنة، يوم جاءت في دماغ واحد من السائرين في الشارع خبط لزق ووقعنا في عرضه حتى تفوت الليلة على خير؟.. هيه.. قل..

لكن «عمرو» انخرس. إلا أنه صرخ فجأة صرخة مفجوعة، إذ كانت سنته قد غاصت في لسانه. وعاد «شيخ الغفر» يزغد الأعرج ثانية في جنبه قائلا:

ـ قلت لك انزاح.. انزاح يا وجه الخراب..

أمسك «الأعرج» جنبه وصاح متألما، ثم سب ديك القضية وكل من فيـها. هجم عليه «شيخ الغفر» وبرك فوقه، وظل يضربه حتى لم يعد فيهما نفس. ولم يجرؤ مخلوق على رفع صوته بالصراخ أو الصياح، بل إن المتعاركين كانا يدقان عنق بعضهما البعض في صمت، ولا صوت إلا صوت اهتزاز الجدران وزلزلة الباب والأرض..

(٢)

كانت فرقة العزيق قد انتهت من الشريحة الشرقية لحوض السلكاوي، وأمر الخولي بأن ينتقلوا للتخليص على الشريحة الغربية لأنهم في هذا اليوم فقط عليهم أن يقطعوا «فرط» حوض السلكاوي بكامله. تقدم «القيدة» حاملا فأسه على كتفه وخلفه صف من الأنفار ينتهي «بالساقة». على مقربة منهم مشى الخولي يجر ساقيه وبلغته القديمة ويطوح عصاه. كانوا جميعا يمشون في تراخ؛ ليمنحوا ظهورهم فرصة للاعتدال من عناء الانحناء الطويل.

منظرهم لم يعجب الخولي. خيل إليه أنه لم يكن قد دقق فيهم جيدا حين تسلمهم، ولو فعل، لما اكتشف الآن أنهم جميعا مصابون بالهزال أو العرج حتى «القيدة» نفسه ذو قدم طبيعية والأخرى مكورة كالقنفد بلا أصابع ولا كعب، أما «الساقة» فكان مريضا بالطحال وبعين واحدة. قال الخولي لنفسه: «هذه فرقة لا تنفع للعزيق ولا لشتل الأرز ولا حتى نقاوة اللطع.. من الجائز أن تنفع في أي شيء أما العزيق فلا، ثم بصق على الأرض، ولعن أبا الرجل الذي لايسمى، وزعق:

ـ أفرش لكم لتناموا؟.. يا أولاد الكلب يا من لا ماركة لهم؟

وانهال عليهم بالضرب..

صار كل منهم يدفع الآخر أمامه مهرولا، وأيدي الفئوس تزغد الأكتاف من الأمام وحديدها يصطدم بالوجوه من الخلف. شيئا فشيئا بدأت المسافات بينهم تتسع. وإذا بالكاتب قد خرج من بين أعواد التيل ووقف يتابعهم خلسة ويخيل إليه أنهم يرقصون رقصة همجية غامضة..

ـ عال عال.. والله عال.. أليس عندكم رقص أحسن من هذا؟..

هكذا صاح الكاتب متهللا، ولكن بصوت فيه نغمة سابت لها ركب الجميع، وارتبك الخولي وانهال عليهم بالضرب من «الساقة» إلى «القيدة» صاروا يبرطعون تحت وابل العصي، كالأغنام الهزيلة، لكن الكاتب صرخ: «قفوا» فتسمروا في أماكنهم يلهثون يلقطون النفس..

تقدم منهم الكاتب والشرر يتطاير من عينيه:

ـ نحن حقا أتينا بكم هاهنا لتشتغلوا، لا لترقصوا على شاطئ القناة.. وما دمتم قلبتم المسألة رقصا إذن لا بد وأن ترقصوا جيدا.. إنكم في النهاية لا بد وأن تتقنوا شيئا.. أي شيء.. ولكن نكلم من؟!. نكلم من وأنتم جميعا زبالة مقطوعو الحيل والقلب والنفس.. أهذا منظر أنفار «شغيلة» نهارهم لم يبدأ بعد؟!. ماذا ستكون حالكم إذن في زنقة القيالة؟!. ستموتون بإذن الله.. أنا أعرف هذا.. حضرة الباشكاتب محق في قوله إن المقاول يورد للتفتيش جثثا لم تجد

مكانا تموت فيه، فاختارتنا، أكرمها الله، لتموت في أرضنا.. إنما وحق بارئ الأرض والسموات أني ما أعرف غير الخنق باليد.. وسوف أكون مبعوث العناية الإلهية في التخليص على أي منكم إذا ما بدأ يتثاءب، لكي أريحه من التعب.. إلى أين أنتم ذاهبون الآن.. أقصد أين الفرح الذي أردتم أن تذهبوا إليه راقصين؟.. لعله فرح أمكم القحباء؟..

و«لطع» هذه الكلمة الأخيرة في وجه الخولي، الذي نكس رأسه في الأرض ولم يتكلم. فصرخ الكاتب: «انطق» فقال الخولي:

ـ كنا.. يا حضرة الكاتب.. ذاهبين إلى الشرخة الجديدة.

ـ ألا يجب الانتهاء أولا من القديمة؟

ـ خلصنا عليها والحمد لله.

راح الكاتب ينظر حواليه في الأرض مرددا بسخرية:

ـ نعم.. ماذا تقول؟

ثم أخذ يشير ببوز الشمسية إلى خطوط القطن التي يقف على ضفتها:

ـ طبعا ستقول إنكم عزقتم هذه؟

قال الخولي:

ـ نعم.. عزقناها.

مد الكاتب يده وشد الخولي من خناقه في غيظ ـ رغم أن الخولي يزن عشرة من أمثال الكاتب، إلا أن يد الكاتب، على

ضعفها وهزالها، استطاعت أن تقلب الخولي على وجهه مطوحا بيديه إلى الخلف يحمي بهما مؤخرته من الشلوت الذي يعرف أنه سيناله، وقد ناله..

شحبت الأجساد الهزيلة وتهدلت كروشها وأخذت صدورها تعلو وتهبط. وخرجت الألسنة الجافة المبيضة ومرت على الشفاه المتشققة خلسة ثم اختبأت. كانت خيزرانة الخولي قد تطايرت إلى بعيد.. فخطا الكاتب نحوها وعدلها في يده، ثم أخذ يطوحها في وجه الصف آمرا:

ـ هنا.. هنا يا أبناء المفضوحة أنت وهو.. اعزقوا الأرض بما يرضي الله..

من آخر الصف جاء «القيدة» يسحب خلفه بقية الصف. وصارت الخيزرانة تنتفض على ظهر لتستريح فوق آخر.

(٣)

ـ النفر منا إذا ضرب في النهار يظل يضرب حتى آخره.. افهم هذا.

هكذا همس «عمرو» في أذن «طلعت» الذي تملى في خط بجواره خلف «طلعت» وأعاد تقليب الشجرة من جديد. تناهى إلى اليمين مرة وإلى اليسار أخرى، وفي كل مرة دقق النظر. صرخت الخيزرانة فوق ظهر «الساقة» فاندفع الولد في الهواء صارخا وانحط فوق الأرض باكيا. وبكى «طلعت» لبكائه، فقد كان الولد يؤهئه وينوح من قاع بطنه.. فأحس طلعت أن الولد يبكي عن سنين طويلة مضت، كأنه ادخر كل البكاء لهذه الضربة فحسب.

وقف الخولي عند الشجيرة التي نط منها الولد، وبطرف العصا أشار له أن يعود. الولد يزحف عائدا وصوت بكائه يضيع في خشخشة الأوراق. دود القطن يتساقط زاحفا على الأرض والخولي يكز على أنيابه. الخيزرانة ترتفع وتهوي، وترتفع وتهوي. الولد مثل سمكة حية تنتفض فوق النار.

زحف الأنفار ببطء، الرعشة في أرجلهم، في أيديهم، في أنفاسهم، في نظراتهم..

صرخ الخولي في الولد «الساقة»:

ـ ارجع خذ الخط من أوله يا ابن الرفضي.

ـ ط.. ط.. طيب..

ـ اشتغل..

ـ حا.. شتغل أهه.. اه.. اهئ..

ـ وطي يا ابن الرفضي.. وطي..

ـ حـ.. حاضر.. حاوطي أهه.

نقص الصف واحدا، تخلف إلى الوراء قليلا. صاح الولد «الفتاش» بصوته الأخنف.

ـ لطعة مشنيرة وراء الساقة.

الوجوه كلها كشرت، ونظرت إلى الوراء خلسة، وفي همس لعنت أبا الفتاش وأمه، وقالت إنه غرباوي وسخ، وصاح الخولي بهدوء:

ـ ارجع.. ارجع اقطفها.. لا تخف.

لم يكن الولد «الساقة» قد كف عن البكاء بعد. انتصب منعقد الوجه. فوجئ بظل الخولي وراءه فصرخ. وظل الخولي واقفا في هدوء وقال:

ـ اقطفها.. احذر أن تقطف الورقة كلها.

بحرص شديد ورعشة اقتطف الولد اللطعة وارتدت بها يده

لتضعها في الكيس المعلق في رقبته. لكن يد الخولي أطبقت عليها، ورفعتها إلى فم الولد. نظر إليه الولد في رعب وانكمش. صاح الخولي: «هيا.. ضعها في فمك». ارتعد الأولاد. مالوا برءوسهم حتى كادوا يدخلونها بين سيقانهم المنفرجة لكي يتمكنوا من الرؤية دون أن يستديروا. الولد يفتح حنكه عنوة، تصطك أسنانه..

ـ أتقرف منها؟ فمك مثل المجرور.. كلها يا ابن الكلب.

وارتفعت العصا. التهم الولد اللطعة مغمضا عينيه. صار يمضغ. وحين شد «طلعت» عينيه بسرعة ليرى بهما الوريقات التي كان الدود قد أحرقها وشيطها أيقن أن الولد «الساقة» كان ـ خوفا من العصا ـ يمضغ اللطعة في استمتاع كأنها الحلاوة الطحينية.

همس «عمرو» في أذن «طلعت»:

ـ هذا ما يحدث على الدوام.. الولد عميت عيناه.. خلاص.. في كل خطوة سيترك وراءه لطعة.. سيموت من الضرب طول النهار.

ومال على خط «طلعت» وساعده في تقليب الشجيرات. اصطدمت قدم «طلعت» بقطعة من الزجاج فأمسكها ليزيحها صاح الفتاش بصوت كله سعادة:

ـ لطعة وراء القيدة.

انهار الصف كله في الحال. مالت الظهور حتى كادت تبرك في الأرض، وتقوست أخرى لتتمكن من النظر في جذع الشجيرات، وتراجعت أجساد بضع خطوات لتعيد تقليب مافات. وصارت الأعين تختلس النظر إلى الخولي في ترقب، وإلى «القيدة» في

إشفاق وتحسر.. فإن لطعة وراء «القيدة» معناها أنهم جميعا أولاد دلب لا يعملون ولا ينفعون، والمصيبة أن العصا هي التي تقول ذلك بوضوح وبلا ملل .

ولكن الخولي وقف مستندا على عصاه العوجاية، عاوجا رقبته في اندهاش.. والقيدة مسمر في مكانه. وقال الخولي بهدوء مخيف.

ـ نهارك بانت بشائره.. ارجع واقطفها بنفسك.

صار «القيدة» يمشي وسط الخط مرتعشا ولكنه ماسك جسده. مال على الشجيرة ناظرا فيها كأنه غير مصدق، ثم اقتطفها. وكان المفروض أن يفعل فعلا خسيسا يعاند به «الفتاش» ويكيد له، كأن يمزق اللطعة أو يفركها فينقص بذلك عدد اللطع في كيس «الفتاش» فتنتقص آخر النهار سمعته بين الفتاشين. لكن هذا الولد «قيدة» بحق ويعرف الأصول ولقد آذاه الفتاش حقا ولكن هاهو ذا يسلمه اللطعة سليمة؛ فأن ينقص كيس الفتاش أو يزيد أمر لا يزعزع مركز «القيدة»، إنما الذي يزعزعه حقا هو أن يترك وراءه لطعة. ثم إن «القيدة» بدأ الشغل من نفس الشجيرة، وأخذ يزحف بدربة وسرعة حتى لحق بالأنفار ـ وكانوا يتلكؤون في انتظاره.

ما إن حاذاهم حتى زغده الخولي بسن العوجاية ـ خلسة ـ في جنبه فرفع رأسه ناحية الخولي في ثبات و «تنح» له. فزغده ثانية. فنظر إليه بكراهية وقد تقلص وجهه وبرزت أنيابه الصفراء. ولما تأكد للخولي أن الفرقة لحظت كل شيء صاح في عداوة:

ـ خلي يومك يفوت على خير.. نعم.. ليس عندي خيار وفقوس.

استغرب «القيدة» فالعادة أن «القوايد» لا يجب تهزيئهم أمام بقية الأنفار.. ولم يمنع الشرر من أن ينطلق.. فأعطاه الخولي ظهره قصرا للشر، وأضاف:

ـ إن تكررت فسوف تأكلها أنت أيضا.

وهنا صرخ «الفتاش» وارتمى فوق الأرض يجعر.

نظر «عمرو» إلى «طلعت» ولكزه في فرح هامسا:

ـ يستأهل.. أنا الذي غرزت له الزجاجة في الأرض لكي تذبح قدمه فلا يفتري بعد ذلك.

اقشعر بدن «طلعت» وتضايق من «عمرو» ومع ذلك ابتسم ليجامله، وقال:

ـ حقا.. إنه يستأهل.

صراخ الفتاش يدوي، يزعج العصافير على الجزورين، يخرم طبلة الأذن. كان متكوما فوق الأرض ممسكا قدمه بيديه، والدم يتدفق ويتسرب في شقوق الأرض. جاء الخولي ورفسه بقدمه في غيظ وأمره أن يبطل الجعير. ثم تقرفص أمامه وانتزع قطعة الزجاج من بطن القدم وحشا الجرح بحفنة من التراب الأسود الرطب، ولصق فوقه ورقة قطن خضراء. أما الفتاش فقد مزق شريحة من قميصه المهترئ ولف بها قدمه وقام يحجل على قدم واحدة.

شخر الخولي، صاح..

ـ لا وحياة أمك.. هذا كلام لاينفعنا.. دس بقدمك فوق الأرض وامش، وإلا دست أنا فوق رقبتك.

فداس الولد فوق ألمه ولكنه لم يقدر على حبس البكاء. مال على أول شجرة ثم صاح بصوته الباكي:

ـ لطعة وراء الولد التلميذ.. عدو الشمس هذا..

انتفض «طلعت» لكنه ترك قلبه يسقط بين قدميه حتى لا تسقط من عينيه دمعة واحدة.

(٤)

سبعة رجال كانوا يطهرون المصرف في أسفل حقول الأرز. يصطفون وراء بعضهم.. تفصل بينهم مسافات بعيدة، وكتل الطين الأزرق تتكوم على الجانبين وتربط فيما بينهم. وكان الخولي قد جلس على مقربة منهم تحت شجرة الجميز وأخذ يبرم لنفسه سيجارة، ويتفتف بقايا ورق البافرة وينظر إلى هنا وهناك خلسة. شاربه الكثيف الأشيب أخذ يهتز فيما هو يسحب النفس من السيجارة. فتح فمه ليصب القدر اللائق من الشتائم حتى لايتصور الأنفار أنه قد نام. لكنه أغلق فمه. وتصعب، ثم غمغم: «سبحان مغير الأحوال» إلا أنه أيقن ألا مفر من الكلام، فصاح وهو يزدرد بقايا الدخان.

ـ وبعد.. وبعد يا شيخ الغفر.. ألا تريد أن تفوتها على خير؟!. اخز الشيطان يا رجل واشتغل بما يرضي الله.. حكاية أنك شيخ غفر هذه كانت زمان.. أنت الآن نفر.. أنت لست أحسن من أحد.. فلا تجعلوني أعاملكم كالصغار فأقف وراءكم بالبوصة.. وإنني لفاعل هذا بدون شك.

وكان «شيخ الغفر» يرتدي القميص الأزرق البيسه، ويخوض في الطين بقدميه ويديه مقابل ستة قروش في اليوم، لا ليؤكل بها أولاده بل ليقبضها المقاول نيابة عنه خصما من الدين الذي حكمت به الحكومة عليه. فغمغم «شيخ الغفر» وهو يكوم الطين الأزرق بيديه في قاع المصرف «هه.. لايكفيه أن الزمن الأعمى وضعه خوليا على شيخ الغفر» وضغط حفنة من الطين بيديه وطوحها على الشاطئ: «عبد من عبيد التفتيش لا هنا ولا هناك.. يعرف أننا نشتغل سخرة.. ويعرف أنني أعرف الحقيقة أكثر من غيري ثم يسوق الخولية عليّ» انحنى ليجمع الطين من قاع المصرف وقال لنفسه إنه لا بد أن يري هذا الخولي مركزه قبل أن يمرمط كرامته أمام الأنفار، ثم انسابت كومة الطين من بين يديه فانحنى يلمها من جديد.

ـ إذا لم أستطع تربيتك يا شيخ الغفر سأحلق شاربي..

هكذا صاح الخولي رافعا رقبته من بين ركبتيه. طوح «شيخ الغفر» بكومة الطين الأزرق على الشاطئ، وبصوت عال وصف فَرْج أم الخولي بأنه أحمر. هنا انتفضت كومة اللحم تحت شجرة الجميز محاولة النهوض مطوحة بالعصا، لكنها تعثرت، فانهارت متكومة، ثم سارت تتدحرج، اكتسحت في طريقها كتل الطين الطازج فتلفعت بها ثم هوت إلى قاع المصرف.

صاح «شيخ الغفر» مستغيثا، وخلص قدميه من قاع المصرف وانطلق يجري على الشاطئ.. رأى ظلالا كثيرة لرجال كثيرين قادمين يجرون نحوه. رمى بنفسه في المصرف وشد الخولي من جلبابه. فخرج يشر منه الماء الرمادي، يلهث، ينهق، يتطوح رأسه

على كتفيه. كان يغمغم و«شيخ الغفر» يسنده. حين تمكن من الوقوف على قدميه. رفع ذراعه الهزيلة وخبط «شيخ الغفر» بالقلم على وجهه. عرف «شيخ الغفر» أن الخولي ماكان ليجرؤ على هذه الفعلة في غير هذه اللحظة، فابتسم، وأمسك يد الخولي فأعادها إلى جنبه في هدوء ولكن بتهديد. تجمع بعض الأنفار وسألوا عن الحكاية، فاستدار لهم الخولي وشخط فيهم صائحا بأن الحكاية هي أن يعودوا إلى الشغل ولا يعملوها حلوانة في سلوانة.

وكان «شيخ الغفر» هو أول من استدار عائدا إلى حيث كان.

(٥)

ـ خولينا يا أبو دكة صوف.

يا أبو دكة صوف.

شربنا واعمل معروف.

اعمل معروف.

خولينا يا أبو دكة حرير.

يا أبو دكة حرير.

شربنا وانت الأمير.

انت الأمير.

واحلوَّ صوت البنت «هانم» وصار الأنفار يرددون خلفها في غناء شجي دامع. وكانت شمس الظهيرة تتوسط السماء وتركب فوق الظهور المنحنية، والحياة تسيل عرقا يتساقط فوق الأعواد النابتة.

تلفت الخولي حواليه وصار يدندن هو الآخر: «يا حلو سلامات

من العام اللي فات بهلال».. وصل الأنفار إلى حافة الزراق ـ وهو الجسر الرفيع الذي تتفرع منه الخطوط التي تنتظم الأرض ـ تلكأ «القيدة» قليلا فنظر إليه الأنفار باستحسان، وانتظروا أن يصيح الخولي صيحته المنتظرة.. «اقعدوا اتشربوا» لكي يجلسوا في الحال في أماكنهم ويتشربوا أنفاسهم لبضع ثوان. على أن الخولي صاح بينما يضغط بأسنانه على لسانه: «لا أريد اللكاعة يا ابن الحمار أنت وهو» فانتفض «القيدة» وقفز سائرا على حافة الزراق والأنفار تنط من خطوطها وتنتظم وراءه ثم تتملى في خطوط جديدة بجواره. فلما اكتمل شملهم بدأ «القيدة» يقلب الشجيرات متعمدا إظهار التعب، فاستمات الأنفار وتهامسوا: «نشف رأس الخولي» وفي الحال ارتفع صوت البنت هانم:

ـ خولينا يا ابن الأصول..

يا ابن الاصول.

شربنا من غير ما نقول.

من غير ما نقول.

اعتدل الخولي وفرد الشمسية فوق رأسه وزأر:

ـ اشتغل يا ابن اللوطي منك له.

ثم انطرحت عصاه ـ من باب المرح فقط ـ فوق ظهر «الساقة» فصرخ، ثم امتلأت الخطوط بالصراخ. فجأة ظهر الباشخولي بجانب الخولي وكان قد طلع من بين أعواد التيل، وأخذ يروح ويجيء منكسا رأسه في الأرض، يقلب الشجيرات بعصاه العوجاية

ويلقي نظرات عابرة. ثم ظل صامتا في انتظار أن يصيح أحد الفتاشين معلنا عن لطعة وراء فلان أو علان. لكن جميع الفتاشين كانوا مثل الزنابير رائحين عائدين خلف الأنفار بالعرض، ولا يصيحون بأي شيء إنما يقطفون اللطعة من وراء النفر خلسة وفي دربة، فاللطعة في هذه اللحظة فقط لن تكون وراء النفر فلان بل تكون وراء الخولي نفسه.

سرح الخولي بناظريه مطلقا من فمه صفيرا بنغمة: «يا وابور الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد» زهق الباشخولي من التنحنح، فكح وبصق على الأرض في غيظ. هنا نظر إليه الخولي صائحا بدهشه خبيثة:

ـ باشخولي؟.. أهلا باشخولي.

قال الباشخولي:

ـ اقفل هذه الشمسية..

ـ لماذا؟..

ـ الشمسية لايمسكها إلا الكاتب.. الباشكاتب.. الناظر.. أنا يا باشخولي لا أمسك شمسية.

ـ ما ذنبي إذا لم يكن عندك شمسية؟

صاح الباشخولي مشوحا:

ـ لا نأخذ منك سوى طولة اللسان.

ـ احترم نفسك يا باشخولي.

هكذا زأر الخولي ضاربا الأرض بقدمه.

ـ طيب.. طيب.. سأريك كيف أحترم نفسي.

واستدار الباشخولي وصار يهرول حتى اختفى. صاح الخولي متعمدا أن يسمع الباشخولي صوته..

ـ اقعدوا اتشربوا يا ولاد.

جلس الأنفار في أماكنهم. امتدت أيديهم وسحبت من ظهورهم قطعا من العيش المقدد راحت تطحنه براحتي اليد ثم تسفه في نهم. ومال بعضهم على بعض وهمس مؤكدا أن مايقال عن هذا الخولي يبدو صحيحا، وأن أمه الخادمة في سراي التفتيش تسنده وتحميه.

(٦)

العين تبكي وتشـاشي

وتقول الكاتب ماجاشي

والعين تبكي وتشاشي

وتقول الكاتب ماجاشي

والكاتب يعرف أن هؤلاء الملاعين يعرفون أنه قد جاء بالفعل، وأنهم لم يحلموا بمجيئه هكذا إلا لكونهم رأوه بالفعل. على أنه لم يستطع منع نفسه من الابتهاج. لكنه حاول أن يشد جلد وجهه من الآن حتى يصدق الأنفار صراخه ساعة يبدأ الصراخ، فإنه إن لم يطلق في كل فرقة بضع صرخات هائجة لايكون كاتبا بحق وحقيق، ولا يصلح لتمثيل التفتيش. هو يعرف أن الأنفار يتمنون لحظة قدومه في الظهيرة ليدون أسماءهم وعددهم، وفي العصاري ليراجع الكشوف عليهم ففي مثل هذه اللحظة يسمح لهم بالوقوف لدقائق يريحون فيها ظهورهم إلى أن ينتهي الكاتب من مهمته، ويتأكد أن هذا الصوت خرج من هذا الجسد وأن هذا الجسد هو نفسه الاسم المدون في دفتر التفتيش.

كانت الفرقة تقبل زاحفة من بعيد، متكورة الأجساد مثل صف من القرود، عارية الأذرع والسيقان والمؤخرات. رآه الخولي، فأقبل نحوه مهرولا. رفع الكاتب ذراعه وبسط كفه نحو الخولي مشيرا له بالبقاء حتى يجيء مع الفرقة على مهلهم. ولو لم تكن مياه الري قد راحت تتسرب خلال الزراريق لاخترق الكاتب الأرض ذاهبا إلى الفرقة.

والعين تبكي وتشاشي

وتقول الكاتب ماجاشي

والابتسامة غلبت مقاومة الكاتب ونـورت وجهه. وتذكر المنديل الذي فرده على رأسه تحت الطربوش. فرفع الطربوش وأزاح المنديل ماسحا عرقه فصار المنديل مثل الأرض تماما، فكوره ووضعه في جيب الجلباب السكروتة المهفهف. وفتح دفتره المستطيل وراح يفر صفحاته. على أن أذنه كانت تستلب صوت البنت التي تقوم بالحداء ويرد الأنفار عليها. في صوت الملعونة جلجلة مبحوحة تهدر في عروقه. لا بد أنها غرباوية. فالأمر الذي لا يجد له تفسيرا حتى الآن هو أن الغرباويات جميعهن حلويات الصوت، لايقصد حلاوة الصوت كأنهن المطربات، ولكن آه من تلك الحلاوة التي لم يسمعها إلا في أصواتهن، لا يستطيع وصفها، لكن شيئا ما فيها يجعلك تحس بالرغبة في البكاء، وتذرف من الدموع مايغسل صدرك من وساخة الأوجاع، ولا بد أن تتذكر أهلك وعيالك وكل ذويك في البلدان البعيدة. إنما لا. إنه لايجب أن يأكل من هذا الكلام. ومع ذلك فإن هذه الجلجلة التي في هذا

الصوت صريحة وواضحة وهو لن يتغابى أمامها. ملعون أبو زوجته التي غارت في كسحة، إنه عما قريب سوف يتزوج واحدة من أصل تركي تكون عونا له على «مصاعب» الحياة. وقال لنفسه إنه يجب أن يسأل هذه البنت عن اسمها. لا بأس من أن يمتدح صوتها. لا.. يجب أن يظل كاتبا ويطلبها الآن لمساعدة خدم السراي في أمر من الأمور.

والعين تبكي وتنوح.

وتقول الكاتب مروح.

وهدرت موجة الأصوات. كانت ثمة ظلال قاتمة يشتد زحفها. استغرب الكاتب كيف يخرج هذا الصوت الحلو من هذه القرود العمشاء؟. أحس بأنه يجب أن يؤجل فكرة دعوة البنت للمساعدة، ثم بصق، وكانت عينه قد سطت على البنت الغرباوية فذهب إليها بينما كانت مستمرة في الحداء.

التحمت عيون الظهيرة بعيون الأنفار، وسرت وراء الكاتب عدة خطوات ذاهلة. وقف ناظرا إلى البنت نظرة التوت لها كل ملامحه التواء شريرا. تدفق الدم في خدي البنت وأزاح عن وجهها القشرة المحروقة، كان جسدها قد استوعب الخطر الغامض المجهول. الكاتب يحاذيها وهذا شرف يستوجب الترحاب. انهزمت الابتسامة التي كانت مثل كرة من البللور تتقافز فوق ملامحها بينما هي تنتفض رافعة يديها تتقي بهما شرا غامضا. ثم إنها صرخت، ووقعت على الأرض، لكن عيون الظهيرة لم تصدق أنه زغدها بعنف في جنبها. وحين رفعها عن الأرض قابضا بكفه على ذراعها ليزرعها واقفة ثم

يصفعها على خدها جحظت عيون الظهيرة واجمة. وكان صوت البنت يتلوى مع المياه الداكنة المنسربة خلال القنيان والزراريق، وبنفس الجلجلة التي كانت تغني بها بكت بحرقة.

انكسرت العيون، وتقهقر الكاتب بعد أن زرعها في الصف من جديد. راح يلهث ويعدل طربوشه. ثم أخذ ينادي الأسماء وإثر كل اسم يتسمع كلمة: أفندي. وإذ صار كل شيء على التمام وطوى الكاتب دفتره تحت إبطه حاذاه الخولي وهمس في أذنه:

ـ ما الأمر يا حضرة الكاتب.. ما الذي فعلته هذه البنت؟

طوح الكاتب رأسه ودمدم في اشمئزاز:

ـ بنت كلب.. غرباوية.

ـ نعم.. ولكن ماذا فعلت حتى نريها شغلها.. لا بد أنها أجرمت.

فهز رأسه ثانية وتهيأ للسير وهو يتمتم:

ـ إنها بنت كلب والسلام.

واستعد ليقفز القناة. وكان هدير الأصوات المتباعدة قد بدأ يودعه بنفس النبرة، وبحداء نفس البنت: العين تبكي وتنوح.. وتقول الكاتب مروح.

الفصل الحادي عشر

لغة المسوَقة

ركبوني الرحا وقالوا شديدة
يا كلم بالهنا والليالى السعيدة
طحين الرحا ع الشباب قاسي
وأنا عجيبة من عجايب ناسي
طحنت الرحاية مالقيت لي حيل
ليه العجوزة اللي ماتنام الليل؟
طحين الرحاية ع الشباب عذاب؟
ليه العجوزة وخادم الأحباب
نزلوني سوق العبيد ورضيت
وعيطوني باسم المرة.. مارضيت
ونادوا وقالوا: يا بخيت رضيت

(من أغاني الرحا)

(١)

جلس «عشم أفندي» الباشكاتب في شرفة السراي واضعا رجلا على رجل. رغم أنه لم يكن هناك ذباب ولا بعوض في تلك اللحظة إلا أنه حرص على حمل المنشة في يمناه. لم يكن هناك شيء محدد يريد أن يفعله. راح يتلفت حواليه محاولا أن يكون ملكا أو رجلا عظيما: ولا بد أنه كان يتساءل: لماذا جمع خفراء التفتيش كلهم الآن تحت السراية؟ من المؤكد أنه كان يريد أن يكلفهم بشيء.. فما هو هذا الشيء؟. المؤكد أيضا أنه شيء مهم.. اللعنة.

ارتكن بكوعيه على حافة الشرفة. رآهم ينكمشون يتداخلون في بعضهم ويصلحون من هيئاتهم. انبسطت ملامحه نطقت بالسعادة. ظل هكذا برهة طويلة. تحركت شفتاه لكن دون صوت. أخذ يذب الهواء في عصبية. جلس مسندا ذراعه على حافة الشرفة. أخذ يدعك في جبهته، كأنه بدعكة مقبلة سوف يمسك بذهنه ويقرره بالشيء الذي يريد.

* * *

.. لم يتحرك أحد من الخفراء. ظلوا كما تركهم منذ برهة. لكن

عيونهم دب فيها نشاط سريع، راحت تتقافز نحو بعضها في خبث ضاحك، تشير لبعضها البعض إلى حافة الشرفة. لمحة سريعة والتقت كل العيون على نقطة واحدة، ثم اندفعت الأجساد تهتز في عنف بفعل ضحكات مكبوتة تتمرد على الحبس في الصدور، فتخرج من الأنوف والحلوق، لتهرب وتختفي في الحال وقد تنكرت لها الوجوه بسرعة. لم تكن النقطة التي التقت عليها العيون سوى رأس مقبض المنشة العاجي المستطيل، المبروم في شكل معين، البرونزي اللون، الذي ينتهي برأس مقلوظة تترك في الذهن انطباعا قبيحا.

أخذت الضحكات الهاربة من محابسها تطوف بأذهان الخفراء ثم ما تلبث أن تعود إلى حيث انطلقت لتنطلق من جديد، تتحول إلى حوار هامس غير منطوق. حوار كثيرا ما دار بينهم في غير هذا المكان حول هذه المنشة وحول مقبضها هذا بالتحديد.. فعشم أفندي لا يترك هذه المنشة من يده أبدا حتى وهو نائم. حينئذ يضيف أحدهم قائلا في خبث: «بل هو لا ينتفع بها إلا عند النوم». وهنا يتطوع ثالث فيمتدح اليد العاجية ونعومتها، ويمتدح ـ في نفس الجملة ـ شباب الست إجلال.. وجسدها المتفجر بالحيوية. تصطدم هذه الصورة بصورة «عشم أفندي؟ بساقيه الهزيلتين فتنفجر الضحكات صاخبة عالية مدوية في الحقول البعيدة العريضة.

* * *

ارتعد «عشم أفندي» وكذب أذنه في أن يكون ماوصل إليه ضحكا، ثم هب واقفا في غضب شرس. مال بجذعه فوق الحافة

شاملا الجميع بنظرة مؤنبة مستفزة. الوجوه صامتة. لكن صمتها يشي بأنها انتهت لتوها من إفراغ شيء كان يثقل الصدور ازدادت حيرته. بصق في الهواء بغيظ، جلس، يكاد يعصف به الغضب. صفق بيديه.. وطلب شيخ خفراء التفتيش.

* * *

تقدم شيخ خفراء التفتيش ومثل بين يدي الباشكاتب ينتظر أوامره، انجعص الباشكاتب وذب الهواء بالمنشة كما يفعل علية القوم القادمون من الباب العالي. تصلب شيخ الخفراء في وقفته باحترام كبير، ولا بد أن رأيه في هذه المنشة ـ الذي كثيرا مارده بين الخفراء ـ قد طاف بذهنه الآن. ففي رأيه أن التفتيش قد سلم هذه المنشة «لعشم أفندي» مثلما يوزع البنادق على الخفراء والعصي على الخولة والباشخولة، فإذا كانت البندقية سلاحًا للخفير والعوجاية سلاحا للباشخولي والخيزرانة سلاحا للخولي والكرباج سلاحا للناظر؛ فالمنشة أيضا سلاح للباشكاتب.. كيف يا شيخ الخفر؟.. افهموا يا بهائم.. فبها. نعم بهذه المنشة يقتنع الأنفار كلهم أنه ليس موظفا مثل أي موظف، إنما هو ذو صلة وثيقة بأصحاب الوسية، يتقمط بالبذلة مثلهم. ويلبس الطربوش والبرنيطة، ومثلهم أيضا لا يدع المنشة من يده، هكذا علية القوم كلهم. وهكذا أيضا لا تكف المنشة عن الذب يمينا وشمالا خاصة حينما يمثل أحد على شاكلتنا بين يدي أحدهم.

انحرف شعر المنشة ولسع وجه شيخ الخفراء. ارتعد. خيل إليه أن المنشة عرفت ما يدور في ذهنه، فكف ذهنه عن التفكير تماما.

ظل واقفا كالصنم حتى ينتهي الباشكاتب من رشف القهوة. ويبدو أنه خاف أن تعلن المنشة عما رأته في ذهنه فتقدم باهتمام وأشعل عود الكبريت أمام سيجارة الباشكاتب لكن ذبة واحدة من المنشة أطارت العود والعلبة من يده فلم يفكر في الانحناء لاستعادتها.

شخط الباشكاتب:

ـ هيه.. ماذا تم في الإسطبل؟

ارتخى شارب شيخ الخفراء..

ـ كان المفتاح لدى الست.. ولم نعرف.. أقصد.. لم نعرف ما كان يحدث.. رفع الباشكاتب رأسه باهتمام..

ـ هل حدث شيء جديد بالداخل؟

ـ مايحدث كل يوم.. الصراخ طول الليل.. العراك ـ الناس تجرأت.. تشتم التفتيش والمقاول والعمدة والقاضي. هناك أيضا الولد الذي يغني في الليل ويترحم على رجل مات كان بيده الأمر، والبلدة كلها تسمعه وتبكي بحرقة.. ثم إنه يستغيث قبل أذان الفجر كل يوم.

اعتدل الباشكاتب.. هتف:

ـ وماذا بعد؟

ـ كنا في العادة نضرب الباب بدبشك البندقية فتنقطع الأصوات في الحال وتختفي.. أما اليوم فإنهم يلعنون أبا الكبير في هذا البلد.

خبط الفنجان في الطبق:

ـ وما السبب في هذا؟..

ـ الله أعلم

ـ لا بد أن تعلم.. ما وظيفتك هنا؟..

ـ والله.. يا سيدي.. إنهم.. الأنفار.. يقولون كلاما كثيرا نسمعه في الليل.. يقولون مالم نسمعه في حياتنا أبدا عن الأنفار.. لقد نفخ الله في صورتهم، فجعلهم يرفعون صوتهم على آخر الزمن.

وقف الباشكاتب:

ـ ماذا يقولون؟..

ـ كلام كثير.. عن الأجرة التي.. عدم المؤاخذة أكلها المقاول.. عن الذمة التي شبع الحصان من الجري فيها. يقولون أيضا عن.. حاميها.. و.. عدم المؤاخذة.. حراميها.. يضحكون كثيرا يا حضرة الباشكاتب.. ولما نبهنا عليهم بأن يكفوا عن هذه المسخرة ويتركوا سيرة العمدة والمقاول والتفتيش أثناء ضحكهم بدأ الولد يغني وهم يزأطون خلفه.. ويستغيث ويؤذن للفجر كأن جامع أمه في الإسطبل.

ـ يستغيث؟!

ـ أي نعم.. بكلام جديد لم نسمعه من قبل.

أنهى الباشكاتب آخر شفطة في الفنجان، وأخذ لسانه يلوك طعم البن في فمه. والمنشة لاتكف عن الحركة. أشعل سيجارة أخرى وزام وراح ينظر إلى شيخ الخفراء في تشكك. الأمر الذي جعل شيخ الخفراء يضع وجهه في الأرض.

ـ اسمع يا شيخ الغفر.. أنت لست صريحا.. أنت من حزب الست هنومة زوجة الناظر.. انتفض شيخ الخفراء وخبط صدره بيده..

ـ أنا؟.. أبدا والله.. أنا من حزب التفتيش. وأنا خادمك..

ـ اعتدل الباشكاتب؟

ـ جاءني من يخبرني أن في الأمر مظروفا وورقا.. وولدا صغيرا يقرأ.. محاضر وبلاغات وقضية ومحكمة.. وبلد وتفتيش ومقاول وأنفار وعمدة وخفراء وكاتب وباشكاتب وجمعة المؤذن فما هذا الكلام؟.

شحب وجه شيخ الخفراء. ابتلع ريقه. تنحنح:

ـ والله يا حضرة الباشكاتب.. الحقيقة يعني.. كنت وأنا أمر في الدرك حول الإسطبل أسمع ولدا يقرأ.. وكنت أقف لأتنصت.. فأسمع كلاما غريبا.. كلاما مما تقوله ناس أمام النيابة، وتقوله النيابة نفسها.. والولد يا حضرة الباشكاتب لبيب وفصيح.

وقف الباشكاتب. اندفعت شعيرات المنشة تلسع الهواء في غضب. انزاح الطربوش إلى الوراء ثم أعيد إلى الأمام.. «إذن فكلام الأعرج صحيح.. وكنت أظنه يكذب من أجل مكافأة».

ـ هل قلت الأعرج يا حضرة الباشكاتب؟.

صرخ..

ـ لم أقل شيئا..

ـ لا بد أن أذني أصابها الطرش.

ـ في الإسطبل فتنة.. أتفهم يا بهيم؟

ـ نعم..

ـ في الإسطبل فتنة.. جازاها الله زوجة الناظر.. هي السبب في هذه الفتنة.. يعني لو سمعت كلامي وتركت الأنفار يبيتون في الخلاء لما كان هناك الآن ما يقلق بالنا.. كانوا يسرقون البلد نعم.. ولكننا كنا نقبض على اللصوص ونحبسهم وينتهي الأمر.

ثم جلس. أشعل سيجارة. سكنت المنشة تماما..

ـ اسمع يا شيخ الغفر.

ـ نعم..

ـ اذهب الآن وهات العمدة وشيخ البلد والأسطى فانوس. قل لهم إنني أريدهم في الحال.

ـ سأذهب.

ـ سأبصق هنا بصقة.. إذا لم تعد قبل أن تجف هذه سأريك شغلك.. استدار شيخ الخفراء وانطلق يجري في اتجاه البلد. ونسي أن يكلم الخفراء الواقفين تحت الشرفة، فظلوا كما هم، لايتحركون.

(٢)

اجتاز باشخولي السراي عتبة داره في غبشة الصباح الباكر.. فهلل لخطوه سقف الدار المعرش بالبوص وأعـواد الحطب. زقزقت بعض العصافير المنتمية بأعشاشها إلى هذه السقوف منذ أزمان بعيدة. انطلقت يمامة ثم حطت على قبة الفرن فوق برام منكفئ على وجهه وأخذت تدعو الناس أن «وحدوا ربكم.. وحدوا ربكم» ـ هكذا تقول اليمامة كلما صاحت.

راح باشخولي السراي يقلب كافة الأواني المنكفئة ليبحث تحتها عن طعام يزدرده بعد طول الجري والكلام. لم تذعر اليمامة، لم يطر العصفور حتى السحلية المتلونة بلون الرماد والطين ظلت تبرق بعينها في عنق الحجر. لم يجد الباشخولي شيئا يأكله. عاد إلى المصطبة التي في صدر الدهليز. حياه الكلب «عتريس»، بأن مط رقبته وتثاءب ثم تلمظ، وخفض رأسه خفضة سريعة كأنه يتوقع ضربة مفاجئة، غير أنه لم يبدُ عليه الخوف أو الفرح.

جلس فوق أول درجة من السلم الطيني المتآكل المواجه للباب؛ صدره يعلو ويهبط في غضب. ماذا يفعل بحق الله؟. لقد صنع

المستحيل كي ينفرد وحده بالبقاء في هذه الدار مع أهله وعياله، لكن هذه المخلوقات تأبى إلا أن تشاركه فيها، تفرض نفسها بالقوة.. نعم وأي قوة أشد من قوة هذه المخلوقات.. إن سد بالطين جحرا خرج له الفأر من تحت الصندوق أو من داخله.. وإن سحق رأس ثعبان أطلت له أخرى من شق في سقيفة الدار. تصدت الدار كلها ليالي بطولها وقامت بتنقية أجساد بعضها البعض من القمل والبراغيث كما تعمل في تنقية الدود من أشجار القطن، ومطاردتها في ثنايا الوسائد والملابس ولا فائدة.. أما الحمام واليمام والعصافير فلا ضير منها. ربما كانت هي والكلب «عتريس» تؤنس وحشة الدار وتملأ الليل زقزقة وهديلا ونباحا.. لكن أغيثونا من بقية المخلوقات التي تشفط دمنا من العروق.

يا رب هل كتب علينا أن نبقى في هذه العيشة الهباب إلى مالا نهاية؟. الجميع يغتني وينتقل إلى دور جديدة، وفلوس جديدة، أما أنا فتكفيني هذه الخرابة، الحق عليّ طبعا لأنني سكت على هذا. اندفع واقفا ومضى في اتجاه القاعة الجوانية: كلما شكوت حالي للباشكاتب شوح لي قائلا: دعك من «الفلسفة» فو الله يا ناس لا أنا ولا أبي عرفنا يوما ما هـذه «الفلسفة» لا لبسناها ولا أكلناها ولا شربناها ولا عرفنا لها طعما أو صنفا أو مكانا، لا أفهم من أمرها شيئا سوى أنها تجيء دائما في وجهي كلما شكوت حالي.

دخل القاعة، تتحسس عيناه الظلام.. لقد عرفت أن هذا التفتيش نذل وابن كلب، وكل من يخدمونه كلاب من ظهور كلاب. تعثر وانكفأ على وجهه. نهض. نفض يديه من التراب؛ إذا كانت «الفلسفة» هي أن أنتقل بأولادي إلى مسكن نظيف من مساكن التفتيش فأنا

سوف أظل في «الفلسفة» على طول.. رائحة الظلام المختزن تضيق صدره.. هاهم الأنفار.. الأنفار.. قد حصلوا على مسكن، قصر يسمونه ظلما بالإسطبل. صحيح أنه بني للبغال والجياد والأبقار والأغنام، لكن من قال إن الأنفار يمكن أن يصبحوا في معزة ساكنى الإسطبل السابقين، من كان يتصور هذا؟ أن ترتقي الحال بالغرابوة هكذا؟. والله إن الأيام كانت تلعب لمصلحتهم في السنوات الماضية، فالتفتيش يستجلب قطعانا جديدة من الخيول والأبقار من أنواع غالية الثمن.. قامت في دماغ المفتش. نعم.. أيامها كنت سائسا في الإسطبل وعرفت ورأيت كيف قامت في دماغ المفتش.. قال: سأبني إسطبلا جديدا داخل سور السراية نفسها، حتى يستطيع الواقف في ڤراندة السراي أن يميز ويختار منها مايصلح للركوب أو للذبيح في الحال دون مشقة.. أيامها لم نصدق.. لكن ذلك الأفندي الرفيع المدعو الباشمهندز راح ينط شمالا ويمينا فما مر شهر واحد حتى كان الإسطبل الجديد يفتح أبوابه لسكانه الجدد. هنيئا لكم يا غرابوة يا أولاد القحباء، ولكن من حقنا أن يكون لنا من الحب جانب.. إنما لي مع التفتيش كلام.. بس صبرك.. إن كان حضرة الناظر يسكن في قصر ذي ڤرانده، والباشكاتب يسكن في قصر ذي بلكونة، فباشخولي السراية من حقه أن يسكن في بيت ذي سقف وبه فرش وغطاء..

مضى خطوات أخرى في جوف الظلام. قال لنفسه إنه حين كان سائسا في الإسطبل كان ينام في حجرة مبنية بالتبن، مبلطة، حتى مصطبتها هي الأخرى مبلطة، الماء فيها حنفية وخرطوم ودلو، وما أحلى النوم ساعة القيالة فوق هذه المصطبة الساقعة.. اليوم أنا

باشخولي السراي يحسدني الناس ولكنني أسكن في هذه الخرابة التي حسبوها عليّ دارا. على أي شيء يحسدني هؤلاء المغفلون؟

تعبت عينه من الظلام. توجه إلى الركـن حيـث أمسـك بجريدة طويلـة دفع بها غطاء «الناروزة» فانزاح عن فتحة في السقف انهمر منها شعاع الشمس مثل عامود أزرق من النور والغبار والدخان. انكشفت القاعة. الطاقة التي في أسفل الجدار المقابل لا تزال بها علبة الدخان كما تركها بالأمس فارغة..لقد نسي أن يمر على الدكان ليشتري دخانا على الحساب. ابتسم حين رنت في دماغه قولة: على الحساب، فهو الآن مثل الأفندية في الميري يقبض كل شهر. بيت النية على أن ينزل البلد اليوم ليشتري شايا وسكرا ودخانا. مد يده تحت المخدة وسحب «النوتة» الكبيرة ذات الجلدة السوداء التي تشبه المحفظة الأنيقة مكتوب عليها بالأصفر كلام..

ارتعش شاربه وهو يسحبها. امتدت يده اليمنى لتبرم طرف شاربه وهو يتذكر «بكري» صاحب الدكان حين أغراه بربع أوقية دخان من أجل أن يأخذ هذه النوتة يقيد فيها حساباته، لكنه برم شاربه كما يبرمه الآن وقال له: «أنت أحسن مني؟.. أكتب فيها حسابي أنا وتبقى عندي» كان سعيدا أن «بكري» يعرف أن باشخولي السراية يستطيع أن يحصل على مثل هذه النوتة الكبيرة المحترمة.

.. برزت النوتة أمام عينيه سوداء لامعة جديدة. لورقها رائحة تدخل الخياشيم، وشخبطة «بكري» بالقلم الكوبيا في الصفحات الأخيرة لها رائحة هي الأخرى. أخذ يفرها مثلما يفعل كلما أمسك بها. تواترت صفحات مكتوبة بالحبر الأخضر وراء بعضها. ارتعد.

ارتكن إلى الحائط. الرعشة تتمشى في جسده. سقطت النوتة من يده. عامود الضـوء الأزرق الساقط من «الناروزة» يتضخم ويصير كبيرا ثم يختفي ويسقط الظلام، وتتأرجح الأرض.. وتزحف وتختفي به في خلاء بعيد بعيد.

.. كان «الرجل» يركب الحمار على شاطئ القناة وهو مختبئ في بئر الساقية.. يطل برأسه كل برهة ليرى أين ذهب الحمار. وكان باشخولي السراي السابق «عبد السلام» الذي هو في الإسطبل ـ الآن ـ قد مر به عائدا إلى البلد يلهث، وكانت دورية المساء قد تركت الرجل يمشي في حاله. مر به الحمار يدقدق أرض الليل و«الرجل» فوقه يتمايل ويحاول أن يهدئ من الجري. كان لا بد له أن يترك بئر الساقية ويمشي وراء الحمار فإن حضرة الناظر حين جاء به إلى هذه الناحية بالكارتة لم يكن يقصد أن يفرجه على بلدة أخرى، إنما أتى به ليفعل شيئا ما، ولا بد أن يفعله، وإلا فسيبقى كما هو سائسا في الإسطبل ولا يصبح «باشخولي السراي» كما يريد. قال لنفسه ساعتها: كيف عرف حضرة الناظر أن هذا الرجل سيمر من هذه الطريق في هذه الليلة؟

لكنه قال لنفسه أيضا: حضرة الناظر يستطيع أن يعرف مايشاء وهذا ليس شغلي أنا.. عليّ فقط أن أفرغ هذه الغدارة في جسده، ثم بدأ في الحال فأحكم النيشان. اهتز الفضاء. تطايرت العصافير ونهق الحمار وهاج، وهوى الرجل في الأرض واندفع الحمار يبرطع في الحقول البعيدة حتى اختفى. ذهب إلى الجثة. كانت يدها تقبض على حقيبة جلدية جميلة. نزعها ودحرج الجثة في المصرف بعد أن ربط فوق صدرها حجرا كبيرا. ارتد عائدا. كانت الكارتة تنتظره

على السكة الزراعية البعيدة، لكنه حين وصلها لم يجد بها أحدا، حتى الحوذي لم يجده. أطلق صوته في الفضاء العريض مناديا عدة مرات، فلما لم يجبه أحد ركب الكارتة وانطلق. لم يطق صبرا. فتح الحقيبة. لم يجد بها سوى حزمة كبيرة من الأوراق داخل مظروف أصفر، ونوتة ذات جلد سميك لامع. ارتعد، قال لنفسه إنه سيتخلص من هذه الأوراق ويحتفظ لنفسه بالحقيبة. وكان قد دخل في زمام التفتيش والفجر يقترب، فهبط ليفعل مثلما تفعل الناس، ثم حفر حفرة صغيرة في أكوام الردم ودفن المظروف وأهال عليه التراب وعاد إلى الكارتة فركبها. لكن الحقيبة أفزعته، وأحس أنها ربما تدل عليه الحكومة، لم يجد في ذهنه كلاما يرد به حينما يسأله أحد: من أين جئت بهذه الحقيبة؟. ففي الحال نزع الخنجر المربوط في ذراعه وراح يمزق جلد الحقيبة إلى قطع صغيرة يطوح بها في الترعة، أما النوتة فإنه استخسرها ولا بد أن من يراها سيعتقد أنه أخذها من التفتيش، وأحس بسعادة حين وجدها تستقر مستريحة في جيب صديريه. الناظر لم يكذب عليه في الحقيقة، قال له: «سأعينك باشخولي السراي بعد أن تفعل ماطلبت منك» ولقد صدق. لكنه لم يصدق أبدا حين قال له: «ستكون مبسوطا وكل ماتحتاجه تأخذه مني أنا» .. فما الذي أخذه يا حسرة؟.. يومية كالتي كان يأخذها من قبله «عبد السلام» كل ما في الأمر أنه بدلا من أن يقبض كل جمعة صار يقبض كل شهر، يا فرحتي.

زيق باب الدار فارتعد، ورمى النوتة وخرج إلى وسط الدار.

* * *

انفتح الباب على وسعه. دخلت زوجته «دهبية» مثنية ساقيها عبر العتبة خوف اصطدام السقف بالبلاص. صبحته بالخير فسألها إن كان عندها شيء «يطفحه» فمالت تسند البلاص بجانب الزير وتضع الكوز فوقه قائلة: عندي..

ـ قالتها بلهجة معجبانية واعدة، فما الذي عندها يا ترى؟. اقتربت منه تمسح يديها في ثوبها وتقف أمامه برهة. كاد ينهرها. لكن شيئا ما على وجهها منعه عن ذلك.. لعله التعب الشديد الذي يتمشى في خدودها ولعله الذبول في عينيها.. مسكينة.. كثيرا ما انتهرها لا لشيء إلا لكونه باشخولي السراية.. وكثيرا ما أنب نفسه وتعجب كيف تعود على الشخط والنطر والزغد والتوبيخ حتى مع أولاده؟.. لكن.. اسكت يا شيخ.. أنت طول الليل والنهار في شغل التفتيش.. أنت على الدوام باشخولي السراية و«دهبية». إنها مثلك تماما. كان الله في عونها.. لا تهدأ لحظة واحدة. من بيت الناظر إلى بيت الباشكاتب إلى استراحة السراية إلى الدار.. كانسة غاسلة طابخة ناقلة للمياه من الآبار البعيدة.. طول عمرها تباريك في الجري على السكك في خدمة التفتيش.. كثيرا ما التقينا سويا في مكان واحد لغرضين مختلفين كلاهما يخص التفتيش أو بعض أهله.. لكنني خنشور لا أعطي هدية أو حلاوة بق.. أما أنت يا دهبية، فبفضلك وبحلاوة لسانك نكسو الأولاد ونطعمهم.. أعرف أنك الآن مهدودة الحيل.. قضيت النهار في خبيز الست «هنومة» والليل في غسيل الست «إجلال»، ومع ذلك صعبت عليك دارنا ألا تنال من عنايتك ماتستحقه وها أنت تشمرين الذراعين تسحبين المقشة تتقرفصين تبدئين في الكنس، هذا والله حرام.

ـ تعالي يا دهبية.. اتركي الكنس الآن.

سأفرش لك الحصير لتأكل.

ـ أنت مهدودة الحيل.

ـ فشر.

ثم أكملت استدارتها حول نفسها وهي متقرفصة لا تزال تعمل بالمقشة:

ـ تحمل شيئا على دماغك.

ـ أحمل الدنيا كلها.

ـ كفى الله الشر.

ـ لا أعرف.. لكنني غاضب على هذه الدار.

ـ قل لي.. ما الذي يحدث الآن في الإسطبل؟

ـ لا أعرف.. لا أعرف.

ـ إن الدنيا قائمة على زبانها.

ـ الست هنومة تريد أن تحرق الست إجلال.. وحضرة الناظر لايطيق رؤية حضرة الباشكاتب.. والباشكاتب يلصق به كل التهم.. كل واحد يقول إنه خائف على مصلحة التفتيش.. ها.. وعليّ الطلاق مايخاف الواحد منهم إلا على مصلحته هو وحده.

ـ أي.. ي.. ي.. كيف يا كامل؟

ـ أحدهما يتاجر في عرق الأنفار.. والثاني يتاجر في محصول التفتيش.

أخذت «دهبية» تتلفت حواليها في توجس، تنظر في ثقوب الباب تبحث عن الآذان التي هي للحيطان. اغتاظ الباشخولي وصاح:

ـ مم تخافين.. كفرنا؟

ـ اقفل فمك واخز الشيطان.

ـ لم يضيع الأنفار سوى الخوف.. نعرف كل شيء ولا نفتح فمنا بشيء.. ولو قلنا كنا قبضنا الثمن.. لكننا نسكت.. نتخيل أن السكوت له ثمن.

ـ ضحكت «دهبية»، شوحت:

ـ عشنا وشفنا.. للسكوت ثمن.

ـ كل واحد في هذا التفتيش يعيش من الثمن الذي يقبضه جزاء سكوته.. هل يفعل أحد شيئا؟.. أبدا.. كل واحد يرى ويسكت.. وكل من يقولون له: افعل كذا.. يفعل.. ويسكت.. وكل واحد يحب دائما أن يعرف.. ليتعلم كيف يبدو عليه أنه لايعرف.

ـ كامل.. قم يا حبيبي لتأكل.

ـ أحضرى لي «الطفح» ها هنا.

ذهبت «دهبية» وأثناء عودتها سمعته:

ـ أنا أحسن واحد في التفتيش «لايعرف شيئا».. إنما والله لن أسكت بعد اليوم.

الطبلية توضع أمامه:

ـ ما الذي ستفعله بحق الله.. هه.. ما الذي ستفعله؟

وقفت شعرات ذقنه البيضاء، كادت تسود في نظر «دهبية» لشدة الغضب الذي تراه لأول مرة في وجه زوجها.

بقي ساكنا برهة، وفجأة..

ـ إنك تستهزئين بي.. إنما أنا.. الذي يجلس أمامك هكذا.. يستطيع أن يفضح أجعص من هؤلاء.. إنني أعرف الكثير يا دهبية.. لكنني لا أستطيع الكلام. ولقد طال سكوتي حتى ظنوا أنني، بحق وحقيق، لا أعرف شيئا.. مع أنني لو فتحت فمى لأتثاءب فسوف آخذ نقودا.. هاتي الأكل هاتي. أنت عبيطة.

برقت عينه بفرح صبياني مفاجئ. عاد يتفحص ما أمامه على الطبلية غير مصدق لما يرى. ماهذا.. ماهذه الأملة؟

ـ نصف ديك رومي.

ـ ظننته نصف حصان.

ـ كل.. بالهناء والشفاء.

ـ لكن من أين؟

ـ الست هنية.. كانت تنتظر ضيوفا.. فكسرت رقبة أكبر ديك في «عشة» التفتيش.. ولم يحضر أحد.. فجاء من نصيبنا.

ـ إنه أعلم بالحال..

طبق من الكسكسي يخرج من تحت الطبلية تفوح منه رائحة السمن البلدى المقدوح، ورائحة الشواء.. لم يضع وقتا. مد الملعقة

الخشبية وراح يداعب الكسكسي ويطوح به إلى فمه في نهم، ثم قال وهو يفسخ اللحمة إلى قطع صغيرة:

ـ دهبية.. هذا الكلام لايخرج من عتبة الدار.

ـ كلام ماذا؟.

ـ الذي قلته لك الآن.

ـ وحق أشرف خليقة الله لا أتذكر شيئا مما قلت.

داعب شفتيها بشريحة من الفخذ وطوح في فمه بأخرى:

ـعلى فكرة.. كلامي هذا دليل على حبي لحضرة الناظر.. ورحمة أبي إنني أتمنى له الخير دائما.. إنه يعرف أنني، أعرف وأسكت.. أسكت من أجل خاطره هو فقط.. لكن لو على حد الباشكاتب كنت قلبت الدنيا على رأس الجميع.

هتفت فيما تضع يدها على سيالتها:

ـ فكرتني.. الست إجلال أعطتني ورقة شاي.

آن له أن يعقد «زردة» شاي محترمة يعدل بها رأسه:

ـ طيبة والله هذه السيدة.. إنني أحبها.. والله ما أحد غيرها يجعلني أطاوع الباشكاتب.. إنها سُكَّرَة.. لو وضعت على الجرح يطيب.. أما الباشكاتب استعنت عليه بالله.

قالت «دهبية» في غبطة:

ـ إنه سيجعل ابننا خادما في أم الدنيا.. عند قريبة له هناك.

تراجعت الملعقة عن فمه. هتف غير مصدق:

ـ بالذمة حصل؟

ـ الرجل لم يكذب عليّ أبدا.

ـ إنه رجل طيب والله.. إنني أحبه كل الحب هذا الباشكاتب.

طرقات على الباب. نداء:

ـ كامل يا سليم.. يا كامل يا سليم.

توقفا عن الأكل. أنصتا تجاه الباب. قال الباشخولي:

ـ من ينادي؟

ـ افتح.

ارتعش. نهض. فتح الباب:

ـ شيخ الغفر؟

قال «شيخ الغفر» لمن معه:

ـ هذا هو كامل سليم الذي تطلبونه يا أسيادنا.

أخذت «دهبية» تلم الأكل بسرعة. أما الباشخولي فقد راح ينظر فيمن يقفون بفتحة الباب: ثلاثة رجال غلاظ، الواحد منهم يفلق الحائط بسيف اليد الواحدة. قال:

ـ ماذا.. ماذا؟

أشار له «شيخ الغفر».. فخرج. قال:

ـ أنا عائد بعد قليل يا دهبية.

ثم أغلق الباب خلفه ومضى معهم.

* * *

ماذا حدث.. خير يا جماعة؟

ـ أنت مطلوب.

ـ أين؟

ـ في المديرية.

ـ المديرية؟

استدار الباشخولي «كامل» عائدا ليبلغ الخبر إلى «دهبية» لكن يد كبيرهم كانت قد طوقت عنقه وأدارته في عنف. فنظر إليه الباشخولي محاولا إخفاء غضبه، لكنه نكس رأسه وسار.

* * *

كان الباشخولي يتوقف من حين إلى حين ويسأل:

ـ خير.. لماذا لا تقولون لي؟

فلا ينطق أحد. فيمشي. ثم يقترب من كبيرهم هامسا:

ـ أنا كامل عبد الحميد كامل سليم.

ـ نعم.. أعرف أنه أنت.. وإلا ماجئنا بك.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا أعرف.

ظل يمشي معهم. يخرمون من قلب الأراضــي. يتخطون المصارف. جاء الظهر وجاء العصر واصفرت الشمس ثم احمرت ثم هبط المساء وهم ما زالوا يسيرون بلا طعام.

فجأة توقفوا. رفع الباشخولي رأسه عن الأرض قليلا، فإذا بالأرض التي أمامه كلها لامعة، فبدت في الليل المدلهم مثل بقايا شحم يلمع في قاع إناء جوفه داكن، كان التعب قد هده، وبدأ يرى أشباحا تقف على رءوسها أمامه. دعك عينيه، فتحهما بصعوبة. أمامه بحر عريض هائل لم يره من قبل أبدا. اقشعر جسمه وشل لسانه فوقف ذاهلا صامتا. فوجئ بمن يطوقه من الخلف ويكتفه بحبل ويعصب عينيه بمنديل. فوجئ بنفسه يتهاوى بسرعة، ثم يهتز في الفضاء رائحا غاديا عدة مرات.. ثم يطير كريشة في مهب الريح.. ثم يسقط في أعماق البحر.. ويغيب في ظلام لا نهاية له.

الفصل الثاني عشر

الموت بالمجان

دخل الحكيم يركز على النبوت
روح بلادك يا غريب لتموت
دخل الحكيم يركز على جريدة
قال الحكيم ماليش خلاص في ده
قالوا الحكيم في الزاوية جبته
ومشيت على قدمي وركبته
قالوا الحكيم في الزاوية جبناه
ومشيت على قدمي وركبناه

(بكائية من الدلتا)

شيء غريب قد حدث في الإسطبل، جعل الناس تختلط ببعضها اختلاطا لم يسبق له مثيل: أي واحد ينام في أي مكان.. وأي مكان يتسع للجميع «عمرو» الآن هو الكل في الكل.. يقف ـ نصف وقفة ـ على المذود.. يضع يده على خده. ملامحه ليست ملامحه.. وجهه يرتدي في هذه اللحظة وجها آخر يبك الدم منه، كأنه يبكي بلا دموع.. صوته أيضا يبكي، ينوح من أعماق بعيدة:

الناس نابها بخت كامل وأنا نابني ربع بخت ومال

والبين عملني جمل.. واندار عمل جمال

لوى حزامي وشيلنى تقيل الحْمال

أنا قلت يا بين هوه الحمل التقيل ينشال؟!

قال يا جدع بطل وعوعة وامشي.

إن كان زمانك كده ايش يعمل الجمال؟!

زأر الإسطبل كله دفعة واحده:

ـ يا سلام.. تاني.. تاني يا عمرو.. تاني يا حبيبي.

قال «عبد السلام»:

ـ بالراحة يا جماعة.. لاتزعقوا هكذا.. أنتم تعرفون أن «البين» وراءنا في كل مكان.. «البين» يقف الآن تحت جدار الإسطبل.. لايهمنا منه طبعا.. لكن «البين» إذا قامت في دماغه رحنا في داهية..

ظلت الأصوات ساهرة في الحلوق لكن شيئا من كلامها لايفهم. وارتفعت بعض الأكف وانبسطت في الهواء متماوجة ترتفع وتنخفض كأنها تهبط بالأصوات إلى قاع البطون. راحت الأصوات تهبط شيئا فشيئا. إلى أن وضح صوت الأرغول وأخذ يطلق حشرجته المتقطعة، والرءوس تتمايل مغمضة العيون.

تعجب «طلعت» من أن هذه القطع من البوص، التي ظل «دياب» يقطعها من الحقل ويسويها بالمطواة ويخرمها، ثم يدخل كل عقلة منها في الأخرى يمكن أن تخرج منها هذه الأنغام الجميلة التي تذيب الدموع في العيون، تذكر «طلعت» بأمه وبأبيه الذي لم يره ولم يعرف عنه شيئا.

كان «عمرو» ينظر إلى «دياب» في انبساط وإعجاب، ومثل المغنين الكبار يضم أصابعه محركا بها ذراعه في الهواء أمام «دياب» ليهدئ النغم أو يلهبه.. ثم يبكي الأرغول في نشجة سريعة واحدة، وارتفع صوت «عمرو» مدويا:

من فعل ليام كرهنا الدنيا وما فيها

النفس زهقت من الأحوال وما فيها

عجزنا من غير أوان والفكر بهدلنا

وكل ساعة نقول بكره حتتعدل

وصاحب العقل في الدنيا عايش مظلوم

يشوف ويسكت ولايقدرش يتكلم

يبقى في النار ومش قادر يقول: مظلوم

وصاحب الأصل من فعل الزمان حاير

الكلب شفته حكم.. أمامه الأسد حاير

الدنيا حالها كده.. فيها الأصيل حاير

لها أصل جاير.. وبيتوه الأصيل فيها

انطلقت زغرودة كسيحة بلا أجنحة. تلفتت جميع الرقاب تبحث عن أصلها، عرفوا أنها تلك المرأة التي سلقت شيخ الخفراء ذات يوم. ضحكوا. وقف شيخ خفراء التفتيش السابق ونظر نحوها ضاحكا..

ـ تظنين نفسك في فرح يا ولية؟!

ـ الغناء يجعلني أزغرد والسلام.

ضحك متلفتا حواليه:

ـ تظن أننا نغني.. إننا يا ولية لا نغني.. أقصد.. لسنا نغني غناء الأفراح والليالي الملاح.. إننا نغني بدلا من أن نبكي.

ـ البكاء مكتوب علينا حتى في التغني؟!

دخل الأرغول واكتسح كل الأصوات وغطى عليها، ناشجا طاغيا. في أعقابه دخل «عمرو»..

يا عيني قلي البكا يوم ورايق لك

عمالة تبكي ودمع العين رايق لك

عمال يخطط في التراب ورايق لك

وإن أذن الله ورجعت أنا بلدي

لاخلع هدوم الشقا وألبس هدوم بلدي

واعمل وليمة تكفي كل من بلدي

تفضي يا عين ويبقى الحى رايق لك

يا لـ.. لـ يا ..ليل يا لـ..

ثم هوى على الأرض راكعا يصرخ. قطعة من السماء سقطت فوقه باركة عليه.. ثم هبطت قطعة أخرى راكبة فوق كتفي دياب، ثم راحت السماء تتساقط فوق الناس من كل ناحية، والصراخ يرتفع وينكتم في الحال. أقدام تدوس فوق الأجساد وتهوي عليها بالعصي وقحوف النخيل. نحيب. نهنهة.. صوات..

ـ هذه الأغنام تسكت في الحال..

ـ ولا كلمة.

ـ المواشي تبطل جعيرها.

ـ يزن الدبور على خراب عشه.

ـ جئنا بالحبال والسكاكين.

ـ فلربما وجدنا من يستأهل الذبح هاهنا.

عيون الأنفار ذاهلة. تلقي هنا وهناك. تعجب مما ترى: رجال غلاظ لا يدري أحد كيف وصلوا إلى المذود الدائر مع الحوائط الأربعة.. رجال لم يرهم أحد من قبل في التفتيش أو في البلد، سود الوجوه، عمالقة، بعضهم يتقمط مثل العساكر السواري ويمسك كرباجا مطويا. بعضهم الآخر يرتدي الجلباب ويحمل البندقية على كتفيه.

كفت الأصوات داخل الإسطبل. تصاعد من خارجه لغط يتسلق الجدران من جميع النواحي. العيون كلها ترتفع إلى أعلى الجدار، في الفراغ الموجود بين الجدار والسقف الجملون. سلم خشبي طويل يزحف على حافة الجدار داخلا، ثم يأخذ في الميل.تلقفه أحد لابسي الجلباب حاملي البنادق .عدله. أوقفه مسندا إياه على الحائط . برز وجه الباشكاتب بطربوشه مثل القراقوز. راح يتكور على حافة الجدار ويقرفص حتى زحف السلم تحته فاعتلاه وأخذ يهبط، في أعقابه ظهر أفندي آخر، ثم ثالث، ثم رابع، وخامس.

وقفوا فوق المذود. هبط أحد لابسي الجلباب.. حاملي البنادق. غاص بين الأجساد. سرت في الإسطبل رجفة عنيفة تساقطت لها كثير من الأجساد. زغد بسن العصا رجلا عفيا مشيرا له نحو المذود قائلاً: «اطلع».. فمضى الرجل كأنه يغوص في وحل. ثم تبعه أربعة رجال طوال عراض. وحين صاروا أمام المذود أمرهم واحد من المقمطين بالصعود إلى المذود فصعدوا يترنحون.أوقفهم وراء بعضهم، ثم أمسك أولهم من رقبته وكسر قامته وعدله في وضع الركوع. ثم أمر الباقين أن يفعلوا مثله. ففعلوا.. فصاح:

ـ تفضلوا يا سعادة البيه.

تقدم الباشكاتب وجلس فوق أحد الظهور واضعا ساقا على ساق .. ففعل مثله بقية الأفندية، واستراحوا في جلستهم . و كان ثمة فوانيس قد انتشرت على حافة الجدران الأربعة.

أشعل الباشكاتب سيجارة:

ـ هاتوا ذلك الولد المدعو طلعت.

صرخ الجد «مهيوب» خابطا ركبتيه بيديه:

ـ كبدي.. آه يا كبدي.. الولد.. ماذا تريدون من الولد؟!

طار في الهواء رجل كالخفاش، ثم هبط عليه. فكبسه في الأرض. حينئذ اندفع «طلعت» يبكي في فزع:

ـ آه يا جدي.. حاسب يا عم.. أنا أهه بس سيبه..

صاح الباشكاتب:

ـ تعال يا ولد.. تعال هنا.

صاح «مهيوب» وهو يبكي:

ـ اتركوه.. إنه صغير ولم يفعل شيئا.. ما الذي فعله؟

شكمه الرجل في فكه بقبضته:

ـ اخرس أنت الآن.

ـ تضربني وأنا في عمر أبيك.. يا قليل الحياء؟!

شيع له لكمة في جنبه، فانكسرت قامة الجد «مهيوب» وتلوى من الألم:

ـ ملعون.. كافر.. مفتري.

شيع له الأخرى في بطنه، والثالثة في صدره، ورابعة فوق رأسه، وخامسة، وسادسة. ترنح الجد «مهيوب». وسقط لسانه وراح يلهث ويزغط. بدفعة سريعة طوحه الرجل خلف ظهره ووقف مكانه. انطرح الجد «مهيوب» كما يتهاوى خيال المآتة. تلقفته أيدي بلدياته، سحبته، أوسعت له شريحة مددته فيها. كان رأسه يتدلى ويتطوح، ولما وضع أحدهم يده على قلبه وأمسك رسغه لم يجرؤ على النطق بأن الجد «مهيوب» قد مات.

سقط «طلعت» من بين الأيدي أمام الباشكاتب يرتجف..

ـ أنت طلعت؟!

ـ نـ.. نعم

نظر الباشكاتب إلى الأفندي الجالس بجواره. قال الأفندي:

ـ يا ولد.. أين الأوراق التي معك؟

ـ ضاعت..

ـ ضاعت؟!. مصيبة أمك سوداء.

انفجر «طلعت» يبكي.. لقد دخلت أمه في الأمر.. صاح:

ـ والله ضاعت

ـ كيف؟.. أين؟.. انطق.

ـ أخذها الناس ومسحوا بها مؤخراتهم.

ضحك الأفندية. نظر أحدهم إلى آخر.. قال الأفندي المتكلم:

ـ هذا الولد يسوق العبط على الهبالة.

ـ السقف موجود والحبل موجود.. والكرباج.. ها هو ذا.

هكذا قال الباشكاتب. ففي الحال تسلق أحد المقمطين السلم وربط الحبل في القضبان الحديدية التي يستوي فوقها خشب السقف. صنع منه عقدة مفتوحة الفم. صرخ الأفندي المتكلم:

ـ هيه.. تقول الحق أم..

صار جسد «طلعت» ينتفض. نظر الأفندي بجانبه. تقدم أحدهم ورفع «طلعت» من تحت إبطيه وسار به نحو الحبل المعقود، و«طلعت» يصرخ ويرفس الهواء برجليه:

ـ سيبوني.. سيبوني.. يا ولاد الكلب

هبده الرجل فوق الأجساد، ثم رفعه من جديد ليعلقه.

ـ سيبوه يا كفره.. يا لصوص

تلفت الجميع. وقف الأفندية جميعا يبعثون البصر في عمق الإسطبل، فإذا بالمرأة التي سلقت شيخ الخفراء ـ والتى سبق أن زغردت ـ تزحف نحوهم وهي تنتفض كالطائر الذبيح:

ـ تريدون أن تصوروا قتيلا آخر.. لقد مات مهيوب.

ـ مات؟.. جدي مات؟.. يا خلق هو.. و٥٠٠٠ جدي.. جدي..
وشق ثوبه من الطوق مثل الرجال، وبرأسه الصغيرة دب الرجل في وجهه فطار صواب الرجل وصرخ، ووقع «طلعت» من بين يديه، واندفع يجري فوق الأجساد، يتساقط وينهض وهو يجعر ويبكي إلى أن وقع ولم يستطع القيام. أما الرجل فقد أخرج منديلا راح يجفف به الدماء السائلة من فمه وأنفه. وكان لابسو الجلاليب حاملو البنادق قد أحاطوا بالمرأة وراحوا يضربونها، فأطلقت صواتا ملتاعا يمزق ليل التفتيش ويوقظ فيه حتى ورق الشجر.. تكفل الرجال بتكميمها بشاشها الأسود لكنهم لم يتمكنوا من إيقاف عوائها المتواصل.

قال الأفندي المتكلم:

ـ هاتوا الولد.

قال الرجل المقمط الذي يجفف دمه:

ـ الولد مغمى عليه.

ـ نريد أن نعرف أين ذهبت الأوراق.. حتى لو كان ميتا.

ـ قلنا لكم إن الورق ضاع.. مسحنا به مؤخراتنا. نظروا ليعرفوا من ذا الذي يتكلم. قال الباشكاتب:

ـ تعال هنا.. أرنا وجهك.

تقدم شيخ خفراء التفتيش بقدم ثابتة. هب فيه الباشكاتب:

ـ أهو أنت؟!.

ثم نظر إلى الأفندية:

ـ إنه شيخ الغفر إياه.. المتهم في السرقة.. والمحكوم عليه أيضا.. أمسكوه من فضلكم.. إنه ضلع كبير في الموضوع.

أمسكوه بالفعل. كتفوه. تمطع «شيخ الغفر» وفك نفسه من أيديهم. زحزحوه حتى ألصقوه بالحائط ونيموه على بطنه وجلسوا فوقه وهو يصرخ..

ـ قلنا ضاع الورق.. لم يبق سوى ورقتين اثنتين.

ـ أين هما؟..

فتشه الرجال. أخرجوا من محفظته ورقتين مطويتين أعطوهما للأفندي المتكلم فتناولهما ونظر فيهما وصاح:

ـ صح.. هو الورق المقصود.. الحمد لله.

ـ إذن يكون هذا هو المجرم الأول.. اقبضوا عليه هكذا صاح الباشكاتب. قال الأفندي المتكلم:

ـ مبروك عليك السجن.

جعر «شيخ الغفر» بصوت مشروخ:

ـ سجن.. ها.. ما السجن وما الإسطبل.. إنكم تنصبون على الأنفار وعلينا بعد أن سرقتم عرقنا جميعا.. لن يتركم الله.. سوف يخلص لنا منكم يا لصوص يا كفرة. انهالت عليه العصي والكرابيج وصار يصرخ. قال الأفندي المتكلم:

ـ سوف تعدم إذا لم تقل لنا من أين جئت بهذه الأوراق.

ـ لقد وجدناها تحت الردم.

ـ من الذي وجدها؟

ـ واحد من هنا.. دياب.. نعم دياب.

قال الأفندية:

ـ أين هو دياب هذا؟.. هاتوا دياب.

ـ أنا..

وتقدم «دياب» نحوهم.

ـ شوفوا الواجب معه أولا.

تقدم منه أربعة رجال. علقوه في السقف من تحت إبطيه، انهالوا عليه ضربا بقحوف الجريد وهو يصرخ:

ـ أنا في عرضكم.. في عرض النبي.. والله العظيم أنا لقيته تحت الردم.. قلت ورق للولد يذاكر فيه.. أحلف على المصحف.. أريكم المكان الذي وجدته فيه.

لكنهم لم يكفوا عن ضربه بينما راح الأفندية يتبادلون النظرات ويميلون على بعضهم بعضا ويتهامسون. فجأة اكتشف «دياب» أن ذراعيه طليقتان دفع جسده إلى أعلى وأمسك الحبل بيديه فارتفع حتى خبط رأسه في القضيب الحديد، والعصي تلاحقه. تمكن من الاستناد بذراعيه على القضيب الحديد، ثم وضع كل قوته في قدمه وطوح بها في وجه أحدهم فسقط يصرخ والدم يتدفق من فمه. انهالت العصي. لكن القدم الأخرى لبست بعنف شديد في وجه آخر، فسقط أيضا. ثم أخذ «دياب» يرفع نفسه أكثر وأكثر حتى

استطاع أن يشبك طرف قدمه في القضيب الحديد، ثم اقترب منه ولوى جسده فصار نائما فوق القضيب، ثم أخرج من جيبه مطواة قطع بها الحبل وأمسكه بيده ثم اعتدل راكبا كالبهلوان المدهش، وصار يصرخ بأعلى صوته:

ـ قتلتم مهيوب يا كفرة.. ماذا تريدون؟!.. والله العظيم لن يفوت مقتل مهيوب على خير.. ماذا فعل بكم هذا العجوز الغلبان؟!.. ونحن أيضا.. ماذا فعلنا بكم؟!.. دعونا نعود إلى بلادنا.. ما الذي أخذناه منكم ومن التفتيش؟! هه؟!.. أكلتم علينا أيام شقائنا والآخر تضربوننا.. نشتغل في أرضكم بعرقنا ودمنا ولا نأخذ أجرا وتريدون قتلنا؟! من يقترب مني سأشرب من دمه.. لقد نشفت البركة وبانت زقازيقها.. ليس في قعر البركه غير الطين لقد عرفنا كل شيء.. طول عمرنا نشتغل بالعربون.. وقليل الشرف هو الذي يستطيع العيش بينكم.. أما نحن.. فالضرب فوق.. والله عال.. راح الباشكاتب جاء الناظر.. راح الخولي جاء الباشخولي.. على ماذا هذا كله!.. سوف أخرج من هذا الإسطبل إلى بلدنا والرجل يتعرض لي.. نعم ستقولون لي إنني لن أستطيع.. هل لكم عندي شيء؟! أنا الذي له عندكم.. أنا الدائن.. أنا الدائن.

وقف الباشكاتب صارخا:

ـ هاتوه.. اصعدوا إليه وهاتوه.. سأضربه بنفسي.. لن يشفى غليلي سوى أن أضربه بنفسي حتى يموت.

وكانت القضبان الحديدية التي يرتكز عليها سقف الجملون قد صارت مركبة، يزحف عليها رجال قادمون من هنا وهناك وقد تنبه

«دياب» إليهم فطوى الحبل وشيع به ضربة عنيفة في عين أحدهم سقط على أثرها. ثم زحف نحو الجدار، وإذ رأى شخصا آخر يقترب منه عند تقاطع القضبان ضربه بقدمه في ساقه فأخل بتوازنه وسقط هو الآخر يصرخ. وكان هناك شخص ثالث يقترب من ناحية التقاطع الآخر نجح في أن يطوق ذراعيه من الخلف، لكن دياب بكل قوته واستمواته فك نفسه وطعنه بالمطواة في رقبته فسقط فاقد النطق. فصرخ الباشكاتب:

ـ ماذا تنتظرون بعد هذا؟!

وكان «دياب» قد صار على حافة الجدار مستعدا للقفز إلى الخلاء. لكن طلقا ناريا لحق به، فاندفع إلى الأمام دفعة صغيرة ثم ارتد وهوى على أرض الإسطبل. وهنا صرخت امرأة صرخة فزعة:

ـ يا لهوي.. مات طفلي.. وقع فوقه.. مات..

وامتلأ الإسطبل بصراخ وهدير ارتجت له الأرض. ولكن قلب التفتيش لم يهتز.

الفصل الثالث عشر

بيوت للغرباء

حكمت يا بين بخنقي..
بحبح الخيمة..
لا أم تبكي..
ولا عمة..
ولا خية..

(مقطع من حدوتة مصرية قديمة)

(١)

اِرْبَدَّ وجه النهار. صار رماديا غائما. لا نسمة هواء، الجو ناشف كالحديد الصلب، كان الكون كله قد اختنقت أنفاسه، كانت أكوام الردم تترامى على حافه الترعة، وأشجار الجزورين تقف في قلبها طويلة كهيافة الرجال، تتدلى فروعها ميتة لا حياة فيها. شراذم الأنفار ملقاة على أكوام الردم رجالا ونساء وأطفالا يتسربلون في خرق لونها لون الأفق الرمادى القاتم الكئيب. لون أكوام الردم لون أفرع الجزورين: بقايا طين أزرق جاف. كانوا يتناثرون على قمم عالية. يتقرفصون ينظرون أمامهم، في بلاهة وخوف، يلتصقون بالردم مثلما تلتصق خرقهم بأجسادهم: بفعل الرطوبة وحدها. عيونهم مرسلة إلى هناك، حيث ينتصب القصر شامخا أمامهم.. قاتم الوجه مخيفا، معقد الشكل، عشرات النوافذ والأبواب والأضلاع، أعمدة من النوافذ الصغيرة تتسلق أعمدة أخرى من النوافذ الكبيرة، أسقف من الجملون متعددة الأحجام والزوايا، فوانيس معلقة في مشاكيها، سور أخضر وحديد وجرس وبنادق، الكون كله صامت ينتظر انفجار بركان.

الإسطبل في نهاية البصر، يلتف حول القصر كفتحة القوس. القصر وسطه كنجمة بأربعة وعشرين ضلعا، مع ذلك فأقدام الأنفار تقطع المسافة بين القصر والإسطبل في ضحوة كاملة. العيون الشاخصة يصيبها الملل، ترتد باحثة عن بعضها البعض في لمعان بلا معنى، قد اختفى منها الحزن، لم يعد فيها سوى البلادة، بقايا ذبول تجمد في الوجوه منذ زمن بعيد.. من يعزي من؟.. ابن هذه المرأة دهسته الأقدام.. زوج هذه المرأة فرمه النورج.. هي نفسها انكسر ساقها مرة وانفقأت لها عين مرة أخرى، تتقيأ الآن دما فليس في بطنها ما تتقيؤه سوى أمعائها.. هذا العجوز المسكين مكسور الضلوع في ليلة الإسطبل القريبْة.. هذه الصبية مذبوح وجهها بالكرباج ومات أبوها ولم تعرف، وربما لن تعرف أنه مات.. هذا الصبي مات جده وثمانية من بلدياته، مع ذلك فها هو ذا يجلس بينهم وقد شاخ عمره تماما وكبر أربعين عاما دفعة واحدة، يتقرفص مسندا رأسه على ذراعيه فوق ركبتيه. فحمة احترقت من لهيب البكاء وحرارة المأساة فلم يعد فيها نفس تقول به آه.

فجأة تقلب، كأن الأرض مالت فحركتهم فبعثرتهم ثم عادت فألصقتهم بالأرض من جديد في غمضة عين. شخصوا في اتجاه النجمة الهائلة ذات الأربعة والعشرين ضلعا التي تحتويها فتحة القوس الأصفر الشاحب. كانت «النيابة» خارجة من البلد متجهة نحو الطريق الزراعي.. فرسان كبيران في المقدمة، فوق كل فرس رجل متقمط بالأصفر في أصفر. وجهه أسود غليظ الملامح، طربوشه مثل وجهه أسمر كالح في يد كل منهما كرباج مطوي.

خلفهما ظهرت (الكارتة) بجرسها، وراءها خفيران. ظل هذا

الموكب يقترب ويقترب ويملأ الدنيا غبارا، حتى إذا ما استدار على الطريق الزراعي وصار يمشي بحذاء الأنفار هدأ من خطوه والتوى الفرسان داخل الكتل المتراصة. صاح أحدهم:

ـ أين الولد المدعو طلعت؟

نكست الرءوس ولم ترد.

ـ قلنا أين المدعو زفت؟

ارتفعت الرءوس من جديد. راحت تتلفت حواليها في بلاهة لا تعرف أي أحد، لا تقوى على النطق.

وصلت «الكارتة»، توقفت وأطل منها وجه أحمر شاب الملامح، صاح:

ـ حاولوا أن تعرفوه بالهدوء.. إذا كان قد مات هو الآخر فأين جثته؟

نزل أحدهما عن فرسه مطوحا كرباجه المطوي في الهواء. جاء خفير يجري. أمسك بالفرس من لجامه. صار حامل الكرباج المتقمط يجوس بين أكوام اللحم المتراصة، يتفرسها يزغد الصبيان واحدا واحدا بطرف الكرباج قائلا:

ـ أنت طلعت؟

فيشخص الصبي نحوه في ذعر هازا رأسه بالنفي. فلما اقترب من «طلعت» كان الكرباج قد سئم الزغد وسئم حامله السؤال بالنظر فيه. كان «طلعت» يحس أنه ميت بالفعل ولن يقوى حتى

على الإحساس بالضرب لما تجاوزه الكرباج والمارد ازداد رأسه التصاقا بذراعيه ولم يكن في رأسه شيء سوى الردم والطين المعجون بأنهار الدموع.

صاح الوجه الأحمر المطل من فتحة الكارتة:

ـ على كل حال سوف نجيء به من أي مكان يذهب إليه.. إنه مطلوب في التحقيق ولا بد أن يظهر ولا يخاف.. إن ظهر من تلقاء نفسه فسوف نراضيه ونكرمه وإذا قبضنا عليه فسوف نريه شغله.

ثم أشار بذراعيه نحو الإسطبل في رصانة:

ـ من كان له جثة قريب أو أخ أو أب أو أم أو أي شيء فليذهب ويتسلمها لقد أمرنا بدفنها.

ثم اختفى وجهه، صعد المارد إلى فرسه. استأنف الموكب زحفه من جديد أخذ يتباعد، يختفي بين شواشي الجزورين البعيدة يصبح قطعة من لونها الرمادي. أخذت الأجساد تزداد التصاقا بالردم، مثلما تلتصق خرقهم بجلودهم بفعل الرطوبة وحدها.

(٢)

ـ ليس للغرباء في هذه الدنيا بيوت.

هكذا قال «طلعت» وهو يقف حائرا أمام جثة جده «مهيوب» وجثث «دياب» و «صالح» و «سماعين» وغيرهم من بلدياته. كانت عيناه قد ضاقتا وذبل فيهما الضوء من طول البكاء، مع ذلك فخيوط الدموع تنثال على خديه دون صوت.

ـ هيه.. ليس للغرباء في هذه الدنيا بيوت.. إنما لهم مقابر.

قالت العجوز التي سلقت شيخ الخفراء ذات يوم. ثم تحاملت وذهبت إلى «طلعت» واحتوته في صدرها:

ـ كفاك بكاء يا ولدي.. لقد قطعت قلبي وقطعت نفسك.. مثلك لايصح أن يبكي.. مثلك رجل، ولد رجلا.. فتحمل ما أصابك يكرمك الله.. والله إنك لرابح في دنياك. وإن الله لمعوضك جزاء مالقيت من اختباره.. فلا تحزن يا ولدي.. استكان «طلعت» في صدرها واختفى، وكان يرتعش كسمكة فوق النار. لم يعد في الإسطبل أحد من بلدياته أو ممن يحملون همه. حتى «عمرو» أصابته

طلقة رصاص في قلبه. «عبد السلام» و «شيخ الغفر» و «الأعرج» لم يعد لهم وجود، ولا بد أنهم ذهبوا مع النيابة. الإسطبل لم يعد مزدحما بأحد. أين ذهب كل الأنفار؟. لا يعقل أن يكونوا كلهم قد ماتوا. لا بد أن كثيرين منهم قد هربوا. أما هو فكيف يهرب؟ كيف وأمامه جثة جده «مهيوب» وجثث بلدياته؟

احتضنته العجوز. صوتت:

ـ أليس هنا من رجال؟..

ربما كانت صادقة، فليس هؤلاء برجال أبدا، مع أنهم ذكور، يتكورون على أنفسهم يعلوهم الصدأ لايجرءون على رفع هاماتهم في أي وجه.

ـ قوموا يا أبناء السفلة وادفنوا موتاكم..

هرش واحد في قفاه. بصق آخر على الأرض. بصق ثالث ماذا يفعلون؟ إنهم لا بد أن يدفنوا موتاهم.. هذا حق. ولكن أين يدفنونهم؟ أين المقابر أولا؟ وأين ماء الغسل والأكفان؟

كانت أبواب الإسطبل مفتوحة على وسعها. من أحدها تقدمت العجوز ساحبة «طلعت» من يده في حزم وقوة:

ـ تعال معي.. إنت اللي راجل إنت وحتستحمل.

مضى معها دون تردد:

ـ إلى أين نذهب يا خالة؟

ـ امض معي.. ألست تريد أن تدفن جدك؟

ـ بكى «طلعت» من جديد، وتكسر صوته في نهنهة، وشعر بقلبه يهتز وينتفض:

ـ و.. أمي.. أمي يا خالة؟!

ـ مالك ولأمك.. ما دخلها هنا؟!

ارتفع صوته بجعير ملتاع:

ـ ماذا أقول لها؟!. كانت تخشى أن يعود لها بدوني. فإذا بي سأعود لها بدونه.

ـ الحي أبقى من الميت.. لقد أخذ المرحوم عمره ونصيبه.. الدور والباقي عليك أنت..

ـ و.. و.. أمي. إنها لا بد أن تراه.

ـ يا كبدي.. وكيف تراه؟!

ـ ألا نستطيع أن نسافر به؟!

ـ سافر إن قدرت.. يا لك من ولد طيب.. كيف تسافر به؟!. تقطع الطريق من هنا لبلدتكم في عشرة أيام على قدميك.. من يحمله لك؟!. تحمله أنت؟!. حتى بلدياتك لم يبق منهم سوى أبي كرش وأعور العين وأبي طحال، أتظن أنهم يحملونه لك؟!. تموت من الجوع والبرد والعطش والتعب في الطريق.. تتعفن جثثكم جميعا وربما أكلتكم الذئاب قبل كل شيء.. امض يا ولدي.. لا تكن عبيطا.. إكرام الميت دفنه.

وكان الإسطبل يتراجع خلفهما ويبتعد ويتضاءل حجمه.

والعجوز تحجل على الطريق الزراعي و «طلعت» يلهث بجوارها غارقا في الدموع وفي العرق، يتعثر، يكبو، يعتدل. أخيرا لاحت لهما ربوة عالية تتصاعد منها رقاب ورءوس حجرية بيضاء، وأشجار عتيقة، وأشواك. وحلفا. انحرف الطريق الزراعي المعد للعربات والكارتات، وصار إلى اليمين مدقا منحدرا. أخذا يصعدانه ويغوصان بقدميهما في التراب.

ـ السلام عليكم.

قالت العجوز. دهش «طلعت» لأن ثمة أحدا لم يكن موجودا يتلقى السلام. لكنه مشى وراءها، فظللتهما فروع جميز عتيقة ممتدة متعانقة تصنع كهفا مظلما في عز الظهر. تسربت إلى أنفيهما رائحة زهور برية نفاذة يسمونها فساء الكلاب، ورائحة أشواك حادة لها عشرات الأسماء. والمقابر مرتمية تحت الأشجار وفي قلب الحفر. بعضها مبني على هيئة منزل صغير، وأخرى على هيئة هرم مستطيل منتفخ كظهر الجاموسة، وثالثة على هيئة مصطبة، ورابعة مجرد كومة من الرمل يعلوها شاهد.

اقشعر بدن «طلعت» وأحس بجلد وجهه يؤلمه من الوخز، وبجفونه تدب فيها نار حامية. راح يتابع العجوز، وراحت هي تدخل بين الصفوف وتخرج وترتد عائدة وتقف ناظرة حواليها متمتمة بكلام. تناهى إلى سمعيهما صوت هدير يزحف من جميع الاتجاهات، لزحفه على الأرض وقع مخيف ومقبض. لغط غير مفهوم وصياح. ثم صار الزحف يقترب ويقترب حتى امتلأت ربوة المقابر بالأشباح تظهر فجأة من منحدر أو تخرج من حفرة أو تهبط

من عل. ارتعد «طلعت» وازداد اقترابا من العجوز وقد أحس في ظلها بكثير من الأمان، فهو يوقن أنها قوية قوة الأيد. وتمنى أن تكون رجلا يصادقه ويذهب معه إلى كل مكان.

غمزته في يده بألا يخاف من شيء. فتوقف بجوارها.. مرتعشا. تكاثرت الأشباح وتناثرت إلى أجزاء تقف أمام المقابر أو تلف حولها أو تتصنع بعض الإصلاحات..

قالت العجوز لطلعت كأنها تزيل خوفه:

ـ جاء كل واحد ليحمي مقبرته.. يظن أننا جئنا لنفتحها ونحشر فيها بلاوينا.. لكن لا.. أنا لا أحب نبش المقابر.

سحبته ومضت نحو العمق ناظرة بعينها هنا وهناك، تلقي السلام على الواقفين وتعافيهم بالعافية كأنهم أقاربها المقربون، تقرأ الفاتحة لكل قبر تمر من أمامه إكراما لأهله وبعثا للطمأنينة في نفوسهم، ثم ارتفع صوتها في الوجوه وقد لمعت عيناها ببريق جهنمي مخيف:

ـ أنا لا أحب نبش القبور أتفهمون؟!. أعرف أنها ضيقة.. ضيقة.. فكيف أضيق على أهلها أكثر؟!. القبور ضيقة لأنها تزدحم بذنوبنا التي تدفن معنا.. ولكن.. هناك موتى لا بد من إيوائهم.. الغريب مكروم لأجل النبي يا ناس.. ومن لم يكرمنا أحياء ينوبه الثواب إذا أكرمنا موتى.. أعرف أنكم يا أهل هذه البلدة غرباء مثلنا وإن كنتم تبيتون في دوركم.. وأعرف أنكم تعرفون أن دوركم ليست بدوركم، وأنكم ضيوف عليها تؤجرونها من الزمن بعرق السنين لمن يقبض وهو مرتاح، ولهذا فأنتم تهتمون بهذه الدور التي تقفون الآن

لحراستها من سطوة جثثنا.. أنتم محقون فهذه دوركم الحقيقية.. هذه دوركم التي تزينونها وترطبونها وتتهيئون للرقاد فيها آمنين مطمئنين.. إن الله حق والموت حق.. وهذه الدور لن تحميكم من جهنم.. فلا يحميكم من عذاب الجحيم إلا سلامة نفوسكم.. إن الأجسام إذا تجاورت صنعت جسرا من النخيل الأخضر في جنة الخلد.

تقدم منها رجل وقور، يرفع ذيل ثوبه الأبيض النظيف عن الأرض، ويطوح بيده المسبحة:

ـ اسمعي يا خالة.. كلامك حق. ولكن.. ضعي نفسك في موضعنا.. إننا نتشاءم من فتح مقابرنا حتى ولو تبرعا لوجه الله.. لكننا والله نصدق كلامك ويقول كل منا لنفسه أفظع منه.. لكن ماذا نفعل؟ النفس أمارة بالسوء.

وكانت سحابات الغبار الكثيف قد هدأت قليلا، ولكنها سرعان ما ارتفعت ثانية قادمة من اتجاه الإسطبل. ثم ازدادت كثافتها وظهر من خلفها معظم الذين كانوا في الإسطبل، يمشون في بلاهة كنعوش تسير وحدها، فما إن وجدوا «طلعت» و «العجوز» حتى وقفوا منتظرين.

بدأ الرجل ذو الثوب الأبيض النظيف يتجه إليهم:

ـ حاسبوا يا أسيادنا.. ليس هكذا تدخلون المقابر.. إنكم تدوسون فوقها وتدهسونها.. هذه جريمة..

ـ قالت العجوز في حدة:

ـ أما الذين يدوسون فوقنا فليسوا مذنبين.

استدار إليها:

ـ شوفي يا خالة.. أرض الله واسعة.. وكلنا سنموت.. وربما نموت أشنع ميتة فنجد من يستر لحمنا.. تعالي يا خالة..

تعالي معي.

واستدار وصار يمشي. فمشت بجواره والجميع خلفهما. مشوار طويل بين الصفوف أفضى بهم إلى وسعاية كبيرة على شكل حفرة، كأنها بئر جف من زمان. قال الرجل ذو الثوب النظيف إنها بفعل الذئاب واللصوص في الزمن القديم، وإن هذه الوسعاية هي الوحيدة التي لا يملكها أحد، فهيا ادفنوا فيها موتاكم، أتنفع؟ أنا شخصيا أرى أن البطر عليها فعل لا يرضي الله.

أومأت العجوز برأسها موافقة، ثم نظرت إلى بني بلدتها الذين جاءوا وراءها. صاحت وهي تشمر ذراعيها:

ـ اذهبوا وانقلوا الجثث وهاتوها إليّ.

دب فيهم الحماس وانطلقوا يبرطمون خلف بعضهم، فلقد وجدوا ما يمكن أن يفعلوه. أما «طلعت» فقد انزوى بعيدا يحاول البكاء ولكن دموعه تحجرت في حلقه الجاف. صاحت العجوز في الرجل ذي الثوب النظيف:

ـ إيتوني بفأس ومقطف.

أخذ الرجل يهرول مبتعدا. تابعه «طلعت» فرآه يختفي بين

المقابر البعيدة. التوت أمعاؤه، التوت رأسه نحو العجوز كانت تلف حول الحفرة وتقيسها بقدمها طولا وعرضا. ثم ظهر صف من الرجال يمسكون الفئوس والكريكات والمقاطف. اتضح في مقدمتهم الرجل الذي كان يلبس جلبابا نظيفا وقد خلعه وظل بالفانلة والسروال، فما إن اقتربوا من الحفرة حتى صاح:

ـ هيه.. هيا يا رجال.. كله في سبيل الله.

انقضوا على الحفرة وانهالت فئوسهم وكريكاتهم تكوم جوفها وتنزحه وانطلق آخرون يجلبون أكوام التراب من كل ناحية ثم امتلأت الدنيا كلها بالغبار، اختفى كل شيء اختفاء تاما. أقدام تزحف مقبلة تئن وتتوجع وتبسمل وتحوقل. صاحت العجوز:

ـ انتظروا بعيدا.. ضعوا الجثث ها هنا بجوار بعضها.. إذا لم يحضرها، الماء وجب التيمم حتى في الغسل.

نزلت إلى الحفرة التي ازدادت عمقا واتساعا كحجرة كبيرة تقرفصت وانكمشت على نفسها، وظلت تتقلص وتتقلص. وتختفي أطرافها شيئا فشيئا داخل ثيابها السوداء، حتى رأسها لم يعد له وجود. تحولت إلى كومة من الفحم تتقلص وتنفرج، ثم ظهر ذراع، وخلفه ظهر الثاني. ثم نهضت واقفة. فوقع من جوفها ثوب أبيض ذو كورنيش. رفعته في يدها فتبينوا أنه قميصها الداخلى، ودهشوا من نظافته ظلوا يبحلقون فيها، فإذا بها تمزقه بكل هدوء، إلى شرائح متساوية. تصنع منها أربطة وألثمة، وصاحت:

ـ إيتوني بواحد واحد.

ففي الحال اقتربت أذرع الرجال بواحد كلوح الخشب. تلقفته أذرع أخرى من داخل الحفرة وطرحوا الجثة أرضا في هدوء. تقرفصت أمامه العجوز وأسبلت عينيه وصاحت بصوت مرتعش رهيب:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله.. الموت حق.

ثم راحت تمرر يديها على الرمل الطري المنزوح من الحفرة. وتعود فتمررهما على الجثة متمتمة بكلام مضغوم. ثم سحبت شريحة من قميصها ولثمته. صار «طلعت» ينتفض كفرخ مذبوح، لقد كانت جثة «دياب»، ها هي ذي العجوز توسع لرأسه مكانا فسيحا، ثم تصنع من التراب جسرا رفيعا. ثم طلبت الجثة الثانية فعلت بها ما فعلته في الأولى. إلى أن أقبلت جثة الجد «مهيوب» تشق سحب الغبار مندفعة نحو الحفرة، وكانت المحفظة تتدلى من فتحة الصديري المربوطة بفتلة دوبارة.

غاص «طلعت» في بئر سحيق مظلم. صار يطلق صيحات هستيرية متتالية متداخلة، ويلقي بنفسه فوق جده ويصرخ في شراسة. يشده الرجال ويحكمون لف الأذرع حوله ولكن الجسد النحيل ينتفض من الألم ويفقد القدرة على النباح. وتتحول أصواته إلى رغوة من الزبد تتناثر بين شدقيه.

وحين كان الرجال يحملونه عائدين به إلى الإسطبل خلف العجوز المتعبة لم يكن يدري بأي شيء مما يدور حوله، ولم يكن يحس بيد العجوز وهي تدس محفظة جده في جيبه هامسة في أذنه:

ـ احذر أن تضيعها.. إنها قسيمة زواج أمك.. ربما صارت مجرد ورقة لا نفع فيها.. ولكن.. من بغيرها يصدق أنك من أب وأم معلومين؟

وفى تلك الليلة لم يغلق الإسطبل من الخارج بالقفل.. لأن الذين لم يهربوا غير قادرين على الهرب.

(٤)

رغم أن الإسطبل يبيت مفتوحا منذ ليال، إلا أنهم حين يستيقظون في الصباح يظلون في أماكنهم لا يتحركون إلا بعد أن يجيء من يفتح الباب داخلا يصيح فيهم: «انهض يا كلب أنت وهو.. تظلون نائمين للضحى؟».

فيهبون واقفين.

واليوم هبوا واقفين على الرغم من أن أحدا لم يصح فيهم تلك الصيحة المعهودة. كان الباب قد انفتح بهدوء وأطلق زيقا غليظا، ثم دخل رجل لم يروه من قبل، يرتدي جلبابا بياقة من الأقطان وكمين رفيعين وفتحة الصدر قصيرة كفشخة الحنك، جلباب لا يرتديه إلا القصابون وتجار الطيور وتجار الخضار، وقد لا يكون الشخص نفسه واحدا من هؤلاء ولا أولئك ولكنه يرتدي هذا الثوب إكراما لأهله ورمزا على انتمائه لهم.

ظل واقفا برهة لا ينطق حتى اكتمل وقوفهم جميعا. فقال بهدوء مخيف:

ـ اسمع يا مقصوف الرقبة أنت وهو.. وجع دماغ لا أريد.. أنا تعبان وخلقي ضيق.. ولا أحب إعادة أي كلمة أقولها.

ـ هي كلمة.. والآن.. تعرفون أن قدمكم كان على أرض الوسية نحسا في نحس.. الدود يرعى الآن في القطن.. كل شيء تغير اليوم في الوسية ما عدا أنتم.. الناس الذين كنتم ترونهم كل يوم تاب الله عليهم من رؤية وجوهكم النكدة.. لم يعد هناك خولي واحد ممن كنتم تعرفونهم.. والذين كنتم تعرفونهم من قبل شيء، والذين ستعرفونهم اليوم شيء آخر.. إنهم يفهمون أنكم لا تحسون الضرب إلا بالمسوقة.. فاتقوا الله في أبدانكم وامتثلوا للعمل بما يرضي الله.. والآن.. شدوا حيلكم.. ارفعوا رءوسكم. انفخوا صدوركم واسترجلوا قليلا إنكم سوف تعرضون الآن على سيادة المندوب شخصيا وبذات نفسه.. نعم.. أتفهمون ما معنى المندوب؟!. المندوب هنا من ليلة أمس، وسوف نذهب إليه جميعا ليرانا ويتأكد أن في التفتيش رجالا وأنفارا بحق.. فهيا.. صفوا أنفسكم بأنفسكم وتحركوا أمامي.

تدافعت أمواج هزيلة من الأذرع والمناكب والأرداف محاولة أن تصنع من نفسها صفا واحدا.

(٥)

كانت مقدمة الطابور تقبل من بعيد تطوح أذرعها في الهواء وتبدو كالغربان الكالحة.

وكان في انتظارهم مجموعة من الرجال تمتلئ بهم وسعاية أمام القصر، فلما تكامل طابور الأنفار صدر الأمر بتوقفهم في مكانهم.. فتوقف الأنفار في أماكنهم..

انسلت الرجل الذي أتى بهم من الإسطبل واتجه نحو مجموعة الرجال وشخط فيهم:

ـ صفوا أنفسكم أنتم أيضا.

صاح واحد منهم:

ـ كيف يا باشخولي؟

زحفت الزغدات واللكزات بين ظهور الأنفار، وتعاقبت الهمسة:

ـ باشخولي.. باشخولي السراي الجديد..

قال الباشخولي الجديد:

ـ ألا تعرف كيف تصطف يا أعمى العين؟!

كان الرجل بالفعل أعمى، كان أعمش العينين يربط رأسه بمنديل محلاوي وينظر في موضع قدميه كلما خطا.

صاح الباشخولي:

ـ «القيدة» في الأول.. والساقة في الآخر.

ـ قيدة؟.. وساقة؟

نظر الأنفار في قائل هذه الكلمة، فإذا به رجل هزيل ذو قدم واحدة، يتأبط عكازا بدلا من الساق المفقودة، ويحجل بالقدم والعكاز رائحا غاديا مطوحا بخيزرانته في الهواء.

برطمت العجوز في تعجب:

ـ لم يبق سوى هذا الأعرج المسخة يعملونه خوليا علينا. فهمس واحد بجوارها؟

ـ ستجدينه أشدهم قوة.. كل ذي عاهة جبار.

احتدت الأصوات بين مجموعة الرجال. ارتفع صوت الباشخولي مزمجرا:

ـ أنا الباشخولي وأختار كيف أشاء.

ـ إنك لم تعين بعد..

ـ لكنهم كلفوني بالعمل أمامكم.. فما معنى التعيين إذن؟

ـ إنهم سوف يعيدون النظر في هذا الأمر.

ـ اخرس يا أبا طحال.. يا عيان بكيفك.

دقق فيه الأنفار. كان بالفعل أكرش مريضا بالطحال، أصفر الوجه حاد الملامح لا ينبئ وجهه عن أي خير.

ـ «القيدة» يقف في أول الصف.. هيا يا حكيم.. امسك «القيدة».

برز «حكيم»، رجل قصير غليظ ذو شارب مفتول، على وجهه جد مثير للضحك. صار يتهادى كالبطة المختالة ثم وقف في المقدمة بجوار صف الأنفار.

ـ الذي وراءه.

هكذا صاح الباشخولي، ثم أردف: اطلع يا فلان.. وراءه فلان.. ثم فلان، حتى اكتمل صف من الخولة بجوار صف الأنفار: القيدة «حكيم» ذو الشارب المفتول، والساقة الرجل الأعرج ذو الساق الواحدة والعكاز.. أما الباشخولي فإنه ظل يروح ويجيء أمام الصفين المتجاورين، يشخط دون داع، ويسب ويلعن من يكون في رأسه أي خبث أو لؤم.

وكانوا في انتظار أن يخرج المندوب من القصر ليشاهدهم ويعاينهم ويلقي عليهم أوامره وما عنده من توصيات وشتائم في الرجال السابقين. غير أن الوقفة طالت حتى الضحى، وبدأ العرق يتصبب منهم جميعا، والباشخولي أمام القصر واقف يتأهب

لملاقاة المندوب، لكنه رأى أحد السياس مقبلا يجر فرسا في اتجاه الترعة.

صاح السايس ضاحكا في سخرية:

ـ مأتم هذا يا باشخولي؟..

ـ مأتم أمك بإذن الله..

هكذا صاح الباشخولي. فأخرج السايس لسانه وانفجر ضاحكا:

ـ لماذا تقف هكذا أنت.. وبني إسرائيل؟!

ثم أغرق في ضحك هستيري:

ـ مع أني والله ما أعرف بني إسرائيل هؤلاء يطلعون ماذا؟!

ـ سعادة المندوب صحا من النوم أم لا؟

ـ مندوب؟!.. هاهاها.. أتنتظر المندوب؟!.. هاهاها.. ي..

ـ نعم المندوب.. هاهاها... ي.

هكذا رد مقلدا إياه.

ـ يا جدع.. المندوب ليس هنا.

ـ ليس هنا.. كيف؟.

ـ المندوب بات الليلة في بيت حضرة الناظر.

ـ حقا؟!.

ـ نعم.. عزمته الست على العشاء.. ويظهر أن الطعام كان دسما وثقيلا.. فنام سيادة المندوب في مطرحه.

ـ أو لعله لم ينم بعد.

هكذا أضاف ذو الساق الواحدة.

ـ يا للمصيبة.. ماذا سيقول عني الآن؟!

ـ سيقول إنك حمار.

ثم زغد الفرس وانطلق يجري..

استدار الباشخولي وصاح في الجميع:

ـ نهاركم أسود من قرون الخروب.. اطلعوا بنا الآن على بيت حضرة الناظر.. لنقف أمامه حتى يصحو من النوم فيجدنا في انتظاره.

رفع قامته وصاح مقلدا شيخ الخفراء:

ـ معتادا.. ن.. مارش.

فمضى «القيدة» من صف الخولة سائرا يجاوره القيدة من صف الأنفار. لكن الباشخولي صاح من جديد:

ـ قف..

فتوقفوا..

الأفضل أن نكون أكثر تنظيما من هذا.. كل خولي يمشي وراء فرقته..

ـ كيف؟

ـ بسيطة.. ما عليك إلا أن تعد عشرين نفرا وتقف وراءهم.

ـ وإذا زاد عددنا عن عدد الأنفار؟

ـ قسموهم على بعضكم.

فبدأ صف الأنفار يتمطى، كل بضعة أنفار ينحشر «خولي» يسوقهم بعصاه، حتى صار الصف طويلا وفكها: يبدأ بقيدة الأنفار، وينتهي بساقة الخولة: الرجل ذو الساق الواحدة والعكاز.

تلوى الصف قليلا وصنع نصف دائرة لكي يستدير عائدا إلى بيت حضرة الناظر.

(٦)

بيت حضرة الناظر يقع في أعماق حارة جميلة وضيقة، في مواجهة الداخل تماما. وهي ليست حارة من السكان، إنما هي طريق طويل فيما بين الحديقة وبين المخازن والأبراج والحواصل الملحقة ببيت الناظر. أما الحديقة فطولها ثلاثة أفدنة يلتف حولها سور من الأسلاك الشائكة. وأما المخازن والحواصل والأبراج فعلى يسار الداخل وفي مواجهة الحديقة.

وكانت الست «هنومة هانم» تطل من خلف المشربية الصغيرة حين لاح لها طابور يقترب من أول الحارة ثم يدخلها صانعا جلبة شديدة. كاد قلبها يسقط في قدميها من فرط الغيظ. أزاحت الستار أطلت برأسها الندي الصبيح، صاحت:

ـ أين أنتم ذاهبون يا مواشي؟!

فتوقفوا في الحال، وتصادموا. وظهر الباشخولي مقبلا نحوها في خنوع:

ـ عدم المؤاخذة يا ست هانم.. جئنا لنقابل المندوب حسب طلبه.

ـ وهل قال لك المندوب اصنع طابورا من الغربان وهاته؟!

ـ أنا رجل منظم يا ست هانم.

ـ ومن قال لك إن المندوب هنا؟!

أسقط في يده. تردد. صار يتمتم:

ـ أنا.. لم يقل لي أحد يا ست..

ـ على كل حال سيادة المندوب مستغرق في النوم.. ولا نستطيع إقلاقه الآن.. اذهبوا..

ـ إننا نفعل الواجب يا ست هانم.. فما الذي تأمرين به؟ أشارت بذراعها نحو الأفق البعيد:

ـ انكشحوا.. اذهبوا إلى عملكم.. وحين يصحو سوف يمر عليكم في العمل.

استدار الباشخولي طائعا. ارتبك قليلا. الحارة ضيقة، ومسدودة ببيت الناظر، ولا بد من الطابور. أخيرا صاح:

ـ للخا.. لف.. در.

استدار الأنفار حول أنفسهم في الاتجاه المضاد.

ـ معتادا.. ن.. مارش.

اندفع العكاز يخطو في المقدمة سابقا الساق الواحدة، ومضى خلفه الأنفار ودقة العكاز فوق الأرض تنظم خطوهم وتقوده. ولم يكن صاحب العكاز يدري أن فرقته نقصت واحدا، وأن هذا الواحد قد تسلل وزحف على بطنه تحت الأسلاك الشائكة واختفى في سور الحديقة المعرش باللبلاب.

(٧)

صار قلب «طلعت» يدق بعنف وهو ينكمش على نفسه بين العشب واللبلاب، وينظر من ثناياه متفرجا على الطابور الذي كان منذ برهة واحدا منه. ورغم أنه لم يكن مدركا تماما لخطورة ما فعل، بل لم يمكن في كامل وعيه، إلا أنه ابتسم ساخرا وقد داخله شيء من الاطمئنان على ما فعل. غير أن الابتسامة أفلتت ضحكة قصيرة مكتومة، حين اقتحمه من الطابور صوت لعله صوت العجوز هامسا في كمد:

ـ في السنين العمياء يصبح الأعرج قيدة.

القمر يتسلل من الإسطبل

فتح «طلعت» عينيه فجأة كأنه يفتحهما لأول مرة منذ سنين طويلة، كانت جفونه مليئة بالعماص، والقمر يداعبه من خلال العشب واللبلاب، وينظر إليه بعينين باسمتين. أدرك «طلعت» أنه انكسر تحت سلطان النوم والخوف فلم يدر إلا والنهار قد ولى. لم يكتشفوا غيابه إذن، لم يمر أحد في الحديقة طول النهار. كان المكان رطبا وجميلا وكان ظهر «طلعت» ملتصقا بالأرض يبغي حراكا. لكن الخوف سرعان مادب في قلبه، فانتفض جالسا ثم أخذ يزحف وسط الزراريق المستقيمة مع أضلاع الحديقة حتى صار في نهايتها البعيدة، وصار بيت الناظر خلف ظهره ولايزال هو يزحف في الحديقة الكثيفة التي أفضت به إلى ترعة رآها واضحة من خلال السور الشائك المعرش. بيد مرتعشة رفع سلكا شائكا إلى أعلى، جذبه بكل قوته، شبكه في السلك الذي فوقه.. طأطأ رأسه ثم دفنها في الفجوة المأمونة، مغمضا عينيه اتقاء لأطراف العشب واللبلاب.. فصار في الخلاء..

اندفع يجري بحذاء الترعة، ويجري، ويجري، ولما أحس أنه

تجاوز حدود القرية، واختفى القصر والإسطبل في الأفق البعيد، تمدد على شاطئ الترعة يلهث ويشرب أنفاسه، استراح ظهره فوق الأرض وكأنه سيلتصق بها إلى الأبد. التقت عيناه بعيني القمر في وسط السماء. رأى في عيني القمر صديقه «عمرو» و«دياب»، والملف. والنيابة وشيخ البلد وأباه والقتلة والسفاكين وجده «مهيوب»، ورأى أمه، وكانت خيوط الدموع تنثال على خديه، وتصنع نقطا بللورية سميكة على وجه القمر.. وكان يحس أنه يعرف كل شيء، كل شيء في هذه الدنيا، ويحس أنه لن يقوى على السكوت على مايعرف، وأنه لم يعد ذلك الصبي القديم.. سوف ينتقم لجده «مهيوب»، ولأمه، ولعمرو. وللدنيا كلها. ثم خيل إليه أنه يستطيل فوق الأرض. وأن دماغه ينتفخ. وينتفخ ويصير صندوقا هائلا يسع كل هذه الدنيا.

رأى على الأرض ثعبانا كبيرا يزحف بسرعة رهيبة، ويقفز مختفيا بين أعواد البوص على شاطئ الترعة. انتفض واقشعر جسمه. اعتدل مسرعا. نهض واقفا. ثم أخذ يمشي على أطراف أصابعه، ثم أخذ يجري، يجري، حتى تهافتت أنفاسه فارتمى على مدار ساقية مهجورة. ووضع يديه على وجهه.. إلى أين هو ذاهب؟ كيف فعل مافعل؟ كيف تم كل شيء بهذه البساطة؟ إن مقتل جده «مهيوب» ومقتل «دياب» و«عمرو» والجميع أسهل من أن يرى نفسه طليقا هكذا، شيء لم يكن يتصوره أبدا. كيف ترك جده «مهيوب»؟! أيرجع للبلدة بدونه؟! ماذا يقول لأمه؟ أتراه يستطيع العودة إلى بلدته؟! لا.. إنه لن يستطيع، لن يستطيع رؤية وجه أمه.. يعرف

بالضبط ماذا سيحدث لها إن هو عاد وحده بدون جده مهيوب. ستكون الكارثة عظيمة.. إنه يحب أمه، لهذا فهو لن يستطيع رؤية وجهها ساعة تتلقى النبأ.

انتبه، رأى نفسه يمشي، ورأى نفسه يدخل في طريق لم يكن في حسبانه.. طريق يؤدي إلى بلدة كبيرة واضحة. في الطريق ناس يمشون راكبين وراجلين. أحس بالخوف برهة.. انقلب الخوف إلى شعور بالأمان.. إن أحدا من السائرين لم يعبأ به، لم يقبض عليه، لم يسأله من أنت وابن من؟..

ظل يمشي، والقمر يمشي معه، يختفي في الشوارع ويظهر من جديد في الحودايات والأجران. انتبه مرة أخرى: إلى أين يذهب بالضبط؟. لم يعرف الجواب. رأى شيخا معمما يمشي مهرولا فيما يتمتم بكلمات وآيات. مشى وراءه مسرعا. تذكر الغرباء الذين يجيئون قريته «بلاد الله خلق الله» ويبيتون في المسجد الجامع وفي الصباح يعطيهم الناس القروش والأرغفة.

قاده الشيخ إلى وسعاية، وفي المواجهة جامع كبير، وللجامع مئذنة. اقشعر بدنه من فرح غامض، وانفتحت في داخله طاقات من الضوء. تذكر «عمرو» وجمعة المؤذن، والاستغاثة، والحب، وانكشاف الرؤية، و.. والشكاوي. الشكاوي التي كان يريد أن يكتبها لعمرو. ما الذي كان يريد عمرو أن يقوله في شكاواه.. وتذكر الشكاوي العديدة التي قرأها في الملف، تذكر أمه، والقاضي المتجول الذي رمى بذرته في جوفها واختفى، لايعرف إن كان ذلك الأب المجهول نذلا أو كريما.. لكنه يتذكر الآن كل الأغاني التي

كانت أمه تغنيها كلما انفردت بنفسها، والمواويل التي سمعها وتعلمها من الغرابوة، وما تعلمه من عمرو.

هرول الشيخ في داخل المسجد، وهرول في أعقابه «طلعت»، اتجه الشيخ إلى الميضأة، ومثلما فعل الشيخ فعل. قال له الشيخ أثناء الوضوء سويا:

- زمزم

فغمغم بكلمات مضغمة ضحك لها الشيخ بسرور، ثم أنهى وضوءه وانطلق في صحن الجامع يبسمل.

وقف «طلعت» وحده على حافة الميضأة. الجو ساكن ورهيب لكنه مريح مع ذلك. رأى عن يمينه بابا عرف أنه باب المئذنة.. دفعه بيده فانفتح، فتراقص قلبه. دلف داخلا، احتواه الظلام، لكنه تحسس درجات السلم وسلكها صاعدا. ظل يصعد وقلبه يتقافز معه، حتى رأى نورا يتسلل من أعلى في فتحة المئذنة. اندفع متراقصا. دخل شرفة المئذنة، وقف مطلا على الخلاء الفسيح، وعلى وجه القمر.

تضاعف وجه القمر، وأحس «طلعت» أنه يرى كل شيء أكثر من ذي قبل، وأنه من هذه الشرفة يستطيع أن يرى مالا يراه بقية عباد الله. انبثقت في دماغه كلمات لا تحصى: من أغاني أمه، من مواويل الغرابوة، من شكاوي عمرو. من استغاثات جمعة المؤذن. رفع ذراعيه ووضع كفيه على خديه.. صاح فجأة مستغيثا:

- يا رب يا .. رب يا را..ا..ا.ب.

ثم توقف مرتعدا، إذ ارتد إليه صوته قادما من الأفق البعيد، رائقا بريئا، شديد الحزن، رنانا. فأعاد الجملة من جديد. وما إن أتمها حتى رأى كثيرا من الأشباح تخرج من المسجد وتبزغ من الحواري وتقف تحت المئذنة رافعة رأسها نحوه في انبهار.

ارتعشت أوصاله، ارتعشت كفه خلف أذنه. خرج صوته متماوجا حلو الرعشة حلو الرنين:

ـ يا رب.. يا لـ.مـ.صـ. طفى بلغ مقاصدنا.. ا.. ا.. واسمح.. لنا بالرضا يا واسع الكرم.. ى.. ى.. ى...

هتف أكثر من صوت:

ـ الله يفتح عليك يا ابني.. يا سلام.. الله يفتح عليك. كمان والنبي.

هنا أحس بأنه يولد من جديد، وأن الدنيا تعطيه وجهها. في الحال وذكر أمه. ثم تذكر جده «مهيوب».. إنه لن يتركه.. لن يترك هذا المكان، سوف يعود إليه ليزور قبره، ويقيم بجواره. سوف يشكر لله، وللدنيا، كل ماقرأه في الملف، وما سمعه من «عمرو» وما عاشه مع أمه.

صار صوته يجلجل في الأفق، والناس تتزايد وتتزايد أمام المسجد، فتظل واقفة محملقة في المئذنة في انبهار، وتصيح هاتفة تطلب المزيد، ويبدو عليها الانشراح من كلام يقوله ولا يدري كيف قاله ومن أين جاء. هنا ابتسمت أمه في الظلام. وكانت رائعة، رائعة، كانت في الواقع تريد أن تبكي. فما بالها لو رجع إليها بدون جده

«مهيوب»؟!. إنه لن يرى هذا المنظر. لن يراه، فلسوف تموت أمه لو عاد إليها بدون جده مهيوب.. لن يتركها تموت.. ولسوف تحزن لو طال غيابهما.. نعم سوف تحزن، ولكنه واثق أنها ستظل تستقبل المساء كل يوم بابتسامة، بينما تنظف زجاجة المصباح.

تمت

المعادي

السبت ١٠ سبتمبر سنة ١٩٧٧



في روايته الجميلة هذه، والتي صدرت للمرة الأولى عام ١٩٧٨، يكشف الكاتب الكبير خيري شلبي صفحة من أسرار ريف الدلتا في بدايات الخمسينيات. حيث ينسج عالمًا واسع الثراء عن «طلعت» الذي يبحث عن أبيه «القاضي» الذي زار بلدتهم لأيام تزوج فيها الأم «توحيدة»، ثم اختفى ولم يظهر أبدًا. وتتبُّع الشرطة والأهالي لحقيبة «الحاج سليم» مقاول الأنفار التي اختفت من بيت عمدة القرية بما تحتويه من «كنز» هائل، أغلب الظن أنه من الحشيش، بعد مقتل المؤذن، الذي كان متوقَّعًا أن يصبح الشاهد الوحيد على السارق، في الليلة نفسها. وبلغته التي تعرف هؤلاء الفلاحين، وتنتمي إليهم، وتقبض على حقيقتهم، يحكي لنا خيري شلبي عما طال الفلاحين من قهر السلطة، ومكرها، وفساد الأفندية الذين يعملون من أجلها. في «الأوباش» يأسر خيري شلبي كلًّا من أبطاله وقرائه بحكايات أخّاذة، وتحقيقات رسمية، وشكاوى كيدية، ونمائم لا تنتهي. فيصحبنا جميعًا إلى عالم ساحر نود لو بقينا فيه رغم ما فيه من آلام.

خيري شلبي واحد من أهم كتاب الرواية في العالم العربي. حائز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٥. له أكثر من سبعين كتابًا ما بين الرواية والقصة والمسرحية والدراسة، من أشهرها: «وكالة عطية»، و«صالح هيصة»، وثلاثية «الأمالي»، و«زهرة الخشخاش»، و«نسف الأدمغة»، و«صحراء المماليك». وقد تُرجمت أعمال خيري شلبي إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والصينية والكورية والأردية.



دار الشروق
www.shorouk.com
تصميم الغلاف عمرو الكفراوى